علم القلوب

تأليف

أبي طالب المكي

محمد بن علي بن عطية الحارثي

المتوفى ٣٨٦ هـ

حققه وعلق عليه

عبد القادر أحمد عطا

أبو طالب المكي

علم القلوب



حققه وعلق حواشيه وقدمه

عبد القادر أحمد عطا

الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها: علي يوسف سليمان

شارع الصنادقية . بميدان الأزهر بمصر

الطبعة الأولى
١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م

شركة الطباعة الفنية المتحدة
١٠ شارع المستعلى بالله / بالدراسة

إهداء متواضع إلى الإمام الذى وجهتنى أنفاسه السامية نحو المعرفة الإلهية .

إلى بقية السلف الصالح . سيد العلماء وقدوة المحققين أستاذى الحبيب . سيدى الأستاذ الشيخ :

مصطفى عبد الخالق الشبراوى

بسم الله الرحمن الرحيم

التقـــــديم

هذا الكتاب :

هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القراء مغتبطين ، هو كتاب «علم القلوب» لأبى طالب محمد بن على بن عطية الحارثى المكى . صاحب «قوت القلوب» المشهور ، الذى يعتبر مع كتابنا هذا من أسس السلوك الدينى القويم الذى يحتاج إليه فى تصحيح الأعمال والنيات والعقائد . ويوقفنا على دسائس النفوس ومكائد الشيطان حتى يتضح السبيل ويستنير الطريق .

وعلم القلوب من مخطوطات دار الكتب المصرية ، تحت رقم ١١٣ تصوف . ويقع فى ٢١٥ صحيفة ، ومسطرتها ١٩ سطراً ، وقد كتب بخط نسخى جميل ولكنه كثير التحريف والاضطراب حيث أسقط ناسخه بعض الكلمات ، والتزم فيه تذكير المؤنث وتأنيث المذكر ولم يكن دقيقاً فى رعاية قواعد اللغة العربية ، وقد اضطررنا إلى إضافة بعض الكلمات التى يستقيم بها المعنى وجعلناها بين علامتين هكذا [ ] كما اضطررنا إلى تغيير بعض الكلمات لتقويم المعنى كذلك أو لتصحيح الأسلوب ، ونبهنا على ذلك فى التعليق ، وصحيفة العنوان بخط الناسخ ، وعليها خطوط تثبت ملكيته لأناس مختلفين[1] . كما تثبت تواريخ ميلاد ووفاة بعض علماء التصوف

---

(١) رستم أحمد الثروانى والسيد عمر بن السيد محمد والسيد زين العابدين فى ذى القعدة سنة ١١٤٣ هـ . ويوسف زاده يوسف

المشهورين[1] ، وقد أثبت على صحيفة العنوان كذلك أن الكتاب . قد أحضر من جامع مولانا الإمام الحسين[2] .

وليس للكتاب نسخة ثانية فى أى فرع من فروع دار الكتب . وتوجد له نسخة ثانية « فى الاسكوريال » وعلى هامش النسخة المصرية تعليقات بخط ردىء لا تخرج عن شرح الكلمات اللغوية شرحا وافيا ، وليس عليها مايدل على تاريخ نسخها ، ولكن نوع الحبر والورق وطريقة الترقيم والرسم كل ذلك يدل على أنه كتب على الأرجح فى القرن السابع الهجرى وعلى المرجوح فى القرن الثامن . وليس للكتاب مقدمة إلا حمد الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم . وليس ذلك بدعا بين المؤلفات التى كتبها الكبار من أهل المشاهدات والأذواق فى القرون الأولى للهجرة ، وقد اكتفى المؤلف فى كتابه « قوت القلوب » الذى يكبر علم القلوب حجما بمقدمة قصيرة أعقبها بفهارس كتابه ، فلا غرابة فى منهج المؤلف من هذه الناحية .

منهج الكتاب ومزاياه : —

بحث المؤلف فى كتابه الموضوعات الآتية :

١ — ماهية الحكمة وعظم قدرها ومن المستحق لبذل الحكمة وشرفها

٢ — الفرق بين الحكمة والعلم والحكيم والعليم .

٣ — معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم . طلب العلم فريضة على كل مسلم .

٤ — بيان التوحيد والتفريد على لسان أهل الإشارة من العارف والمريد .

٥ — وصف العارفين الذين وصفهم المعروف بالصفاء واليقين .

٦ — صفة الإخلاص وطبقات المخلصين بالقلب .

٧ — حكم النية فى الأعمال ومعرفة دقائق العلل وغوامض الآفات .

---

(١) محي الدين بن عربى والسهروردى وأبو طالب المكى

(٢) مكتوب على الوجه محضر من سيدنا الحسين فى ماه » مارت أى شهر مارس سنة ١٨٧٦ ميلادية

٨ — تصريف العقائد والأعمال وتحصيل نيات كثيرة فى محل واحد .
٩ — نية الاختلاف فى المساجد .
١٠ — النية فى جلوس العبد فى المساجد والقعود فيها .
١١ — النية فى التجوع لله
١٢ — النية فى زيارة الإخوان .
١٣ — النية فى الصوم
١٤ — صفة علامة المؤمن وصفة وصف النحل فى الطيران .
١٥ — تفصيل الخصال المجتمعات فى النحلة الموجود مثلها وشبهها فى المؤمن .

وهى موضوعات تتفق مع عنوان الكتاب ، فهى تبحث عن عمل القلب ودوره فى تصحيح أعمال الجوارح أو عن العمل القلبى المحض الذى لا يتصل بالجوارح كالتوحيد والتفريد والحكمة والعلم ، وقد استغرقت النية والإخلاص نصف الكتاب تقريبا ولذلك يعتبر الكتاب من أهم المراجع فى هذا الباب وأوسعها .

وقد عمد المؤلف إلى التوسع فى نقل أقوال كبار الزهاد والصوفية المعتدلين ، ورتب هذه النقول ترتيبا دقيقا بحيث تتساند كلها فى وحدة وترابط لتلم بالموضوع من جميع أطرافه ولا تدع لسائل بعد ذلك سؤالا ولا تترك فجوة فى الباب دون بحث وإسهاب ولم يكن عمل المؤلف قاصرا على جمع أقوال العلماء فحسب ولكنه يوضح رأيه الخاص فى كل موضوع مشيراً إلى ذلك بقوله ، قال أبو طالب المكى رحمه الله ، وهو مع كل ذلك يعرض علينا فى كل موضوع ما يناسب المبتدئ والمتوسط والمنتهى ويعنى برسم المثل العليا التى يصعب على كثير من الناس تطبيقها والعمل بها ، وينبه على الأخطاء التى يقع فيها كثير من المعتقدين والعاملين لله ، كما يقف طويلا عند كل ما يوهم الحلول والاتحاد والتشبيه فيوسعه بحثا وتنبيها على الخطر الجاثم من خلفه .

وليست الكتب التي تعتمد على النقول سهلة التصنيف إذ يقل فيها التوفيق والنجاح كثيرا إذا خلط مؤلفوها فى نقولهم وحشدوها دون تذوق ولا ترتيب ولا انتقاء ، ولكن مؤلفنا كان بارعا فى عرض نقوله وتنميقها حتى استرعت القلوب والأنظار والأذواق بجمال عرضها وجودة انتقائها وتسلسل أفكارها فى باقات منسجمة الألوان رائعة الجمال ...

وللكتاب مزايا كثيرة يكاد ينفرد ببعضها . ويشترك فى باقيها مع غيره من المؤلفين وإن كان ينفرد كذلك باستيعاب الموضوع وجودة الاختيار ويمكن تلخيص تلك المزايا فيما يلى

١ – يفتح أمام الباحثين مجالات البحث حيث يهيء لهم التأليف فى كل موضوع من موضوعات الكتاب بالاستعانة بقليل من المراجع كتبا مستقلة يمكن السير فيها على نهج جديد يتفق مع الكشوفات العلمية الحديثة .

٢ – يمكن التعرف من خلال نقوله الكثيرة التى نقلها عن كبار الصوفية والزهاد والعباد على كثير من شخصياتهم التى تستحق الظهور فى رسائل مستقلة توضح مذاهبهم وآراءهم بالاستعانة ببعض المراجع . كذلك ، ومن أمثال هؤلاء . الشبلى ، ويحيى بن معاذ الرازى ، والحسين بن منصور الحلاج وأبو سليمان الدارانى وأبو العباس الزوزنى ، وإبراهيم بن أدهم وذود النون المصرى . وأبو سعيد النيسابورى وغيرهم . من الأعلام الذين لهم فى مجال البحث السلوكى فى الإسلام أقدام راسخة . حيث قدم قدرا كبيرا من أقوالهم فى كل باب من أبواب الكتاب .

٣ – لاخير فى حفظ القواعد الشرعية ، ومعرفة أحكام العبادات إذا لم يصحب ذلك تصحيح للعمل به ، وإحراز كثير من الخير منه أو إخلاصه لله وحده دون نظر إلى دنيا ولا إلى عقبى . وهو ما جهد المؤلف فى بيانه حتى جاء من أوفى الكتب إن لم يكن أوفاها فى هذا الباب

٤ – يفتح آفاقا جديدة فى القرآن وتفسير أسراره ومقارنته بالآيات الكونية فى الآفاق والأنفس وقد أعطانا المؤلف مفتاح هذا العمل الجليل

فى حديثه عن صفات النحل وصفات المؤمنين وتوافقهما فى أربعين وجها جعلها بيانا لقوله تعالى : «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر» وتوضيحا لسر إيحاء الله إلى النحل من دون أنواع الطير وهو نهج جميل نرجو أن يفتح أعين العلماء على كثير من الأسرار المبثوثة فى القرآن الكريم وعلى نظائرها فى الآفاق والأنفس .

مؤلف الكتاب :

هو محمد بن على بن عطية الحارثى المكى ويكنى أبا طالب . وهو من أهل الجبل ونشأ بمكة . . وتجمع المراجع على أنه كان صاحب رياضات ومجاهدات عنيفة منها أنه ترك الطعام زمانا واقتصر على الحشائش المباحة حتى اخضر جلده من كثرة تناولها . ومهما كان الاعتراض على هذا الخبر فإن شيئاً واحدا لا يمكن الاعتراض عليه هو دلالة الخبر على غرابة الرجل فى جهاده لنفسه وكفاحه لشهواتها وصدقه فى ذلك ، وشهرته به حتى تناقل الناس عنه القصص الصحيح وغير الصحيح على السواء ، وتقول بعض المراجع إنه كان فى نهايته صاحب أسرار ومشاهدة . وهذا الكتاب الذى بين أيدينا إحدى ثمرات هذه المرحلة من حياته مرحلة الأسرار والمشاهدة ويدل على ذلك ماتراه فى أنحاء الكتاب من هذا اللون كثيراً . أما قوت القلوب فيغلب أنه ألف قبل هذا الكتاب لأنه يميل نحو المجاهدات والرياضات .

وكان المكى واعظاً ولم يكن شيخاً للطريق ويروى أنه خلط فى كلامه فهجره الناس وابتعدوا عنه ونسبوه إلى البدع فامتنع هو عن الوعظ وتروى جميع المراجع أن له مصنفات فى التوحيد بعد أن تذكر له قوت القلوب ولم يعلم من هذه المصنفات إلا هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، وقد لقى كثيراً من الصوفية ولكنه تتلمذ على أبى الحسن بن سالم البصرى شيخ السالمية بعد موته وحين دخل بغداد بعد ذلك . وبقى بها إلى أن هجره الناس ومات سنة ٣٨٦ هجرية ودفن هناك وقبره ظاهر يزار .

لمــاذا هجره الناس :

يروى صاحب تاريخ بغداد أن للمكى فى القوت أقوالا مستبشعة فى الصفات وينقل عنه أنه قال « ليس على المخلوقين أضر من الخالق » وتوافقه المراجع فى هذا النقل . وقد ذكر عن الشبلى فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا قوله «إلهى كنت أتمنى معرفتك فلما عرفتك وقع اسمى فى ديوانك ولا يمكننى الهرب فلا أستطيع المكث مع الله وليتنى لم أعرفك » وقد رددنا على ذلك فى موضعه من التعليق وقد ذكر فى كتبه قليلا من الروايات الإسرائلية ذات الدلالة على قيمة المثل العليا للأخلاق الدينية ، وإن كان تفاصيلها بعيدة عن الصدق .

أما روايته عن الشبلى، فهى تعبير المبتدىء حينما يجد نفسه مأخوذا بنظام دقيق فى السلوك ، ومهما كان فى العبارة إن صحت عن الشبلى من خطأ فى التعبير فهى نقل، وليس على المكى فيها سبيل إلا سبيل النقل فحسب ولا يطعن ذلك فى عقيدته ولا فى سلوكه لا سيما وأن جميع المراجع تذكر أنه كان رجلا صالحا مجتهداً فى العبادة ويذكر اليافعى فى مرآة الجنان أن له لسانا حلوا فى التصوف ويصفه بأنه قدوة الأولياء الكرام .

أما العبارة الأولى : فمن الذى ينكر مدلولها ؟ وهل يضر الإنسان شىء فى الحياة غير خالقه ؟ وهل يعرضه للضرر سوى تصدية لمعرفة الله وادعاء تلك المعرفة دون استعداد لها؟ وهل يمحق العمل الصالح سوى هفوة من هفوات المعرفة الإلهية فإذا كان رفع الصوت فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض يحبط الأعمال دون أن نشعر فما بالك بمثل هذه الهفوات من هفوات نسمعها دائما فى الطرقات والبيوت اعتراضا على قضاء الله مرة وتصحيحاً لأحكامه مرة أخرى ورفعا للصوت والرأى فى حضرته وغير ذلك . فهل رأيت يا أخى أضر على المخلوقين من عدم الأدب فى معرفة الخالق وليس بين التعبيرين فرق إلا ما فى الأول من الاختزال وما فى الثانى من التوضيح .

وليس المكى وحده هو الذى أصابته سهام الناس من بين رجال الدين فقد تعود بعض الناس أن ينكروا مالم يألفوه من مسائل العلم إنكارا كاملا لا مظنه فيه للحق ولا للتعديل وتعود بعضهم الآخر أن يتوقف فيما لم يألف من تلك المسائل فلا يقطع فيها بحكم بل يسلم أمر علمها لله وهذا النوع الثانى أقرب إلى الصواب من سابقه فهو لا يهدم جازما بالخطأ بل يترك مالا يناسب مداركه إلى من يناسب مداركهم .

والناس لا يضعون الألفاظ إلا لما عرفوه من الأشياء وألفوه حتى من فنون المعرفة. أما مالم يعرفوه وما لم يصلوا إليه من فنون العلم فلم يضعوا له ألفاظا تدل على معناه وحينما ترتقى مدارك إنسان ما حتى يحلق فى آفاق المجهول غير المنظور ، فإنه يقع فى دوامة الحيرة لا يستطيع التعبير عما شهد من جديد فى العلم والمعرفة، ولا يجد من يشاركه فى نفس المشاهدة إلا القليل فإما أن يرجع إلى ما وضعه سابقوه لهذا اللون من المعرفة من ألفاظ يعبر بها عن معناه وإما أن يضع هو ألفاظا يعبر بها ومشاهدته لا تكون غريبة عنه ولكنها تكون غاية فى القرابة عند غيره من الناس حتى تصل عندهم إلى مظنة الاتهام .

ومهما يكن من أمر فإن دراسة كتب السلوك الدينى لازمة لكل الناس يأخذ المحققون منها حاجتهم من الحقائق وغير المحققين لهم فيها الملاذ من القلق والاضطراب ولهم فيها اليقين الذى فقدوه بين أمواج الزخرف والزينة والتكاثر ولهم فيها الإخلاص الذى لا بد منه ولهم فيها راحة الأرواح إلى الحائرة وضابط العقول النافرة ، وتصحيح الأعمال وإصابة الخير الكثير بعمل واحد أما المتجردون لله بأعمالهم فلهم فيها ميزان تجردهم وضوابط مثلهم العليا حيث يسلك فى هذا المسلك أفراد فى العالم كانوا عجيبة الأعاجيب أمام الذين لم يألفوا هذا السلوك من الناس .

وبعد :

فهذا كتابنا الذى نقدمه اليوم نرجوا أن يقع خالصا لله تعالى كما أرجوا أن يكون التقصير فى إعداده مدعاة للدعاء لى بالتوفيق فى المرات التالية وأدعو الله أن يجعل نفعه عاما للمسلمين . وسنحقق نسبته إلى مؤلفه فى نهايته

وأتقدم بالشكر لمن قدم لى عونا فى تحقيقه ولا سيما :

الدكتورة فايزة كمال الدين والأستاذ فؤاد السيد والأستاذ محمد شلبى
والأستاذ السيد عشماوى والأستاذ عبد الفتاح الملاح
والأستاذ أمين خورشيد

الذين يقدمون للجميع فى قسم المخطوطات بدار الكتب خدمات تجل عن الوصف نفعهم الله ونفع بهم إنه سميع مجيب .

علـــم القـــلوب

لأبى طالب المكى

محمد بن على بن عطية الحارثى المـكى

المتوفى سنة ٣٥٨ ﻫ

حققه وعلق حواشيه وقدمه

عبد القادر أحمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد النبي وآله أجمعين .

باب ماهية الحكمة وعظم قدرها
ومن المستحق لبذل الحكمة وشرفها

قوله جلت قدرته « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » . ونحن نذكر قبل تفسير هذه الآية ما أودع الله فيه من لطيف الحكمة ، وذلك أن الله جل ثناؤه ، أعطى النبوة والرسالة للخصوص من أهل الصفوة ، وختم ذلك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأغلق باب الرسالة والنبوة ، فلم يكن لأحد أن يدعى ذلك بعده وأعطى الحكمة نعمان عليه السلام ، ثم جعل بابها[1] مفتوحا إلى يوم القيامة بلا توقيف ولا تحديد .

وقد استثنى الله عز وجل فى عشرة أنواع من فواضل عطائه ، وذكر ذلك فى محكم كتابه ، قوأبهم ذلك فى مشيئته ، يعطى ذلك من يشاء من خواص عباده ، ويمنعه[ا] عمن يشاء ممن لا يرضاهم لودادة وقطع فى شيئين ولم يستثن فيهما[2] ، فصار حتما على الله لأهل الصفوة من خلقه .

فأما الأنواع المستثنى فيهن ، [ف]أولها[3] إعطاء الحكمة للحكماء ،

---

(١) فى الأصل « بابه » . (٢) فى الأصل « فيه » .
(٣) فى الأصل « أوله » .

قال الله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء » فاطلبوها[١] بالجوع والظمأ . الثانى ، الملك ، قال الله سبحانه « والله يؤتى ملكه من يشاء » فاطلبوه[٢] بالتواضع والحياء . الثالث : الرحمة . قال الله عز من قائل « يختص برحمته من يشاء » فاطلبوها[٣] بالتضرع والبكاء . الرابع الغنى : قال الله تعالى « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » فاطلبوه بالشكر والرضا . والخامس : الإجابه . قال الله تعالى فى محمل كتابه : « فيكشف ماتدعون إليه إن شاء » فاطلبوها[٤] بدوام التبصيص[٥] . والسادس : التوبة قال الله تعالى غافر الحوبة[٦] « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء » فاطلبوها بملازمة الطاعة والتضرع والدعاء . السابع : الرزق . قال الله عز وعلا : يرزق من يشاء بغير حساب » فاطلبوه بملازمة الطاعة والتقى . الثامن المغفرة قال الله جل جلاله : « يغفر لمن يشاء » فاطلبوها بلزوم الخوف والرجاء التاسع : الهداية . قال الله تبارك وتعالى « ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » فاطلبوها بحفظ العهد والوفاء . العاشر : ترفيع الدرجات وإعطاء الكرامات قال الله جل ذكره « نرفع درجات من تشاء » فاطلبوه بالكد والجهد والعناء . ثم قال فى إعطاء الحكمة : « [ومن يؤت الحكمة] فقد أوتى خيرا كثيرا » ولم يقل [ذلك] فى شىء من هذه الأنواع المذكورة تعظيما لمحل الحكمة ، فتدبر لطيف الخطاب تقف على الصواب . ثم حتم الله بالمزيد للشاكرين وبالذكر للذاكرين وقطع ذلك إيجابا ولم يستثن فقال فى الشكر « لئن شكرتم لأزيدنكم » قال بعضهم لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم

(١) فى الأصل « فاطلبوه » .
(٢) فى الأصل « فاطلبوها » .
(٣) فى الأصل « فاطلبوه » .
(٤) فى الأصل « فاطلبوه » .
(٥) التبصبص التحير .
(٦) الحوبة الاثم

طاعتى ، ولئن شكرتم طاعتى لأزيدنكم خلوتى ، ولئن شكرتم خلوتى[1] لأزيدنكم محبتى ، ولئن شكرتم محبتى لأزيدنكم مودتى ، ولئن شكرتم مودتى لأزيدنكم قربى ، ولئن شكرتم قربى لأزيدنكم الغنى ، ولئن شكرتم الغنى لأزيدنكم معرفتى ، ولئن شكرتم معرفتى لأزيدنكم رؤيتى ووصالى ، فزيادة كل مقام بمقدار ذلك المقام . وقال بعضهم : لئن شكرتم الفقر لأزيدنكم فقرا على فقر[2] ، ولئن شكرتم البلاء لأزيدنكم بلاء على بلاء وقال غيرهم[3] : لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان ، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم العرفان ، فالشاكر فى مزيد ، والشكار فى مزيد المزيد ، والشكور فى نهاية المزيد : ولهذا الفصل شرح طويل ، والعارف يجتزئ من القليل بالكثير .

قال أبو طالب محمد بن عطية المكى فى كتابه المترجم بقوت القلوب قال[4] فيه : والمزيد هو إلى المنعم تجعله ما يشاء فيما يشاء مهما يشاء كيف يشاء . وقد يكون المزيد أحوالا وأفعالا ، ويكون أخلاقا . ويكون صفات[5] ، ويكون ذاتا ، ويكون علوما ، ويكون فهوما ويكون معجلا ويكون مؤجلا ويكون عند فراق الدنيا ويكون فى الآخرة . [و] كما قطع الله تعالى بالمزيد

---

(١) أى خلوتكم معى فى الذكر وليس المراد الخلوة فى الغناء فى حب الله لأنه مرتبة تأتى بعد مرتبة الطاعة والمحبة والمعرفة والفرق بين خلوة الذاكر وخلوة الفانى أن خلوة الذاكر يلاحظ فيها الذاكر والمذكور وهى مرتبة طلاب الطريق أما خلوة الفانى فليس فيها ذاكر ولا مذكور وهى مرتبة المرادين من أهل الله .

(٢) المراد بالفقر حاجة العبد إلى الله كل شأن من شئونه وارتباط قلبه بتلك الحاجة

(٣) والبلاء على ثلاثة أنواع . نوع للانتقام وعلامته أن يصحبه ضيق فى الصدر وشكوى للخلق ونوع لتكفير الذنوب وعلامته أن يصحبه ضيق فى الصدر من غير شكوى للخلق ونوع لزيادة الدرجات وعلامته ألا يصحبه ضيق فى الصدر ولا شكوى للخلق .

(٤) فى الأصل . فقال .

(٥) فى الأصل : صفاتا

لأهل الشكر . كذلك قطع أيضا بالذكر منه لأهل الذكر ولم يستثن فيهما ، فقال اذكرونى أذكركم : فما من عبد يذكر الله إلا والله يذكره ، فقال بعضهم : اذكرونى على وجه الأرض أذكركم فى بطن الأرض : كما قيل إن الميت إذا وضع فى قبره وانصرف عنه المشيعون من أهله وتركوه وحيدا فى لحده . يقول الله عز وجل : ملائكتى . غريب قد نـأى عنه الأهلون ، ووحيد قد جفاه الأقربون ؛ قد كان فى الدنيا ذاكرا ؛ ثم يقول ؛ عبدى خذلوك ؛ عبدى رفضوك ؛ وعزتى وجلالى لأنشرن عليك رحمتى .

وقال بعضهم : اذكرونى عند المعصية بحل الإصرار[1] أذكركم فى القيامة عند رؤية النار. كما حكى فى الأثر أن الله جل ثناؤه قال فى بعض كتبه : عبدى استحى منى عند المعصية أستحى منك غدا يوم القيامة ولا أعذبك بنارى . وقيل . اذكرونى وأنتم لى أذكركم وأنا لكم كما قيل. إن الله تعالى يقول فى بعض أسفار الأنبياء : عبدى أنا لك فأنت لمن ؟ وأنا معك فأنت مع من ؟ . وقيل اذكرونى بنسيان غيرى أذكركم وأكشف الحجب [لكم] عن وجهى حتى تنظروا بنورى إلى نورى . وقيل . اذكرونى بالقلب والجوارح واللسان أذكركم بالرؤية والجنة والرضوان فذكر اللسان جزاؤه الجنة ، وذكر الجوارح جزاؤه الرضا ؛ وذكر القلب جزاؤه النظر إلى الرب ؛ وقال أبو يزيد البسطامى : العجب ممن يقول ذكرت ربى ؛ وأنا أجتهد على أن أنساه فلا أنساه ثم أنشأ يقول :

الله يعلم أنى لست أذكره ... وكيف أذكره من لست أنساه

ويقال إن قوما من الفقراء دخلوا على الشبلى فقالوا : ماتقول فى الذكر؟ فأنشأ يقول :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى ... وهل أنسى فأذكر ما هويت ؟

ثم قال : الذكر حرفة الغافلين ؛ والزهد حرفة البطالين ؛ والمحاسبة

---

(١) الاصرار تأكيد العزم على معاودة المعصية .

حرفة المعجبين[١] ؛ والمشاهدة حرفة المتحققين . قال الشبلى إذا تقلقل القلب بالشوق إلى المذكور ؛ تحرك اللسان بذكر المذكور وقد أحسن القائل حيث يقول :

ذكرتك لا أنى نسيتك ساعة ولكن بوادى الشوق تبدو فأنطق

وقد أوحى الجليل إلى صاحب الحزن الطويل : ياداود من ذكرنى ذكرته ومن شكرنى أحببته ؛ ومن أحبنى قتلته[٢] ؛ ومن طلبنى أبليته ؛ ومن عرفنى حيرته ، ومن هرب منى أدركته : وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه : إن لله تعالى مقاود معلقة بالعرش بعدد قلوب المؤمنين ؛ لكل قلب مقود ؛ فلا يذكر ذاكر ربه حتى يحرك الرب مقوده . ثم قال : حركة المقود[٣] هى قبل ذكر الذاكر للرب[٤] .

فيابن آدم إن علمت أن ذكر [ك] الله من علامة ذكر الله لك فأكثر ذكرك له . وقال يحيى . عند ذكر الدنيا تموت العقبى . وعند ذكر العقبى تموت الدنيا ؛ وعند ذكر المولى تموت الدنيا مع العقبى فعليك بذكر المولى يوصلك إلى العلا ؛ وقال : ذكر الدنيا داء وذكر الخلق بلاء ، وذكر العقبى دواء ، وذكر المولى شفاء .

وقد ذكر أبو سعيد النيسابورى رحمه الله تفسير هذه الآية فى كتابه ، الإشارة والعبارة من ثلاثين وجها انتقدت منها ابابه ولولا خوف الملالة

---

(١) المقصود الاعلان بالذكر وبالزهد وبالمحاسبة فالذكر لا يكون إلا بعد غفلة وإعلان الزهد لا يكون إلا بعد بطالة من أمر العبادة وإعلان المحاسبة إعجاب بالعبادة .

(٢) أى من أحب الله قتل فيه نوازع النفس الامارة ومن طلب معرفته الله عرفه الله به عن طريق البلاء الذى يعد النفس لها ومن ادعى المعرفة حيره فى معرفته لان المعرفة هى الحيرة فى المعرفه .

(٣) فى الاصل : هو

(٤) أى من باب قوله تعالى . فتاب عليهم ليتوبوا . وقوله يحبهم ويحبونه فمن علم منه صدق التوجه هيأله الذكر .

لطولت لك في المقالة . فهذا وجه من الحكمة في ترتيب الآية مما أشرف على فهمه أهل الرعاية والعناية . فأما تفسير الآية . قوله تعالى وجل ذكره « يؤتى الحكمة من يشاء » فلذلك أوجه وهو أربعة عشر وجها من التفسير ، وأنا أبين لك ذلك[1] من غير إطالة ولا تقصير ، ولا تعمق ولا تكثير .

قال ابن عباس رضى الله عنه ، الحكمة هي المعرفة بالقرآن ناسخه[2] ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

وقال السدى . الحكمة هي النبوة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : كاد الحكيم أن يكون نبيا .

وقيل الحكمة الفراسة : قيل لبعض الحكماء ما الفراسة ؟ قال الإصابة بالظنون ومعرفة مالم يكن بما كان . كما حكى عن العلوى قال : دخل خارجة بن مصعب ويحيي بن أكثم على الثورى بمكة فرفع رأسه إليهما ثم قال : كأنى بأحدكما قاضيا و [ب] بالآخر وزيرا . فولى يحيي القضاء وخارجة الوزارة . وقال أبو بكر ابن يزدانيار رحمه الله : قد أكثر أهل الخطأ والغلط في تأويل تصحيح الفراسة . والصحيح من الفراسة نظر الصالح بالصلاح الذى فيه نور التقى والإيمان والحقائق ، والصدق بالزهادة في الدنيا ، والرغبة في العقبى ، فينكر على أهل المنكر منكرهم . وذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : استحى [من] الله كما تستحى [من] رجل صالح[3] من قومك . لم يقل كما تستحى من رجل فاسق ؛ فأراد صلى الله عليه وسلم ألا يكون المؤمنون بتخلقهم بحقائق[4] ماوجب عليهم بحيث يمقتهم المؤمنون الصالحون ، فما كان

---

(١) في الاصل بذلك .

(٢) النسخ في اصطلاح الاصوليين من الفقهاء إنهاء حكم شرعى ثبت بنص شرعى وإحلاله حكم آخر بدله بنص شرعى جاء ليلا على انتهاء الحكم الأول والناسخ هو النص الأخير الذى ارتفع الحكم الأول بمقتضاه وهو يلغى النص السابق .

(٣) في الاصل . رجلا صالحا .

(٤) في الاصل « من حقائق » .

غير هذا [من الفراسة] فذاك أجمع وسواس وأوهام وهو أخسها وأهاجيس نفس فى نفس بنفس لنفس . ومن العجب فى باب الفراسة ما حكى عن أبى الحسن العلوى الهمذانى قال : اشتريت بطة وجعلتها فى التنور ووضعت تحتها شيئا ، وخرجت إلى جعفر الخلدى ، فلما أردت أن أخرج من عنده قال لى . أقم عندنا الليلة ، فأبيت وخرجت ، فلما رجعت إلى البيت إذا كلب قد دخل البيت وحمل البطة ، فقام رجل وعثر به وصبه فبقيت لم آكل من ذلك لقمة ، فلما كان من الغد دخلت على جعفر الخلدى فقال لى . من خالف المشايخ سلط عليه الكلاب ، وكوشف بالقبائح .

فهذا كما قال الواحد العارف :

يثقب الخلق لا تخطى فراسته　　　كأنه فى قلوب الخلق جاسوس

قال : والفراسة لا تعطى إلا لأهل الصدق والسياسة ، وأرباب الورع والحراسة ، كما حكى عن الأحيمصى ذى النون بن إبراهيم المصرى رحمة الله عليه أنه قال: حرم الله ثلاثا على ثلاث . الزيادة فى الدين ، والإلهام فى القلب ، والفراسة فى الخلق ؛ على كل بخيل بديناه . سخى بدينه . سىء الخلق مع ربه ؛ فقال رجل ممن حضر . بخيل بالدنيا عرفناه . سخى بالدين علمناه . صف لنا سىء الخلق مع الله قال. نعم . يقضى الله قضاء . وينفذ علما . ويختار لغيره أمرا فترى صاحب سوء[1] الخلق مع الله تعالى مضطرب القلب فى ذلك . غير راجع إليه ولا راض به . دائما يشكوه إلى خلقه فما ظنك به ؟

وقيل . الحكمة . العقل وكذلك حكى فى التفسير عن ابن عباس فى معنى قوله . . وآتيناه الحكم صبيا[2] . يعنى العقل . فمن عقله رده على الصبيان حين قالوا له : تعال نلعب : فقال . ما للعب خلقنا وبمثله جاء فى تفسير قوله جل وعلا « ولقد آتينا لقمان الحكمة » قيل العقل قال وهب

---

(١) فى الاصيل « سىء » .

(٢) المراد بالآية « يحيى بن زكريا » ويعرف فى كتب العهد القديم والجديد بيوحنا المعمدان .

ابن منبه . يقاس عقل لقمان يوم القيامة بعقول مائةألف عاقل من الصديقين والشهداء والصالحين فيكون عقل لقمان أفضل من عقولهم أجمعين . قيل له من أعقل الناس ؟ قال محسن يخاف الله . قيل فمن أحمق الناس ؟ قال مسيء يأمن مكر الله . وقيل للأحنف بن قيس متى عقلت ؟ قيل يوم[1] ولدت قيل وكيف ؟ قال . منعت الثدى فبكيت فلما أعطيت سكت . وقيل لعبد الملك من العاقل ؟ قال الذى لا يقدم على ما يندم [عليه] . وعن كعب قال . لو أن رجلا وافى يوم القيامة بحسنات تزن جبال الدنيا لم يعدل ذلك مثقال ذره إذا كان لا عقل له . ومن كان عاقلا وصل إلى الجنة بمثقال ذرة حسنة . قيل له ومن العاقل ؟ قال الزاهد عن الدنيا الراغب فى الآخرة وحكى عن بعض الأعراب أنه قال : لو صور العقل لأظلمت معه الشمس المضيئة[2] والقمر الدرى ، ولو صور الحمق لأضاء معه الليل المظلم والحندس المدلهم ، وقال عمرو بن العاص . كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه عقل يمنعه عن أن يُخدع . وورع يمنعه عن أن يخدَع .

وقيل : الحكمة هى الخشية . ونحو هذا جاء عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء : قال . من لم يخشى الله فليس بعالم ألا ترى أن داود عليه السلام قال : ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك . والحكمة[3] الإيمان بك . فما علم من لم يخشك . وما حكم من لم يؤمن بك

وقال بعضهم : الخشية هى[4] انقباض القلب تحت هيبة الرب : وذلك لما طالعوا موارد الحق عليهم ومطالعة الحق إياهم خشعت الجوارح وخشيت القلوب . فهؤلاء القوم كما وصفهم الحكيم ذو النون ابن إبراهيم المصرى :

وإن لربى صفوة من عباده قلوبهم فى بحر خشيته تجرى

---

(١) فى الاصل (يوما) .

(٢) فى الاصل . لاظلم من الشمس المضيء .

(٣) فى الأصل : فالحكمة .

(٤) فى الأصل : هو .

وأبدانهم قد سكنت حركاتها لما فى قلوب القوم من مضمر السر
تراهم صموتا خاشعين لربهم وأرواحهم تسرى إلى معدن الفخر

وقال ابن عطاء : الخشية أتم من الخوف . لأن الخوف صفة عموم المؤمنين . والخشية صفة العلماء[1] الربانيين . وقال جعفر الخلدى : خشية العلماء تكون من وجوه أربعة . من ترك الحرمة فى العبادات وترك الحرمة فى الإخبار عن الحق . وترك الحرمة فى متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم . وترك الحرمة فى الأولياء .

وقيل : الحكمة . هى[2] الفقه فى تفسير القرآن . قال ابن عباس : ليس شيء من القرآن وإلا وقد نزل فى شيء ولكن لا يعلمون وجوهه . وقال ابن عباس رضى الله عنه : مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسى ودعالى بالحكمة وقال : اللهم فقهه فى الدين . وعلمه التأويل واجعله إماما للمتقين . ودعا لى جبريل عليه السلام مرتين وقال للنبى صلى الله عليه وسلم استوص به خيرا فإنه خير أمتك . وقال أبو بكر النقاش فى كتاب التفسير المختصر من المختصر . إن تفسير القرآن يشتمل على أنواع منها تفسير الناسخ والمنسوخ والمجمل والمفسر والمحكم والمتشابه ، والأقسام والموصول الذى لا يجوز قطعه . والمفصل الذى أوله غير متعلق بمعنى ما بعده ، وما بعده معلق بأوله ، ومواضع الاختصار التى لا تظهر . والإشارة والإضافة وكلام يدخل بين كلامين ليس منه ، وسؤال عن حجة قرر [ها] الله للعباد فلم يردوا جوابا وتفسير الحروف التى افتتح الله بها السور ، ومالا يعلم إلا برواية وأثر ، والوعد والوعيد ، والمدح الذى لا يصير ذما والذم الذى لا يصير مدحا ، ومواضع بيان الجِيْدة والنظائر والوجوه والأمر والنهى والحلال والحرام ، ومايطول تعداده من علم الظاهر والباطن وقال الربيع (ابن سليمان) سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول : ثلاثة

(١) فى الأصل : علماء .
(٢) فى الأصل : هو .

أشياء لم يعطهن إلا نبي . تفسير القرآن كله ، ولغة العرب كلها ، وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم كلها : وقال ابن عباس : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير يعلمه العلماء ، وتفسير تعرفه العرب ، وتفسير لا يعرف أحد بجهالته يعني من الحلال والحرام ، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله عز وجل[1] ، فمن ادعى علمه فهو كذاب .

وقيل : الحكمة هي[2] العلم . لقوله تعالى « وعلمناه من لدنا علما » وعن النبي صلى الله عليه وسلم . قال : أوحى الله إلى الخليل ابرهيم أني عليم أحب كل عليم : وقال ابرهيم التيمي رحمه الله : العلوم ثلاثة . علم دنيوي . وعلم دنيوي وأخروي . وعلم لا للدنيا ولا للآخرة .

فأما العلم الدنيوي فالطب والنجوم وما أشبه ذلك ، وأما العالم الأخروي والدنياوي . فهو القرآن والفقه . وأما العلم الذي لا للدنيا ولا للآخرة فهو الشعر عجبت لمن قاله ومن يقوله . وما أساء إلا على سنتين ذهبتا من عمري في طلب الشعر ، قال أبو بكر النقاش رحمه الله ، العلماء ثلاثة : عالم ، وجاهل ، وعويلم فالعالم الذي يصيب كثيرا ويخطىء قليلا ، والجاهل الذي يخطىء كثيرا ويصيب قليلا ، والعويلم الذي يقوم صوابه لخطئه . وقال سفيان . العلماء ثلاثة : عالم بالله وبأمر الله فذلك العالم الكامل ، وعالم بالله غير عالم بأمر الله فذلك التقي الخائف . وعالم بأمر الله غير عالم بالله فذاك العالم الفاجر .
وأنشد لابن بحر :

العلم بلغ قوما غاية الشرف ... فصاحب العلم محفوظ من الخرف
يا صاحب العلم مهلا أن تدنسه ... بالموبقات فما للعلم من خلف

وقال الخليل بن أحمد . الناس أربعة . رجل يدري ويدري أنه يدري فاتبعوه : ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذاك نائم فنبهوه . ورجل

---

(١) وهو مراد الله تعالى من كلامه ، فنحن نفهمه حسب مداركنا القاصرة ، والمعنى الحقيقي لا تسعه عبارة ولا إشارة .

(٢) في الأصل هو .

لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذاك متعلم فعلموه . ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذاك جاهل فاجتنبوه . فمثله كما قال القائل :

إذا أنت لا تدرى ولا أنت موقن   بقول الذى يدرى فحتى متى تدرى
ومن أعظم البلوى بأنك جاهل   وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

وكان للخليل بن أحمد والد يبيع التبن . فدخل يوما ؛ فرأى الخليل يكتب العلم ، فلامه . فقال له . إلى متى تبذر وتمحق هذا الرزق ؟ وأنشأ الخليل[1] يقول :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى   أو كنت أجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى   وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وقيل الحكمة : الإصابة فى الأقوال . إن نطق [قائلا] نطق بالله . وإن سكت سكت مع الله . وقال ابرهيم بن رستم : صحبت ابن عون عشرين سنة ما أظن أن الملائكة كتبوا عليه حرفا واحدا[2] . وقال بعض الصالحين منذ ثلاثين سنة ما تكلمت بكلام أريد أن أعتذر منه . قال الهيثم لابنه صالح يابنى . إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب . وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب . وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول لابن عباس رضى الله عنه : كأنه ينظر إلى الغيب من ستور دقيقة[3] من جودة رأيه وكثرة إصابته . وفى مثله :

بصير بأعقاب الأمور برأيه   كأن له فى اليوم عينا على غد

وقال الوضين ابن عطاء : من قل كلامه كثر صوابه . ولقد عاش أبونا آدم عليه السلام تسعمائة وثلاثين سنة . فلما حضرت وفاته أوصى بنيه فقال : يابنى . إنى كنت فى الجنة أسمع كلام الملائكة ؛ فأخرجت منها بذنبى . وإن ربى وعدنى إن ملكت لسانى أن يردنى إليها . فاحفظوا ألسنتكم .

---

(١) فى الأصل فأنشأ يقول الخليل .
(٢) أى من المحرم أو المكروه .
(٣) فى الأصل : دقيق .

ما تجز به رءوسكم ألسنتكم . وفى معناه قيل :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه ليث يخاف لقاءه الأقران

وقيل الحكمة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . التى هى شرح أحكام القرآن وبيانه وتفصيل مجملاته . كالصلاة والزكاة وحد السرقة والزنا والخمر والقذف وسائر الأحكام التى يطول بذكرها الكتاب . فأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم كشف أحكام هذه الآى كلها .

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله . السنة قاضية على الكتاب . وليس الكتاب قاضيا على السنة . [ف] قال . لأن السنة تفسير الكتاب ؛ وهى معنى الأمر والنهى . كقوله تعالى . خذ من أموالهم صدقة : ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المقدار المأخوذ منه فقال . لا يؤخذ من أقل من خمسة أوسق وخمس ذود وخمس أواق . وقال الله عز وجل « وليطوفوا بالبيت العتيق » فلم يسم سبعا ولا عشرا فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا . كذلك الصلوات الخمس وجميع الفرائض .

وقيل السنة كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم كنزول القرآن وهو قوله « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » ودليل هذا من القرآن قوله جل ذكره مخاطبا لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله (والحكمة) ويعنى القرآن ويعنى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الشافعى رضى الله عنه فى حديث فاطمة بنت قيس ثلاثون فائدة لكل فائدة حكم متعلق بها . وهى التى جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فزوجها(١) عمرو بن حفص ثم طلقها البتة وحفص غائب بالشام فأرسل إليها وكيله مشيرة ، فسخطته . فقال والله مالك عندنا شيء فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فقال . ليس لك عليه نفقة ؛ وأمر أن تعتد فى بيت أم شريك . ثم قال : تلك امرأة تغشاها أصحابى .

---

(١) فى الاصل فزوجها لها عمرو بن حفص .

فاعتدى عند ابن أم مكتوم . فإنه رجل أعمى ، تضعين ثيابك حيث شئت فإذا حللت فآذيننى ، فلما حلت ذكرت للنبى صلى الله عليه وسلم أن معاوية وأبا جهم خطبانى فقال : أما جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه[١] وأما معاوية فصعلوك لا مال له فانكحى أسامة بن زيد فكرهت (ذلك) ثم قال . انكحى أسامة فنكحته ، فجعل الله فيه خيرا وأغبطت به : فقد استنبط أهل الفقه من مقدار هذه الكلمات هذه الفوائد الكثيرة ، وقد ذكر أبو طالب المكى رحمة الله عليه فوائد الخبر فى كتابه[٢] فمن أراد الوقوف على ذلك فليطالعه[٣] .

وقيل الحكمة هى إصابة الأقوال والأعمال والإرادات ، لا يقول إلا لله ولا يعمل إلا لوجه الله ولا يريد إلا ما يريد الله .

وقيل الحكمة ثلاثة أشياء . الحياء من الملك الجبار وحفظ الحرمة للنبى المختار ، ورعاية حقوق الأهل والولد والجار .

وقيل : الحكمة هى[٤] الورع . قال أبو عبدالله . أصل الورع أربعة . حفظ اللسان من الغيبة والكذب ، وحفظ الخلق من الحرام والشبهة ، وحفظ الستر[٥] من الفحش والريبة[٦] ، وحفظ القلب من الحسد والعداوة . وقيل ألا تعمل بشك ، ولا تأكل بشك ، ولا تتكلم بشك .

ومن دقائق الورع لأبى يزيد البسطامى ، ماحكى عنه أنه غسل ثوبه ، فأراد أن يطرحه على جدار قوم ، ثم قال لا يجوز بغير إذنهم ، ثم أراد أن يطرحه على جدار المسجد فقال لايجوز ، مالهذا بنى فأخذ الثوب بيده وقام فى

---

(١) أى إنه رجل شرير .
(٢) قوت القلوب .
(٣) فى الاصل فليطالع .
(٤) فى الاصل هو .
(٥) أى الفرج .
(٦) فى الاصل . والزينة .

الشمس فأظل على قوم[1] ، فقال لا يسع هذا . فخرج إلى الصحراء ووقف في عين الشمس إلى أن جف وكان يقول لم ألطم وجه الماء بيدي قط ، كنت أقول إن الماء خلق لإقامة الطاعة فكيف أوذيه بما أنال منه ، وكنت إذا رأيت حشيشة خضراء أقول : حشيشة تسبح الله ولم تذنب فكيف يطؤها مذنب مثلي ، وقيل الورع ألا يدخل في شبهة ولا يأخذ برخصة .

وقيل الحكمة . حفظ القرآن عن ظهر القلب ، يحكى عن ابن جبير قال سمعت ابن عباس يقول من قرأ القرآن من قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكمة صبيا ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أوتي القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، ويقال إن امرأة مرت بعيسى عليه السلام وهو يعمل العجائب فقالت : طوبى لبطن حملك ولثدي أرضعك ، قال عيسى طوبى لمن قرأ القرآن وعمل به . قال الفضيل بن عياض حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو ، ولا يكون له إلى مخلوق حاجة ، إلا الخلفاء . فمن دونهم ينبغي أن يكونوا محتاجين إليه .

وقيل الحكمة : هي فهم لطائف القرآن ووجوهه ومعانيه كما حكى عن على بن أبي طالب رضي الله عنه . لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب لفعلت ، وقيل مامن آية في القرآن إلا ولها سبع معان ظاهر وباطن وإشارات وأمارات ولطائف ودقائق وحقائق ، فالظاهر للعوام والباطن للخواص ، والإشارات لخاص الخواص ، والأمارات للأولياء ؛ واللطائف للصديقين والدقائق للمحبين ، والحقائق للنبيين ، ثم تحت كل كلمة بل تحت كل حرف بحر حكم عجاج ذو قعر[2] مواج ، فإذا قرأه الشاهد من العارفين ، والصادق من الخائفين أعطى بكل حرف ذهن ،

---

(١) أي حجب الشمس عنهم .

(٢) في الأصل (لات قعر مواج) .

ولـكل ذهن ألف فهم ولـكل فهم ألف فطنة ولـكل فطنة ألف عبرة والعبرة لا تقوم بها السموات والأرض . فذلك قوله تعالى . ومن يؤته الحـكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . يعنى فهم القرآن ومعانيه .

وفى الخبر . إذا تركت أمتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرموا بركة الوحى . قال الفضيل يعنى فهم القرآن . وقيل لجنيد بن محمد رحمة الله عليه . ما الحـكمة فى تقديم قول الله تعالى الظالم على المقتصد والسابق فى قوله «فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات» فقال للسائل . إن الحـكمة فى ذلك هى أن الظالم له ذنوب جمة ومعاصى جلة تحملانه على الإياس من فضل الله والقنوط من رحمته فابتدأ بذكرهم كيلا ييأسوا . فأغلق باب الإياس عنهم وأخر ذكر السابق لأن له طاعات كثيرة وأحوالا رفيعة تحمله على الإعجاب ، فأغلق باب المعجبين عنهم فتوسط بذكر المقتصد كى يتوسط مع الله ويعمل فيما بين الخوف والرجاء . وهذا كما أوحى الشكور إلى صاحب الزبور ، يا داود بشر المذنبين ، وأنذر الصديقين لأن الصديق اقرب إلى العجب والمذنب أقرب إلى الإياس والقنوط ، وقد فسر (ت) هذه الآية بمائة وستين وجها ليس هذا موضع ذكرها إلا أنى أفسر لك وجها منها . قال بعض العارفين . فمنهم ظالم لنفسه . قال . الظالم لنفسه من اشتاق إلى الجنان والحور الحسان . والوصائف والغلمان كما أوحى خالق البرية إلى صاحب الخطية : يا داود من أظلم ممن عبدنى لجنة أو لنار ترى لو لم أخلق جنة ولا نارا ما كنت أهلا ان أطاع ولا أعصى[1] .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : من اشتاق إلى الجنة فسارع إلى الخيرات فهذا الظالم الذى زين (الله) له الجنان فاشتاق إليها ووصف له الرب نفسه بالـكرم

---

(١) أما كونه تعالى أهلا للطاعة فمفهوم . وأما كونه أهلا للمعصية فليس المراد استحقاقه تعالى المعصية استحقاق جزاء ولـكن المعصية تستتبع الرحمة والمغفرة والانتقام فى بعض الحالات فيصير المعنى أنه تعالى ما كان أهلا للمغفرة والرحمة والانتقام من : الـكافر .

والإحسان فلم يشتق إليه ، فكان شوقه شوق مخلوق إلى مخلوق ، فاستوجب لهذا اسم الظالم . والمقتصد من إليه الجنة مشتاقة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الجنة تشتاق إلى أربعة : إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه وعمار بن ياسر وسلمان الفارسى ومقداد الكندى ، فعموم المؤمنين من أصحاب اليمين تمنوا رؤية الجنة رؤية الجنة ، واشتاقوا إليها ، والجنة اشتاقت إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واشتاق على رضى الله عنه إلى خصوص العلماء الربانيين الذين كوشفوا[1] بعلم اليقين وعمر بهم طريق الصديقين فقال من حديث كميل فى جملة أوصافهم (أولئك أولياء الله من خلقه ، وعماله فى أرضه ، والدعاة إلى دينه ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، وأرواحهم معلقة بالمحل الأعلى هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فاستلانوا مااستوعر[2] منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، أولئك الأقلون عددا ، الأعظمون خطرا ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، ثم بكى على به أبى طالب رضى الله عنه حتى علا نحيبه ثم قال واشوقاه إلى رؤيتهم ، ياليتنى رأيتهم» .

قال أبو طالب المكى رحمه الله : ليس هذا وصف علماء الدنيا الناطقين بالرخص[3] والهوى، هذه[4] أوصاف علماء الآخرة . ونعت علم الباطن ،

---

(١) فى الأصل كشفوا .

(٢) الوعر من الطريق الصعب المسالك .

(٣) الرخص فى الفقه تشريع سهل يقوم مقام تشريع أصعب كالتيمم فى البرد الشديد بدلا من الوضوء فالتيمم هنا رخصة والوضوء عزيمة وكالإفطار فى السفر كذلك رخصةوالصوم عزيمة .

(٤) فى الأصل هذا .

وعلم القلوب[1] لا علم الألسنة المختلط بالجسد والشعب[2] فسبحان من رفع أقواما فجاوز بهم الحدود فصاروا منية المنى ، اشتاقت الجنة إلى قوم ، واشتاق القوم . إلى هؤلاء ، فصاروا مشتاق المشتاقين .

ومثل هذا ما جاء فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا أذن المؤذن فقال . أشهد إلا إله إلا الله اهتزت الجنة . وأشرفت الحور العين من قصورها وغرفها شوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شوق الجنة إليه اشتاق هو إلى طائفة من أمته . يخرجون فى آخر الزمان ؛ يتخلقون بأخلاق النبيين ويتمسكون بطرائق الصديقين . فهم الغرباء بين عموم المؤمنين . فقال فى حديث أبي هريرة واشوقاه إلى إخوانى . قالوا يا رسول الله أولسنا إخوانك ؟ قال : لا : أنتم أصحابى . إخوانى قوم يأتون بعدكم ، يود أحدهم لو يشترى رؤيتى بأهله وماله وفى رواية أخرى ، آمنوا بى ولم يرونى ، فهؤلاء الذين اشتاق الرسول إليهم ، صلى الله عليه وسلم ، هم غرباء الدين ، شهد لهم الرسول فقال ، بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء .

قال بعض أهل المعرفة : خلق الله الجنة[3] بما فيها من نور المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فلما اشتاقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان[4]

(١) المراد بعلم الباطن وعلم القلوب ، علوم الأذواق والإلهام الناتجة عن أحوال العبادات ، وقد نشأت معارك بين علماء الشريعة وعلماء التصوف فى هذا الباب ، والقول الفصل فى ذلك ، أن ذوق طعم العسل غير العلم به عن الغير ، وتجربة الإحراق بالنار وذوقها غير العلم بها عن الغير ، فلو علم علماء الشريعة وذاقوا ما ذاقه الصوفية ، لما اختلفوا معهم . فى شيء ، (راجع مقدمه شرح النصوص للإمام النابلسى) .

(٢) فى الأصل الشعوب .

(٣) فى الأصل بماء .

(٤) فى الأصل . كانت .

شوقها إلى المعدن والأصل ، وصار شوق المشتاقين إلى الجنة شوقهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنها من نوره خلقت . وقال الحكيم . قلب العارف دار الله[١] والجنة دار من أطاع الله . فأهل الطاعة مشتاقون إلى الجنة . فالجنة مشتاقة إلى العارف . لأن قلبه دار الله . والسابق من المولى إليه يشتاق[٢] . كما أوحى الرب الرحيم إلى صاحب النوح العظيم يا داود . ألا طال شوق أوليائي إلى . وأنا إليهم لأشد شوقا منهم إلى . ولكن حتى يبلغ الكتاب أجله . وكما جاء في الخبر : أن جبريل هبط على النبي عليه السلام فقال : من هذا العبد الذي مات من أمتك فاهتز عرش الرحمن لموته؟ وفي رواية أخرى من فرح الله بموته . فنظروا فإذا هو سعد بن معاذ رضي الله عنه . وكان وهب بن منبه ممن أظهر النبي شأنه في حياته . ووصفه بالحكمة فقال . يكون في أمتي رجل يجري الله الحكمة على لسانه[٣] . تتكلم يوما بفضل من الحكمة (ف)عجب له من ذلك حاضروه . فقالوا : سبحان الله . من أعطاك هذه الحكمة وأجراها على لسانك ؟ فقال : وهل أقول إلا من أصل وثيق[٤] . درست اثنين وسبعين كتابا ثم إن أبا هريرة حدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال[٥] : إن لله تبارك وتعالى صندوقا مربعا قدام العرش من لؤلؤة بيضاء طوله مسيرة خمسمائة عام وعرضه مثل

---

(١) المراد أن قلب العارف مشغول دائما بل ومستغرق في الله ولا يراد من مثل هذه العبارة في كلام الصوفية حلول ولا اتحاد فهم أبعد الناس عن هذا السلوك .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » وقوله جل ذكره ، يحبهم ويحبونه .

(٣) حديث موضوع ولا دلالة فيه على أن المقصود به وهب أنه صحيح فما الذي ربطه بوهب بن منبه ؟ .

(٤) في الأصل : من واصل أصل .

(٥) الحديث ظاهر الوضع وهو تصوير إسرائيلي في لقيمة الحكمة وأخواتها وسبق أن قلف إن العبرة في نقل هذه الأخبار بدلالتها لا بتفاصيلها .

ذلك مضروبا بكواكب درية[١] كل كوكب[٢] منها مسيرة سنة . مكتوب على ترابيعه . لا إله إلا الله محمد رسول الله . وعليه قفل من نور . فى طول مسيرة ثلثمائة عام . وله مفتاح فى طول مسيرة مائة عام فيه[٣] اربعة أشياء ممزوجة بأربعة . لا يعطى ذلك أجمع إلا الأنبياء والأولياء : الحكمة ممزوجة بالجوع . والورع ممزوج بالمحبة . والبلاء ممزوج بالرضا : والحزن[٤] ممزوج بالشوق . فهذه الأربعة هى أصول فى طريق المقربين . فتدبر فيما قال فإن شرحه ربما طال .

ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيما ناجى [به] ربه . إلهى أعطيت داود وسليمان علما . وأعطيت ابرهيم رشده من قبل . وأعطيت موسى وهرون الفرقان و[illegible] . وأعطيت عيسى بن مريم البينات . وأيدته بروح القدس وفضلت أمة موسى على عالمى زمانهم . فما الذى أعطيتنى وأعطيت أمتى ؟ فقال الله عز وجل أعطيتك يا محمد سبعا من المثانى والقرآن العظيم . وأعطيت أمتك الحكمة . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

وقال بعضهم . خذ الذهب من الحجر . وخذ اللؤلؤ من البحر [.] خذ المسك من المسك[٥] [و] خذ الدر من الصدف [و]خذ الحكمة ممن قالها . وإن لم يكن من أهلها فرب رمية من غير رام . وهذا كما حكى فى الأثر أن حذيفة وسلمان رضى الله عنهما نزلا على نبطية بالمدائن ، فلما حضرت الصلاة قال أحدهما ، يا هذه ، هل هاهنا مكان طاهر نصلى فيه ، قالت طهر قلبك وصل حيث شئت ، قال أحدهما لصاحبه ، خذها كلمة حكمة من قلب كافره

(١) فى الأصل : الدرى .
(٢) فى الأصل كوكبة .
(٣) فى الأصل فيها .
(٤) فى الأصل . والورع . ويدل على التصحيح ما بعده .
(٥) المسك الجلد .

وقال صلى الله عليه وسلم . إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا ، وقلة منطق فاقتربوا منه[1] ، فإنه يعطى الحكمة ، فالله تعالى قال لنبيه عليه السلام : فاسجد واقترب بسجودك إلى ، كى أتحفك بالفوائد من عندى ، فإن لك عندى ما تريد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : اقتربوا من الحكيم فإنكم تجدون عنده ما تريدون . وقال القاسم فى قوله عز وجل . (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء [وهو القوى العزيز] قال : اللطيف من نور قلبك بالهدى ، وربى جسمك بالغذا ، وأخرجك من الدنيا مع الإيمان بغير بلوى ، ويحرسك وأنت فى لظى ، حتى تسمع وترى . يرزق من يشاء الحكمة والفطنة ، وهو القوى يقوى الفطن ، العزيز عز عنايته ورعايته فلا يبذلها لكل أحد . وقال أبو بكر الوراق : الحكماء خلفاء الأنبياء ، وليس بعد النبوة إلا الحكمة . وهى إحكام الأمور ، وأول علامات الحكمة طول الصمت ، والكلام على قدر الحاجة : وقال عيسى عليه السلام : اليقين حياة الإيمان ، والحكمة . نور القلب ، ولا حكمة إلا بيقين ، ولا يقين إلا بالتقوى ، ولا تقوى إلا بالزهد فى الدنيا ، ومفتاح ذلك كله التضرع والدعاء ، فكيف يفتح لك باب بغير مفتاح .

وقيل : سبعة أشياء لا توجد إلا عند سبعة أصناف من الناس ، فمن وجد ذلك عند غير هؤلاء فهو باطل ، الحكمة عند الزاهدين . والسماع عند العاشقين[2] والحزن عند المشتاقين ، والبكاء عند المحزونين ، والذل عند

---

(١) هذا القول يدل على علامة العالم الذى يصلح للإرشاد . لأن آفة العلماء هى الثرثرة فى الحديث بالعلم . وأكثر الناس إشارة إلى الله أبعدهم عنه : وحضرة المعرفة حضرة بهت وسكون . لا حضرة صياح وثرثرة .

(٢) السماع المباح عند الصوفية . هو ما كان بالروح لا بالنفس . وضابط السماع المباح . ألا يصحبه اضطراب ولا حركة ولا صياح . ولا تدبر للفظ : ولا للحن . أما ما نسمعه من بعض المريدين . من صياح عند السماع : فإذا أثر فى السامعين : هذا الأثر السابق . فصاحبه صاحب حال صحيح . وإذا لم يؤثر فى السامعين فهو مرض عصبى .

المحبين ، والفناء عند العارفين ، والإشارة عند الواجدين ، وقال صلى الله عليه وسلم : مامن شيء الواحد منه خير من ألف مثله إلا الإنسان .

قال أبو طالب المكى : لعمرى قلب حكيم خير من ألف قلب عليم ، وقلب مؤمن خير من قلب ألف مسلم ، وقلب موقن خير من ألف قلب مؤمن ، وقال الحسين بن منصور الحلاج : الحكمة سهام رب العالمين ، وقلوب المريدين أهدافها ، وألسن الحكماء قسيها ، والرامى الحى القيوم . والخطأ معدوم ، وقال النورى : لست أعظم أحدا كتعظيمى رجلا يكون معه كلمة من الحكمة ، قال بعضهم : الحكمة سهام الله الثاقبة[١] ، وألسن الحكماء القسى المصيبة ، وقلوبهم الجعاب[٢] المملوءة ، وسمع التائبين الأغراض الواسعة ، وقلوبهم الأسنة[٣] والرقاع اللامعة . والرامى الله بوصف القدرة النافذة . فلم يكن الله ليخطىء إذا رمى .

وقال بعضهم : نور القلب من الحكمة ، وظلماته من اللقمة[٤] ، وعمارته من كثرة الفكرة ، وخرابه من طول الغفلة والقسوة ، وقال بعض السلف : خير لقمان بين الحكمة والنبوة فاختار الحكمة . وكان عبدا نوبيا غليظ الشفتين أسود الجسد أبيض القلب . اشتراه سيده بثلاثين دينارا ، وكان له زوجة وأولاد كفار ، وكان فقيرا جدا ، فمن بركات الحكمة : أعتقه سيده وصار حرا ، وصار السيد بنفسه يخدمه ، وأقبل على أهله وولده فلم يزل يعظهم حتى أسلموا عن آخرهم ، وكثر الله ماله فجعله من آحاد[٥] أغنياء زمانه وهذا كله من شرف الحكمة ، وقيل : خير سليمان عليه السلام بين الملك

---

(١) السهام الثاقبة : التى تصيب هدفها .

(٢) الجعاب : جمع جعبة وهى وعاء توضع فيه السهام .

(٣) فى الأصل : الآنسة .

(٤) المراد : اللقمة الحرام . فليس شيء أضر على سالك طريق الله من أكل الحرام .

(٥) فى الأصل : من أحد .

والعلم والعقل فاختار العلم. فقال الملك: أمرنا ألا نفارق العلم، وخير نبينا بين الغنى والفقر، فاختار الفقر على الغنى. وقال: أجوع يوما وأشبع يوما، وأعيش فقيرا، وأحشر فى زمرة المساكين. قال وكان لقمان فى عصر داود عليه السلام، فلما دخل عليه قال: من مثلك يالقمان ؟ اخترت الحكمة فنجوت، وابتلى أخوك داود بالمعصية.

وقال يحى بن معاذ: الناس كثير والعلماء فى الناس قليل. والعلماء كثير والفقهاء فى العلماء قليل، والفقهاء كثير والحكماء فى الفقهاء قليل، وكلام العلماء يبكى العيون وكلام الحكماء يبكى القلوب، وقيل: كلام الحكماء يشفى المرضى، وكلام الحكماء يحيى الموتى وكلام العارفين يرضى المولى.

وقيل: الحكمة تحيي القلوب الميتة، وتستعمل الأجساد المتغلظة[1] وتجمع الهمم المتفرقة، وتبكى العيون الجافية، وترقق الأفئدة القاسية، وتوسع الصدور الضيقة، وتنور البقاع المظلمة، وتحرر العبيد، وتغنى الفقير وتعزز الذليل، وتجلس المملوك مجالس الملوك. وقال بعضهم: إذا ظهر حكيم فى محلة تبين فيها عشر علامات. قبحت الدنيا فى أعينهم، وحسنت الآخرة عندهم، سكن غليان قدورهم[2]، وارتفع غليان قلوبهم، وذهب القال والقيل من بينهم، وازدحم الناس فى مساجدهم، وتفرقوا من أسواقهم، واسترفق سنانيرهم[3] وكلابهم وحميرهم وفقراؤهم، وطرد عنهم الشيطان، ورضى عنهم الرحمن. وفيما أوحى الملك الكريم إلى المخصوص بالمناجاة والتكليم: يا موسى بن عمران اضمن لى من نفسك ثلاثة، أكرمك بثلاثة: احفظ بطنك من الحرام والشبهة حتى أكرمك بالحكمة، واقطع قرين السوء حتى

---

(١) اى تدفع الأجسام الثقيلة إلى العمل فى مرضاة الله.

(٢) كناية عن الزهد والتفرغ للعبادة والتقلل من الطعام.

(٣) السنانير جمع سنور وهو القط ومعنى استرفاق الكلاب والسنانير: أنها تشبع دائما فلا تغلب عليها الوحشية. واسترفاق الحمير: هدوءها لقلة إثارتها بالعدوان عليها.

أكرمك بالرفيق الصالح ، واحفظ لسانك من الكذب والغيبة حتى أكرمك بدخول الجنة ، فهذا والله هو الغنيمة ، بقطع خصلتين يحصل لك غدا دخول الجنتين . فالعجب ممن يملأ بطنه من الحرام والشبهة كيف يطمع فى الحكمة؟ والعجب لمن لا يهجر قرين السوء كيف يطمع فى مؤاخاة أهل الصلاح وإخوة من السادة ؟ والعجب ممن لا يحفظ لسانه من الكذب والغيبة كيف يطمع فى دخول الجنة ؟ وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : حكمة الجسم فى ترك نعيم الدنيا ، وحكمة الروح فى ترك نعيم العقبى ، وحكمة العقل فى احتمال أسرار الأولياء[1] ، فالحكمة الأولى للزاهدين ، والثانية للصادقين ، والثالثة للعارفين .

وقال بعضهم : المريد يطلب الحكمة ، والمؤمن يطلب التوبة ، والزاهد يطلب الراحة ، والمحب يطلب الخلوة ، والصادق يطلب الهمة ، والعارف يطلب الغاية ؛ والراغب يطلب الشهوة . فمن أراد الحكمة فعليه بمجالسة أهل الرغبة والرهبة ؛ ومن أراد التوبة فعليه بترك الحوبة . ومن أراد الراحة فعليه بهجران أهل القسوة والغفلة . ومن أراد الخلوة . فعليه بخلو المعدة . ومن أراد اجتماع الهمة فعليه بترك الأسباب . وقطع العلاقة ، ومن أراد الغاية فعليه بصحبة السادة . ومن أراد الشهوة فليتهيأ لعظيم الحسرة .

وقيل : المتكلمون ثلاثة . عالم أمرى . وحكيم ربانى . وقاص غافل شهوانى فالعالم غسال[2] . والحكيم نبال[3] . والقاص كيال[4] . وقال بعضهم : من

---

(١) أسرار الأولياء . إلقاءاتهم فى قلوب مريديهم وأرواحهم ، من العلوم والمعارف ، والتوجيه السلوكى عن قرب وعن بعد . عند التوجه الصامت الكامل ولزوم الجانب الأيمن من الأستاذ والبعد عن الجانب الأيسر عند الجلوس معه . وقد اعترفت العلوم الفلسفية ، بأن المتوجه إلى إنسان بروحه ، تنطبع فى روحه علوم المتوجه إليه (راجع مقدمة شفاء السقام للسبكى) .

(٢) أى يغسل النفوس والقلوب من هم الدنيا .

(٣) أى يصيد القلوب بنبال حكمته

(٤) أى يكيل الوصايا دون حساب .

ادعى الزهد فى الدنيا ولم يعط الحكمة فهو كذاب . ومن أدعى محبة الله ثم رغب فى الدنيا فهو كذاب ؛ ومن ادعى الإرادة ثم طلب الراحة فهو كذاب . ومن ادعى المعرفة ثم أطلق لسانه بالدعاوى فهو كذاب . ومن ادعى المحاسبة ثم جالس أهل الغفلة فهو كذاب . ومن ادعى محبة المصطفى صلى الله عليه وسلم ثم لم تجالس الفقراء فهو كذاب . ومن ادعى التوبة ثم تسوف بالطاعة فهو كذاب . ومن ادعى الإخلاص ثم غضب [إذا ذكر[ت]] عيوبه فهو كذاب . ومن ادعى العلم ثم لم يقل نومه بالليل، وحرصه بالنهار، ولم يزدد خوفه من الملك الجبار ، فهو كذاب. كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ازداد علما ولم يزدد وجعا لم يزدد[1] بعلمه من الله إلا بعدا ومقتا » .

فسبحان الله ! كيف نفتضح إذا قسنا أحوالنا بأحوال المتقدمين . وقد انقطع هذا الطريق . وعفا أثره . واندرس خبره . وعظم عند أهل المعرفة خطره ، فالرسوم موجودة ، والحقائق مفقودة ، والمعانى مصونة ، ومواضع الحقيقة منيعة ، وليس للخلق من حيث الخلق إلى الحق سبيل ، والدعاوى طويلة عريضة ، وقد أحسن مجنون بنى عامر حيث يقول :

أما الخيام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحى غير نسائها

فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ومن طلب علم التصوف بالتلقين فهو كمن أسس بنيانه على السرجين ، فما أسرع ما ينهار . كما قال الجليل فى محكم التنزيل : « أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم » قال . وكان الجنيد كثيرا ينشد هذين البيتين :

علم التصوف علم ليس يدركه   إلا أخو فطن بالحق معروف
وليس ينصره من ليس يشهده   وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

---

(١) فى الأصل « يزدده » .

وقال بعضهم عن السلف : سبعة من عجائب آخر الزمان ، حكيم ينطق من فعله ، وعالم مستعمل بعلمه، وواعظ لاطمع له ، ومتعبد لا علاقة له[1] ، وامرأة تزهد زوجها في الدنيا ، وتائب يدوم على التوبة إلى فراق الدنيا ، وصالح يعاونك في دين الله ، وينصحك في الله . وقال بعض السلف: من ترك الحرام أربعين يوما أخرج الله ينابيع الحكمة من قلبه، واشتعل[ت] قناديل المعرفة في صدره ،وزهد في الدنيا وعرف عيوبها،وعلم داءها من دوائها .

وقال بعض الحكماء : إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله بقلبه ملكا حكيما يغرس [الحكمة] في قلبه كما يغرس أحدكم طرائف[2] الأشجار في بستانه، وقال يحي بن معاذ : مثل الحكيم مع قلبه ، مثل البستاني مع بستانه ، في قلب العارف عشرة بساتين : بستان التوحيد ، وبستان اليقين ، وبستان المعرفة وبستان المحبة ، وبستان العلم ، وبستان الحلم ، وبستان السبيل[3] والسنة ، وبستان التواضع والخشوع ، وبستان الحلال ، وبستان السخاوة والبذل ، فيجب أن يدخل كل صباح تلك البساتين ويخرج ويقلع مالا يصلح فيها ، فيدخل بستان التوحيد . فإذا رأى فيه[4] شكا أو شركا ونفاقا ورياء ، قلع ذلك ورمى به . ثم يدخل بستان اليقين. فإذا رأى فيه حرصا وأملا وشينا وحقدا ورغبة قلع ذلك ورمى به . ثم يدخل بستان المعرفة .فإذا رأى فيه تشبيها وتمثيلا [أو] تعطيلا قلع ذلك ورمى به . ثم يدخل بستان المحبة فإذا رأى فيه اشتغالا بالأغيار، أوحلاوة الخلق والديار ،قلع ذلك فرمى به. ثم يدخل بستان العلم.فإذا رأى فيه جهلا وحمقا،قلع ذلك فرمى به ، ثم يدخل بستان الحلم .فإذا رأى فيه غضبا أو حمية أو تعززا أو خيانة أو عجزا،قلع ذلك فرمى به . ثم يدخل بستان السنة. فإذا رأى فيه بدعة أو محدثة أو زيغا

---

(١) أي ليس له تعلق بشيء من زينة الدنيا ولو كان مباحا .
(٢) أي نوادر الأشجار .
(٣) أي بستان الطريق إلى الله .
(٤) في الأصل فيها . في الفقرة كلها .

أو هوى، قلع ذلك ورمى به . ثم يدخل بستان الحلال. فإذا رأى فيه حراما أو شبهة، قلع ذلك ورمى به. ثم يدخل بستان البذل والسخاء . فإذا رأى فيه بخلا أو منعا أو طمعا ، قلع ذلك ورمى به .

وقيل: رأس مال الحكيم قلبه، لا تغنى حكمته على كثرة الإنفاق ، ورأس مال المؤمن دينه . يحفظه عن الشقاق والنفاق ؛ ورأس مال المنافق بطنه. يجمع فيها ما أمكن وأطاق ، ورأس مال العاقل قلبه . كيسه يحكمه بالشد والوثاق . وقيل الحكمة: ضالة المؤمن ، واللقمة ضالة المنافق . وقرأت فى أخبار بنى اسرائيل . قال . جمع رجع منهم ثمانين تابوتا من علم ، كل تابوت ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا . وكان لا ينتفع به، فأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان : أن قل لهذا الكذاب ، لو جمعت مثله بَعْدُ لا تنتفع به حتى تعمل بثلاثة أشياء . أولها[1] [أ]لا تحب الدنيا لأنها ليست بدار المؤمنين . والثانى: [أ]لا تصاحب السلطان. فإنه ليس برفيق المؤمنين[2] . والثالث: [أ]لا تؤذى المؤمنين ، فإنه ليس بحرفه المؤمنين . وقال أبو هريرة . تقول الحكمة. من طلبنى فلم يجدنى؛ فليعمل بأحسن ما يعلم، وليترك أقبح ما يعلم ، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعلم ، وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين . أنى ينبت الزرع ؟ قالوا: فى التراب يا روح الله . قال بحق أقول لكم كما لا ينبت الزرع إلا فى التراب ، كذلك لا تخرج الحكمة إلا فى قلب مثل التراب .

فالعجب من ذلك. كيف تطمع فى الحكمة وقد تغلبك اللقمة ؟ وتأسرك اللحظة ؟ وتشغلك الخطرة ؟ وتستعبدك الشهوة ؟ وقال ذو النون المصرى لبعض تلاميذه وهو يوصيه : جالس من تكلمك صفته ، ولا تجالس من يكلمك لسانه ، فقال ومن ذاك يا أستاذ ؟ قال : هو الحكيم الصادق . موعظته، رؤيته[3] ، آدابه [هى] فعاله ، قد أغناك مشهده عن مخبره . وقال

---

(١) الأصل أوله .

(٢) الأصل ليس هو برفيق .

(٣) أى إن رؤيته تقوم مقام وعظه أى تحيا القلوب برؤيته ؛ فكما تظلم القلوب =

كعب . إن الحكمة إذا خرجت من فم الحكيم صعدت إلى الله ، فصارت له تحت العرش ولها دوى كدوى النحل ، تذكر صاحبها عند الله ، وتثنى عليه . ولبعضهم :

وكيف تحب أن تدعى حكيما وأنت لكل ما تهوى تجوب
وتضحك دائبا ظهرا لبطن وتذكر ما جنيت فلا تذوب

وقال بعضهم . لو أن رجلا قعد بين جبلين . أحدهما ذهب والآخر فضة ، ثم جعل يتصدق من هذا ومن هذا ، ورجل حبيس ، بالحكمة ينطق ، لكان صاحب الحكمة أعظم أجرا عند الله . وقال بعضهم : مثل الجوع كمثل السحاب ، والزهد كمثل الرعد ، والقناعة كالبرق ، والحكمة كالمطر .

وقال بعضهم : أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو هذه الأمة بدعوتين فقال فى موضع : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة» وقال فى موضع آخر : «وادع إلى ربك» فإذا دعوتهم إلى ربك فادعهم بربك ، إلى ربك ، وإذا دعوتهم إلى سبيل ربك ، [ف]بالحكمة والموعظة الحسنة . وقيل : الحكمة عند الله فى أرضه تقوى بها أبدان المريدين للخدمة ، وتشرح بها قلوب المخلصين للفكرة ، وتطّهر بها أسرار المحبين للنظرة [1] . وفى الحديث : يد الله على أفواه العلماء لا ينطقون إلا بما سهل لهم من الحق . وقال فى حديث آخر : لا يبكى العبد حتى يضع الرب يده على قلبه ، فالبكاءون مُرقّون فى المنزلة على سائر جميع أهل المقامات ، وأرباب الأحوال ، بحديث موسى عليه السلام فيما ناجاه الرب [به] يا موسى بن عمران ، وأما البكاءون من خشيتى ، فإن لهم الرفيع الأعلى ، لا يشاركون فيه ، فالبكاءون مع

= برؤية الأشياء المنفرة ؛ تنير برؤية الأشياء الجميلة ومن هنا تحيا القلوب برؤية الصالحين الصادقين .

(١) أى لتكون محلا لنظر الرحمن إليها . إذ لابد أن ترتفع روح المؤمن وترقى لتقرب برقتها من العالم العلوى . فتكون محلا لنظر الله تعالى ورحمته .

هذه المنزلة : لا يبلغون درجات الحكماء . لأن الباكى قبل البكاء كان خاليا من موضع اليد ، فلما وضع الرب جل جلاله يده على القلب ، حضر له البكاء فبكى . فحصلت له بذلك المنزلة الكبرى . والحكيم لم تزل يد الله العظيم جل جلاله على فيه ، فلما حضر وقت المنطق ؛ رفع الرب يده عن فيه ، فنطق بالحكمة . فحصل له عند الله العلو والرفعة ، فما حصل للباكى بالوضع ؛ هو ما حصل للحكيم بالرفع ، فصار أعلى منزلة ، لأن الباكى أدنى منزلة من الحكيم . فحصل حال الحكيم مع الباكى فى هذا الفصل كحال العالم مع الشهيد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العالم وفضله . يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء . فيترجح مداد العلماء على دماء الشهداء . فأجل شىء عند الشهيد دمه ، وأقل شىء عند العالم مداده وحبره فترجح أدنى حالة العالم ، على أعلى حالة الشهيد . فما ظنك بأرفع حالاته عند الله ؟ وكذلك الحكيم أدنى حالاته هو وقت رفع الله يده تعالى عن فيه ، فينطق الحكمة . فتحصل له السناء والرفعة . فإذا كانت هذه الحالة أحقر حالاته ، فما ظنك بأرفع حالاته . إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب .

وقيل : كل مدينة ليس فيها عالم فأهلها سكارى . وكل مدينة ليس فيها فقيه فأهلها مرضى . وكل مدينة ليس فيها حكيم فأهلها موتى . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : يا معشر الحواريين بحق أقول لكم . لا تمنعوا الحكمة من أهلها فتظلموهم ، ولا تنطقوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموا الحكمة[1] . ومن ظلم الحكمة فالله خصمه ، ومن كان الله خصمه خصمه يوم القيامة .

وقال بعضهم : إن الله عز وجل غرس فى قلب عبده المؤمن أشجارا . شجرة الحكمة تسقى بماء الجوع . وشجرة الإخلاص تسقى بماء الزهد . وشجرة العلم تسقى بماء العمل . وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل . وشجرة الحكم تسقى بماء المحاسبة . وشجرة الورع تسقى بماء المراقبة . وشجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة . وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة . وشجرة المحبة تسقى

---

(١) نسبة الخبر إلى المسيح مشكوك فيها . وقد رويت عن كثير من الصوفية . وأعجب من ذلك إمر المسيح لتلاميذه بقراءة القرآن فى خبر سابق .

بماء الإنفاق والموافقة والإيثار . ولكل شجرة من هذه الأشجار نوع من الثمار لا يمسه إلا المطهرون . وهذه الأشجار كلها مغروسة فى أرض الإيمان وكل شجرة لا تثمر، فالعيب فى الأرض لا فى الشجرة . إذا تفكر العبد فيه فنظر، وما يعقلها إلا العالمون، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختال كفور .

وقال الكتانى رحمه الله . كنت فى بدايتى أرى غليان الحكمة فى صدرى لا أمنعها عن المستحق ولا غير المستحق . فرأيت ليلة من الليالى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامى ؛ فقال لى . إلى متى تستخف بالحكمة ؟ إن من استخف بالحكمة فقد استخف بالله ، ومن استخف بالله فما أسوأ حاله يوم القيامة . وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين : بحق أقول لكم . لا تنثروا اللؤلؤ بين يدى الخنازير . ولا تتكلموا بالحكمة عند من لا يعرفها .

قال . الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها أشر من الخنزير. صدق المسيح عليه السلام لأن اللؤلؤة الواحدة قيمتها من درهم إلى ألف . والكلمة من الحكمة يتنبه بها العبد الغافل فيخرج بذلك من غفلته . ويطيع ربه فينجو من النار ويدخل الجنة . وقيمة الرجل اثنا عشر ألفا . وربما تنبه بكلمة واحدة ألف رجل فصارت الكلمة من الحكمة خيرا من عشرين ألف لؤلؤة . بل خيرا من الدنيا بحذافيرها .

وكان منصور بن عمار أحد الحكماء يجلو[1] كلامه عن القلوب الدين[2] والعمى، فجرى يوما فى محضره ذكر رابعة العدوية، فبالغوا فى مدحها وقالوا:

---

(١) الأصل يجلى .

(٢) الرين : صدأ القلوب من الذنوب. والران والرين بمعنى واحد والمراد مايتراكم على القلب من لذة المعصية، وبتكرار المعصية ؛ يألف العبد لذتها فيتكون الران على قلبه ، ويتحجر ولا يحس بوعد ولا وعيد ، ولا يلين قلبه لذكر ؛ ولا يكون مستعدا لتلقى العلم ، والضابط الذى يجب أن يسير عليه العبد لمعرفة الحق من الباطل، أن يعرض العمل على نفسه ، فإن وجد فيها تشوقا إليه ، وتلذذا بفعله ، فهو باطل . وإن وجده ثقيلا على نفسه، فهو حق يجب اتباعه .

هي إحدى المتحققات في زمانها ، قد زهدت في الدنيا . وادعت أنها لا تريد العقبى، وتتكلم بكلام تتحير منه عقول الورى . فقال منصور بن عمار : إن رابعة مع حالها ومقامها هي ميراث كلمة من حكمتي . وكانت ممن رجع إلى كلام منصور . ثم قال منصور : أحدثكم عن بدو مارزقني الله من الحكمة . كنت مولعا في صباى برفع القراطيس من الأرض حتى عرفت بذلك . وكان الصبيان ربما أولعوا بي . فبينا أنا يوما في الصحراء . إذ أصبت قرطاسا فيه : لا إله إلا الله . رفعته . ولم يكن بإزائي حائط ولا شي أضع[ه] فيه . فبلعته . فرأيت في منامي تلك الليلة هاتفا يهتف بي . فيقول : إن الله قد شكر [لـ]ـك ما فعلت . وقد ألهمك الحكمة بما صنعت . فانطق بها[٣] إن شئت . وكل ما سمعتموه من كلامي فهو ميراث ذلك القرطاس .

ويقال: إن الشافعي رضي الله عنه دخل بعض السكور فاجتمع عليه قوم جهال، فجعلوا يسألونه فيجيبهم ولا يفهمون، فأنشأ يقول :

أأنثر درا بين سارحة النعم ... أم انثر منظوما لراعية الغنم
لعمري لئن ضيعت في شر بلدة ... فلست مضيعا بينهم غررا لكلم
فإن فرج الله اللطيف بلطفه ... وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
بثثت مفيدا واستفدت ودادهم ... وإلا فمخزون لدى ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ويقال إن ابرهيم بن أدهم . دخل على بعض الخلفاء . فقال : عظني يا إبرهيم . قال بماذا أعظك ؟ بالعلم أم بالحكمة؟ قال: بالحكمة. فقال ابرهيم: إن مثلك كما قال القائل :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقال الخليفة : أخرجوه عني . فجعلوا يرفعونه . وهو يتمثل ويقول : نفسي ! يا نفسي. إن تكلمت بالعلم والحكمة هجرك الجهال . وإن تكلمت

---

(٣) في الأصل به : ولا غرابة في هذا الخبر ، فالمدار على النية في العمل ، وكم من عامل لمثل هذا العمل ، لا يجازى بشيء لأن نيته غير خالصة لله تعالى .

بالجهل والحماقة لامك العلماء . فحصلت بين الضر والبلاء . ثم أنشأ يقول :

اتخذ الله صاحبا ودع الخلق جانبا
وتمسك بذكره إن فى ذكره الدوا
وتلذذ بحبه إن فى حبه الشفا
ثم سلم لأمره وارض عنه بما قضى

وقال أبو طالب المكى فى كتابه . إن من إزالة الحكمة ؛ أن ينطق الحكيم بها قبل أن يسأل عنها . وأن يجيب عن كل ما يسأل عنه . كما قال ابن مسعود من أجاب الناس فى كل ما يسألون [عنه] فهو مجنون . أى يحتاج[1] أن يكون الحكيم صاحب فطنة . عليم يعرف لكل واحد منهم من بحره . ويسقيه بكأسه . ويكلمه بلسانه . على مقدار فهمه وعقله . ويزنه بميزانه . فيظهر ما يمكن إظهاره . ويخفى ما يحسن إخفاؤه .

وقيل لبعض العارفين من الحكيم ؟ قال من وضع المرهم على موضع الجرح ويبط[2] الألم . ويشد موضع الكسر . ولا يسق الشربة إلا لمن نظف بطنه واحتمى . ولا ينثر العنزروت[3] فى عين الضرير الأعمى فإن رد بصره بهذا لا يرجى .

وقال أبو طالب رحمه الله : يحتاج الحكيم أن يستعمل أربع خصال حتى يكون قائما بحرمة الحكمة . أولها[4] [أ] لا ينطق [بها] قبل ان يسأل عنها[5] . ولا يذكر ذلك فى غير وقته . ولا يجيب عن كل ما يسأل عنه .

---

(١) فى الأصل محتاج
(٢) بططت القرحة شققتها
(٣) العنزروت والأنزروت هو الكحل الفارسى يعنى ترياق العين (تذكرة داود حرف الألف)
(٤) الأصل أوله
(٥) الأصل عنه

ولا يضع[ها] فى غير مستحقها وأهلها[1] . فإن اجاب عن كل ما يسأل عنه ذهب ثلث نوره . وإذا ذكرها فى غير وقتها ذهب نصف حلاوتها . وإذا تكلم [بها] قبل أن يسأل عنها ذهب ثلثا نوره . وإذا وضعها فى غير أهلها انطمس نوره .

وقال أبو على بن الكاتب : إذا سمع الرجل الحكمة فلم يعمل بها فهو مذنب ، وإذا سمعها فلم يقبلها فهو منافق ، وأنشد فى ذلك :

وضع الحكمة فى أربابها من ذوى الفهم وجنبها السفل

لا تكونن كمن من جهله عرض الدر على أهل البصل

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سافروا تصحوا وتغنموا » وقال أبو طالب فى معنى هذا الحديث : فغنيمة كل مسافر على قدر همته ، ومبلغ إرادته ومحله وقدره ، فغنيمة أبناء الدنيا الأرباح الدنيا ، وغنيمة أبناء الآخرة أرباح الآخرة ، فمن سافر فى طريق الزهد غنم الراحة ، ومن سافر فى طريق المحبة غنم المؤانسة والألفة ، ومن سافر فى طريق السنة والكتاب غنم الوصول ، ورفع له الحجاب ، ومن سافر فى طريق الهوى والبدعة غنم الخذلان ، وعن الوصول خاب وانقمع ، ومن سافر فى طريق حفظ العهد والوفا غنم القرب والرضا ، ومن سافر فى طريق حفظ الحرمة والحياء غنم النظر إلى المولى ، فى يوم الكشف واللقا .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لاينفع القلب إلا ما خرج من القلب ، وواعظ الجاهل ، كالمتغنى عند رأس الميت ، وقال بعض السلف : سبعة أشياء فى سبعة مواضع ، هن ضائعات : حكيم بين جهال لا يستمعون حكمته ، ولا يحفظون حرمته ، وسراج فى ضوء الشمس ، وطعام طيب يقدم إلى سكران ، وامرأة حسناء تزف إلى عنين[2] ، وصاحب صوت

---

(١) الأصل مستحقه وأهله والضمير بالتذكير فى بقية الفقرة

(٢) العنين من لا يقوى على إتيان النساء .

حسن يغنى بين أهل المقابر ، وكتابة العلم بخط دون ، وكلام لين تكلم به صاحب حقد وحسد .

وقال رجل من أصحاب ذى النون المصرى . يا أستاذ . ما بال الحكمة عليها حلاوة فيوجد بها لذاذة إذا خرج[ت] من أفواه الحكماء ؟ قال: ذاك لقرب عهدها [1] بالملك الأعلى جل وعلا ، وسئل الشبلى . ما بال الحكمة عليها حلاوة وليس ذلك على العلم والحديث ؟ قال لأن الحديث هو ميت عن ميت. حدثنى فلان وقد مات. عن فلان وقد مات . والحكمة حى عن حى. حدثنى قلبى عن ربى [2] .

باب الفرق بين الحكمة والعلم ، والحكيم والعليم

قوله جل ثناؤه فى وصف يحيى بن زكريا : « وآتيناه الحكم صبيا » قيل فى تفسير الآية . أعطى الله تعالى الحكمة ليحيى ، وأعطى العلم اللدنى للخضر . فقال « وآتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » قال موسى للخضر [3] عليهما السلام . بم أطلعك الله على سرائر العباد ؟ قال : بتركى المعاصى . وأعطى العلم المزيدى لنبينا عليه السلام فقال «رب زدنى علما» وأعطى علم الأسماء والحروف لآدم عليه السلام . «وعلم آدم الأسماء كلها» قال الضحاك بن مزاحم: أقعده على كرسى الكرامة ، وتوجه بتاج

---

(١) فى الأصل عهده .

(٢) السؤال خطأ. والجوب أشد خطأ . فليس هناك من يقول إن الحديث ليست له حلاوه. والعجب من أن الشبلى على جلالة قدره يجيب هذه الإجابة ويقرر أن الحديث ميت عن ميت. وهل الحديث إلا من سيد الحكماء صلى الله عليه وسلم؟! وإذا تقادم العهد على الحكمة فهل هى إلا ميت عن ميت؟ والصحيح فى الجواب عن هذه المسألة أن الحديث نوعان: آداب وتشريع. فاما الآداب فلا ثقل فيها على أى قلب وأما التشريع فإنما ينشأ الثقل فيه للتكليف .

(٣) فى الأصل الخفر .

الفخر، وختمه بخاتم العز ، وسوره بسوار الأنس والبهاء ، وزينه بزينة أهل الجنان ، وعلمه اسم كل شيء من الأولين والآخرين ، وما يكون إلى آخر الدهر، بلغة أهل السماء والأرض . وكان آدم عليه السلام يتكلم بسبعمائة ألف لغة(٤) أفضلها العربية لغة النبي صلى الله عليه وسلم . فذلك قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » وأعطى العلم الرباني لأمة محمد صلى الله عليه وسلم كلها . فقال : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

قال أبو طالب المكي رحمه الله . والرباني من العلماء هو الذي يعلم ويعمل بما يعلم ، ويعلم الناس الخير ، فإذا كان كذلك ، سمي في ملكوت السماء عظيما . كذلك روى عن عيسى عليه السلام . والربانيون فوق الأحبار بدرجة ، والأحبار فوق الرهبان بدرجة ، والربانيون علماء القلوب ، والأحبار علماء الألسن . وقال ابرهيم الخواص الحكيم يتجر برأس مال نفسه ، والعالم يتجر برأس مال غيره ، ومن اتجر برأس مال غيره فما أقرب إفلاسه .

وقال بعض المفسرين في معنى قوله تعالى « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » قال . قسم الله العلم والحكمة والفهم والفراسة بين داود وسليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم . أعطى العلم والحكمة داود عليه السلام ، ولم يعطه الفهم والفراسة ، وأعطى سليمان العلم والحكمة [والفهم] ولم يعطه الفراسة ، وأعطى محمدا صلى الله عليه وسلم العلم والحكمة والفهم والفراسة . فقال في وصف داود وسليمان ، وشأن حكومتهما في أمر الحرث ، « ففهمناها سليمان » خاصه دون داود « وكلا يعني داود وسليمان آتينا حكما وعلما » وقال في وصف نبينا صلى الله عليه وسلم « فلتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول » يعني الفراسة الثاقبة(٥) ، وفيما أوحى الله إلى عيسى عليه

(٤) ليس المراد العدد .

(٥) والمعرفة كذلك « فلتعرفنهم » ودليل إتيانه العلم صلى الله عليه وسلم قوله

السلام : يا عيسى ما أكثر العلماء ، وليس كلهم ينتفع بعلمه ، وما أكثر العاملين ، وليس كلهم متقبل عمله ، وما أكثر الشجر ، وليس كلها تثمر ، وما أكثر الثمر ، وليس كله بطيب ، وما أوسع الأرض ، وليس كلها يسكن فيه ، وما أكثر المتكلمين ، وليس كل كلامهم حق ، وما أكثر المياه ، وليس كلها عذبة ، وما أكثر الناس وليس كلهم مؤمنين . وهذا يدلك على أن المنافع فى الأشياء هى مودعة فى أقل أجزائها[١] ، إذ مساحة الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، منها أربعمائة سنة خراب يباب[٢] . فالعمران مسيرة مائة سنة ، فقس على هذا جميع الأنواع تقف على صحة ما أشرت إليه .

وكان جميع الصحابة رضى الله عنهم علماء صالحين ، أتقياء أبرارا ، ومع هذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، خص كل واحد بنوع من الفضل ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وقال فى ذلك : إن عويمر أبا الدرداء هو حكيم أمتى . وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبى بن كعب ، ومن أراد أن ينظر إلى حكيم هذه الأمة فلينظر إلى أبى هريرة . وعبد الله بن عباس فارس القرآن ، وذكر الحديث .

فانظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم . كيف ميز أصحابه فى مراتب الفضل ، وكلهم فاضل عالم . وفى الأثر أن رجلا قام إلى ابن عباس فقال : أى رجل كان على بن أبى طالب ؟ قال ملىء جوفه حكمة . وعلما وقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأسا ونجدة ، فظن ألا يمد يده إلى شىء إلا ناله فما مد يده [إلى شىء] فناله[٣] ففرق ابن عباس بين الحكمة والعلم ، ليدلك على أن

= تعالى ، وقل رب زدنى علما . وقد كان علمه ومعرفته عين الحكمة فقد بلغ فيهما أرقى المراتب صعودا ونزولا . فيما وراء .

(١) ومن هنا كان سلوك الصوفية على طريق التواضع ؛ وإيثار خمول الذكر وقد توسعوا فى توضيح فضل هذا السلوك فى أمهات كتبهم .

(٢) أرض يباب أى خراب يقال خراب يباب .

(٣) التعبير مضطرب فى الأصل والمراد أنه لم يمد يده إلى شىء من أمور الدنيا ، إلا حفظه الله منه .

لكل واحد منهم حكما ، وفى إنجيل عيسى عليه السلام : يقول الله عز وجل ثناؤه . بحق أقول لكم ، ليس فى كل الزقاق يصلح العسل ، وكذلك ليس فى كل القلوب تسكن الحكمة ، إن الزقاق تطهر العسل وتحفظه مالم تتحرق أو تقحل[1] ، وكذلك القلوب تصلح للحكمة مالم تخرقها الشهوات ، ويقحلها الطمع ، ويدنسها الشح .

وقال يحي بن معاذ . [يخرج] العارف من الدنيا ولم يقض وطره من أربعة أشياء : استماع الحكمة ، والفرح بالله ، والتلذذ بقراءة القرآن ، والاستشفاء من البكاء ، وقال يحي : يعطى العلم بالتعليم ، وتعطى الحكمة بحفظ حرمات المشايخ[2] . وفيما أوحى الله تعالى إلى المحزون فى بلائه : يا دواد الأمر من صبار كريم ، اصبر فإنما هى أيام قلائل . حرام على كل قلب يحب الدنيا ، أن يذوق طعم الحكمة . وقال الشبلى : العلم فضة والحكمة ذهب والمعرفة جوهر . وقال بعض السلف : العالم هو الذى يجيب إذا سئل ، والحكيم يعتذر فى ترك الجواب إذا سئل ، والقاص هو المتكلف يتكلم قبل السؤال ، ويهذى وينطق بالمحال .

وقال ابن عباس : من علم علما فليقل به ومن لا فليسكت ، وإلا كتب من المتكلفين ، ومرق من الدين .

وقال يحي بن معاذ : العالم يدعو إلى عمارة الدنيا مع العقبى ، والحكيم

---

(١) قحل الشيء يقحل قحولا يبس فهو قاحل والمتقحل الرجل اليابس الجلد السيء الحال .

(٢) لادليل أوضح على صحة هذا الرأى من قوله تعالى . لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . فجرد رفع الصوت ، والنداء بما ينادى الناس به بعضهم بعضا ، يحبط الأعمال . والعلماء ورثة الأنبياء . والأنبياء لايورثون فى مال . بل يورثون فى حالهم ، والمراد بالعلماء من خالطت الخشية قلوبهم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

يدعو إلى عمارة الآخرة وخراب الدنيا ، والعارف يدعو إلى نسيان الدنيا مع العقبى . وقال فى تفسير قوله تعالى فيما يعاتب [به] نبيه ، ويمن عليه بما أعطاه من جليل عطائه ، فقال عز من قائل « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم » يعنى لولا أن ثبتناك بعلم المعرفة واليقين ، فخاصناك من التهلكة لقد كدت تركن إلى علوم العقل فتهلك وتضمحل ، فذلك حين خاطبه وفد ثقيف فقالوا : متعنا باللات والعزى سنة من غير أن نعبدهما(1) ، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم عن جوابهم ، بلا طمع فى إسلامهم ، ولا خوف من ارتدادهم ، فترك استعمال علم المعرفة ، وإقامة الحق ، ومال إلى علم المعقول ، وخفي[ت] عليه الآفة ، فكرروا القول على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ويلكم تذكرون اللات والعزى ؟ أحرقتم قلب النبي ، أحرق الله قلوبكم وأكبادكم ، أسلموا كما أسلم غيركم ، وإلا فاذهبوا صاغرين ، فلا حاجة لنا فى إسلامكم ، فنزل[ت] هذه الآية وهم جلوس . فلولا أن ثبتناك [لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا] .

وقال سهل بن عبد الله الناس فى طبقة الفضل على مقامات ثلاثة : تقى غير عالم ولا حكيم ، وعالم تقى غير حكيم ، وحكيم عالم تقى ، وأفضل هؤلاء العالم التقى الحكيم . وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه : المتقون سادة ، والعلماء قادة ، ومجالستهم زيادة ، يعنى إن المتقين سادة الناس كما قال الجليل فى محكم التنزيل إن أكرمكم عند الله أتقاكم . والعلماء قادت[هم] ، يقتفون(2) آثارهم ، كما قال « واجعلنا للمتقين إماما » ففضل علماء المتقين بدرجات على المتقين غير العلماء ، وجعل العلماء أئمة للمتقين والمتقين أصحابا لهم . وشهد بالمزيد بمجالستهم على مجالسة التقى الذى ليس بعالم ، لأن كل عالم متق . كما قال الله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وليس كل متق بعالم كما قال سهل ابن عبد الله . العلماء كثير والحكماء من العلماء قليل ، والصالحون كثير

---

(1) فى الأصل : نعبده .

(2) على الهامش : يقتدون .

والصادقون من الصالحين قليل ، وكما سئل عبدالله بن المبارك . من الناس ؟ قال العلماء . قيل فمن الكبراء عن الناس ؟ قال الحكماء . قيل فمن الملوك قال الزهاد . قيل فمن السفلة ؟ قال من أكل دنياه بدينه .

وقال بعضهم العالم محتاج إلى الحكيم ، والحكيم غير محتاج إلى العالم ، احتاج موسى إلى الخضر ، ولم يحتج الخضر إلى موسى ففارقه . ومما يصح (فى) هذا ما حكى فى الأثر . كان أحمد بن حنبل رضى الله عنه كثيرا مايختلف إلى معروف الكرفى ، فقال له ابنه صالح ذات يوم ، ياأباه . إنك تكثر الاختلاف إلى معروف فهل عنده علم أو وقع إليه إسناد لم يقع إليك؟ فقال : يابنى . عنده أصل الدين ومخ علوم التقى والحكمة . ويقال إن الشافعى رضى الله عنه كان إذا اشتبه[ت] عليه المسألة من الفقه فلم يجد لها دليلا فى الكتاب والسنة دخل على شيبان الراعى ، فيقول له : يا أبا محمد . كيف ترى فى هذا ؟ ويجلس[1] بين يديه ، فينكشف ما أشبه عليه من المسألة . وقال أبو العباس الشبارى : من حفظ قلبه مع الله بالصدق ، أجرى الله على لسانه الحكمة .

وسئل بعضهم . العلم أجل أم المعرفة ؟ . قال لا . بل المعرفة أجل . لأن العلم يكون فى الشريعة ، والمعرفة [تكون] فى الذات ، والأنبياء صلوات الله عليهم يقولون غدا عند السؤال : لا علم لنا ، ولا يقولون لا معرفة لنا . والعلم أعطى الله لآدم وداود وسليمان « ولقد آتينا داود وسليمان علما » « وعلم آدم الأسماء كلها » والمعرفة أعطى محمدا « فلتعرفنهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول » لبيان[2] الفضل فى المعرفة . وقال أبو العباس الدينورى : العلم علمان . علم قيام العبد بقيامه مع الله ، وعلم بعلم الله فى العبد . وهو العلم المغيب عن العباد . إلا ما كشف به عن طرف من ذلك من نبي أو خاص ولى .

---

(١) فى الأصل : حبس .

(٢) فى الأصل : فبيان .

وقال اليوشنجى : العلوم ثلاثة علم الأحكام وهو سراج البدن ، وعلم التوحيد وهو سراج القلب ، وعلم الحال وهو سراج السراجين .

وقال على بن يزدانيار رحمه الله . سمعت شنيدين يقول : اشتبهت مسألة على قاضى خراسان ، فجاء إلى حاتم الأصم[1] فجلس بين يديه ، ثم قال : إنى أريد أن أسألك عن مسألة [ف]قال له : تركت العلماء من أصحابك وجئت تسألنى ؟ فقال . ما تدرى . مامثلى ومثلك [إلا] كمثل ملك ضل فى البرية ، فهل يسأل الطريق ملكا مثله أم راعيا ؟ قال فإنك مرحوم . قال . إنه يجلس بين يدى خصمان ، وأحب أن تكون القضية لأحدهما ، قال والله ما عرفت ربك . قال القاضى ارفق بى . قال واعجباه ! ! تقتل نفسك بنفسك وتطلب منى رفقك ؟ .

والناس يتأدبون بالعالم ، والعالم يتأدب بالحكيم ، والحكيم يتأدب بالفقير ، والفقراء متأدبون بالله ، مشغولون بحفظ حرمات الله . وقال سهل بن عبد الله : الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء كلهم سكارى إلا العاملين ، والعاملون نيام إلا الخائفين ، والخائفون منقطعون إلا المحبين والمحبون أحياء شهداء وهم المؤثرون الله على كل حال .

وقال بعضهم : العلم بالتعليم والحكمة بالتجويع ، فالعلم من اللسان إلى اللسان ، والحكمة من الغيوب إلى القلوب ، وكان أحمد بن حنبل يقول : العلم إنما هو ما جاء من فوق . يعنى إلهاما من غير تعليم . ومن أحسن ما سمعت فى معنى هذا ما حكى عن تفسير قوله تعالى : يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم قيل العلم . وريشا . قيل اليقين ، ولباس التقوى قيل الحياء . وقال عبد الواحد بن زيد : سألت الحسن البصرى رضى الله عنه عن علم الباطن ماهو ؟ قال سألت حذيفة عن علم الباطن ، فقال سألت ميكائيل عن علم الباطن ، فقال سألت القلم عن علم الباطن ، فقال سألت الرب جل ثناؤه عن علم الباطن . فقال : علم الباطن هو سر من سرى . أخفيته

(١) فى الأصل : أبى حاتم الأصم .

عن خلق وأودعته عند خاصة عبادى ، وهو نتاج معرفتى وموارثة خدمتى.

قال أبو طالب المكى الظاهر والباطن هما علمان أصلان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ، بمنزلة الإسلام والإيمان ؛ مرتبط كل واحد منهما بالآخر ؛ كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما من صاحبه[1] . وقال الجنيد رحمه الله . لو أن العلم الذى أتكلم به من عندى لفنى وانقطع ولكنه من حق بدأ وإلى حق يعود . وقال أبو طالب المكى . روينا فى بعض الأخبار أن فى بعض الكتب المنزلة : يا بنى اسرائيل لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به ؟ ولا فى تخوم الأرض من يصعد به ؟ ولا من وراء البحار من يعبر [ل]يأتى به . العلم مجعول فى قلوبكم . تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين ، وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم[2] ، وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم ، وهو

---

(٣) هذا هو مذهب الصوفية فى علم الباطن وعلم الظاهر . أو الشريعة ، والحقيقة فقد أجمعوا على أن كل حقيقة لا تؤيدها الشريعة فهى باطلة ، ولا يقتدى بصاحبها ولو ظهرت عليه الخوارق . ولو طار فى السماء أو مشى على الماء على حد تعبيرهم ، فعلم الباطن ، هو فقه أعماق علم الظاهر الذى هو الشريعة . فالحج مثلا . من قام به متمما شعائره كلها . فقد أتى بعلم الظاهر ، ومن فقه من الإحرام . التجرد لله إلا مما يحفظ شريعته من ستر العورة . ومن فقه من الطواف : الطواف حول عرش الرحمن والتشبه بالملائكة فى الطاعة ، ومن فقه من رمى الجمار . التهيؤ للذب عن محارم الله ، ورجم نفسه الأمارة . من فقه ذلك وغيره من الأسرار ، فقد أوتى حظا من علم الباطن ، الذى لم تنفك عنه الشريعة فى أى مرحلة من مراحله ، وبعض الملاحدة فصلوا بين علم الباطن وعلم الشريعة فقالوا فى خرق الخضر للسفينة: هو تجريد الله لله بتجريده عن كل ما يشغل فكره فى الحياة حتى من عرضه وعرض أهله . والقارىء يدرك مدى الشناعة فى نفس التأويل ، حينما انفصلت الحقيقة عن الشريعة .

(١) هذا مذهب الصوفية فى تعلم العلم . فهم يرون أن العلم المكتسب من =

العلم الذى لا ينفع صاحبه ، كما استعاذ من الشرك والشقاق ، ومساوىء الأخلاق ، فقال : أعوذ بك من علم لا ينفع . ثم قال فى حديث آخر . العلم علمان علم ظاهر فذلك حجة الله على خلقه ، وعلم باطن فذلك العلم النافع ، والذى لا ينفع صاحبه من العلوم ليس هو العلم الباطن ، والعلم الظاهر يحتاج إلى تقوى ، فإذا لم يكن معه تقوى ، فهو باب من أبواب الدنيا ... ى . وقيل العلم الباطن يخرج من القلب فيقع على القلب ، والعلم الظاهر يخرج من اللسان فلا يجاوز الآذان .

وقال أبو طالب : العلم الظاهر من عالم الملك ، وهو من أعمال اللسان ، واللسان خزانة الملك ، وعلم الباطن ، من عالم الملكوت ، وهو من أعمال القلوب ، والقلب خزانة الملكوت ، وكان حاتم الأصم أحد الحكماء ، فاجتمع إليه الناس يوما ، فقالوا له : اجلس فى الجامع فإن الناس قد احتاجوا إليك ، فقال لا يجلس فى الجامع إلا جامع أو جاهل . فلست

= الأوراق ، ليس بعلم . وإنما هو علم تقليد ، وذوق مستعار ، والعلم كامن فى كل روح إنسانية ، وإنما يمنعه من الظهور حجب النفس . ومتى قام العبد على قدم التجرد لله باتباع شعائره ؛ واجتناب مكارهه ؛ وصدق توجهه إلى ربه . وصحت نيته ؛ وولى وجهه بعزم وثبات ، نحو الطريق . انكشفت تلك الحجب ؛ وبرز العلم الكامن ؛ بمقدار ما فى المريد من عزم الجذب من عالم الفيض .

وقد برز هذا العلم على ألسنه بعض كبار الصوفية . من الأميين الذين جهلوا القراءة والكتابة تماما . من أمثال . سيدى عبد العزيز الدباغ صاحب « الإبريز » وسيدى على الخواص ؛ وقد نقل الإمام الشعرانى أبحاثه فى العلم ، والسيدة عجم بنت النفيس البغدادية شارحة « المشاهد الإلهية » للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى والقارىء لهؤلاء الأعلام يدرك المدى البعيد الذى وصلت إليه مداركهم . وقد برز كثير منهم فى العلوم المختلفة حتى الجديد منها الآن (راجع المواقف . للنفرى) وغيره من الكتب التى تعرضت لحقائق التصوف .

بجامع ولا أحب أن أكون جاهلا . فأكرهوه على ذلك حتى جلس . فبينا [هو] ذات يوم فى مجلسه إذ قال : يأيها الناس . جئتم لذكر الله ، قالوا نعم . قال : هل بكم ألم وجع الذنوب ؟ قالوا نعم . قال : فهل احتميتم لشرب الدواء ؟ قالوا : لا . قال . ماذا ؟ تأمرونى أن أضيع الدواء ؟ قالوا إنا نرجو بركة الذكر . قال : فمن المتكلم من بينكم ؟ قالوا : أنت . قال فمن المستمع ؟ قالوا : نحن ، قال : فمن العامل ؟ فسكت القوم ونكسوا رءوسهم . وقام حاتم ليمضى . فقالوا : إلى أين ؟ قال : قد حضر المتكلم والمستمع والعامل غائب فإذا ننتظره . قالوا : لا تقنطنا . قال : والله لا ينفع ضرب المطرقة فى الحديد البارد . قوموا وانحتوا أنفسكم بالمجاهدة وتعالوا . وقال ذو النون ؛ المصرى : بينا أسير فى بعض أسفارى إذ وقعت على حجر عظيم مكتوب عليه : اقلبنى تعتبر . فقلبته[1] . فإذا عليه مكتوب . كيف تطلب علم مالم تعلم ؛ وأنت بما تعلم لا تعمل . فقلت لنفسى : خذها حكمة . قال فتكلم النورى يوما بلسان المعرفة عن غلبة الوجد بمشاهدة التوحيد ؛ فدقق وحقق فقال قائل : لو كررت لنا النكتة[2] ؛ فقال إن جددت لنا الحالة[3] . وسأل رجل عبد الله بن المبارك عن مسألة فأجاب فقال أعد على فقال أنا فى ندامة . مما قد جرى[4] . وقال الكتانى : العلم بالله أفضل من العلم لله ومن العبادة لله .

وقال أبو عبد الله الدينورى . أرفع العلوم فى التصوف علم الأسماء والصفات[5] ؛ وتمييز الحلال من الاختلاف . وإخلاص أعمال الظاهر ؛

---

(١) فى الأصل « فأقلبته » .

(٢) يعنى الدقيقة من مسائل المعرفة .

(٣) وذلك لأن العارف لا يتكلم إلا عن حال غلبة ، فإذا كان فى حال التمكن آثر الصمت .

(٤) لأنه تكلم فى مسائل لا يجوز سماعها إلا لأهلها .

(٥) أى العلم بسريان عمل الأسماء والصفات فى الأكوان ظاهرا وباطنا .

وتصحيح . أحوال الباطن وقد جاء فى الأثر . أن الله لا يعذر على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت عن جهله . ولا يحل للعالم أن يسكت عن علمه[١] وقد أمر الجاهل بسؤال العالم ؛ وأمر العالم بحسن الرد على الجاهل ؛ فقال للجاهل « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وقال للعالم « وأما السائل فلا تنهر » يعنى إذا جاءك متعلما فلا تزجره . وقال الفضل : إنما هما عالمان . عالم دنيا وعالم آخرة ، فأما عالم الدنيا فعلمه منشور ، وأما عالم الآخرة فعلمه مستور . فاطلب عالم الآخرة واهرب من عالم الدنيا . لا يصدنك عن طريق الحق بسكره . ثم قرأ : « يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » وقال عيسى عليه السلام مثل العلماء السوء . كمثل الصخرة وقعت فى نهر جار . لا هى تشرب الماء فتنتفع ولا هى تترك الماء فيخلص إلى الزرع والشجر ؛ فيحيي العباد والبلاد . فهم غير مخلصين إلى الله . ولما أوحى مرسل الزبور إلى صاحب الزبور . قال يا داود لا تسكن إلى عالم قد أسكرته الدنيا فيصدك بسكره عن طريق محبتى . أولئك قطاع الطريق على عبادى[٢] المريدين .

وسئل أبو الدرداء عن لقمان وحكمته فقال . أما والله ما أوتى الحكمة الحسب . ولا لأهل ولا عشيرة . ولا مال ولا بسطة فى جسمه . لكنه كان رجلا أسود الجسم . أبيض القلب . وهو قوى فى أمر الله . متورع فى دين الله . طويل السكوت . دقيق النظر . كثير الحزن . عظيم الفكر . حديد البصر . منتفع بالعبر . لم ينم بالنهار قط . ولم يبك فى محفل قوم قط ولم يره أحد على بول ولا غائط ولا اغتسال قط . لشدة سبره وعمق نظره .

---

(١) أى يكتمه عن الجميع فى الحلال والحرام والأركان ، أو يكتمه عن الخاصة فى السلوك والمعارف إن واتاه الحال .

(٢) لأنه يضل الناس بتطويع علمه لخدمة الأغراض الدنيوية ويتأول ما يدعو إلى الآخرة تأولا قد يكون منحرفا .

ولم يضحك قط . ولم يغضب قط . مخافة الإثم . ولم يمازح قط . ولم يفرح ، وقد نكح النساء فولد له أولاد كثيرة . قدم أكثرهم[1] قبضا . فما بكى عند موت واحد منهم . ولم يمر برجلين يقتتلان أو يختصمان إلا أصلح بينهما ، ولم يسمع من أحد قولا قط يستحسنه إلا سأله عن تفسيره وعمن أخذه . وكان يكثر مجالسة الحكماء ، فكان يغشى القضاة والسلطان ، فيرى القضاة وما ابتلوا به فيعتبر بهم ، ويرى السلاطين والملوك وعزتهم بالله ، وطمأنينتهم إلى الدنيا ، فيتفكر في ذلك ويرحمهم . وكان يداوى قلبه بالمعرفة ، ويداوى نفسه بالعبرة ، ويداوى عينه بالدمعة ، ويداوى جسده بالكد والخدمة ، فلذلك أوتى الحكمة . وقيل العارف ينطق ويبكى والحكيم ينطق ويشتكى ، والعالم ينطق ويشتهى ، والجاهل ينطق ولا يبالى .

وقال بعضهم فى معنى قوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . فالذين يعملون بما يعلمون ليوفقنهم الله لما لا يعلمون ، حتى يكونوا علماء حكماء . وقال بعضهم العلم بالتعليم والفهم والفطنة ، والمعرفة لا تحد بالتمييز والتقدير والتعليم . فللعلم حد وغاية ؛ وليس للمعرفة حد ولا غاية ولا نهاية ؛ والعلم ينزل بصاحبه باب السماء : والعقل ينزل بصاحبه عند العرش . والمعرفة تنزل بصاحبها[2] عند الرب . فنور المعرفة متصل بالرب . ونور العلم غير ذلك . والعلم يكون للكافر والمؤمن . والمعرفة لا تكون إلا للمؤمن . والعلم عام والمعرفة خاصة . ويقال آخر علم الإيمان أول علم اليقين وآخر علم اليقين أول عين اليقين : وآخر عين اليقين أول حق اليقين . ولا آخر حق اليقين . كما لا آخر ليوم القيامة .

قال أبو طالب المكى رضى الله عنه . ومثل هذه العلوم . مجموعة فى بدو اللبن إلى أن تصيره الرجال السمن . فمثل علم الإيمان كاللبن الحليب يصلح لبعض المعانى . وعلم اليقين كالحامض من اللبن تزيد منافعه . وعين

---

(١) فى الأصل أكثره .

(٢) الأصل بصاحبه .

اليقين كالزبدة تزيد منافعها[1] . وحق اليقين كالسمن إذا ذوب وصفى وبلغ نهاية الأحوال . واجتمع فيه جميع المنافع من طرق شتى .

قال الجنيد فى معنى قوله «فاسألوا أهل الذكر» قال : أهل الذكر العالمون بحقائق العلوم . ومجارى الأمور . والناظرون إلى الأحكام بأعين الغيب

قال أبو يعقوب السوسى . أفضل علم العلماء . علم السر فى ثلاث خصال أولها على صحة الإيمان فى القلب . والثانى معرفة الخطرات على القلب بالصحة من السقم . والثالث علم المعرفة الحق من الحق . وقال الجنيد . إن الله جل ثناؤه أفهم سليمان مسألة من العلم . فمن عليه بذلك وأعطاه الملك فلم يمن عليه . وقال « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » بل أراه حقارته فى أربعة[2] مواضع . حين سألة الملك واختار[ه] عرفه قلة ملكه وخسته. وحين ألقى على كرسيه جسدا . وحيث قال : فسخرنا له الريح . أراه أن الملك الذى أعطاه ريح لأنه لا يدوم والملك هو الذى يدوم وحين قال له آصف [بن برخيا] وهو الذى عنده علم من الكتاب « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » وحيث قال : هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب . أى أعط من شئت لحقارته وخسته . ثم قال فى إعطاء العلم : ففهمناها سليمان .

وقال ابن المبارك من طلب العلم لله فهو فى النقصان[3] ومن طلبه لغير الله فهو فى الزيادة قيل وكيف ذلك ؟ قال : إذا طلب لله يكتفى منه باليسير. فيقول : أحتاج مع هذا إلى عمل . وإذا طلب للناس فهو فى طلبه فى الزيادة وفى عمله فى نقصان . وقال الحسين فى معنى قوله عز وجل « الرحمن فاسأل به خبيرا » هم الذين أقامهم الله فى البلاد . أدلة للعباد . فمنهم من يدل على شرائع الآداب . ومنهم من يدل على الحق . وهو الدليل على الحقيقة . لأن

---

(١) فى الأصل « منافعه » .

(٢) فى الأصل ثلاثة .

(٣) فى الأصل اليقضان .

فالكل محتاجون إليه ، وهو مستغن عنهم ، يرجعون إليه فى السؤال ، ولا يسأل هو أحدا . كالخضر ونظرائه ، لأنه أوتى العلم اللدنى .

وقال الفضيل ابن عياض : كان الرجل فى بنى اسرائيل لا يفتى ولا يتحدث حتى يتعبد سبعين سنة ، وقيل لأحمد بن حنبل : إذا كتب الرجل مائة ألف حديث يحل له أن يفتى ؟ قال لا : قيل فمائتى ألف حديث؟ قال لا . قيل فثلثمائة ألف[1] حديث ؟ قال أرجو . وقال بعض السلف . من لم يعرف اختلاف العلماء لم يحل له أن يفتى ولا أن يتصدر ولا أن يسمى عالما ، ونظر رجل إلى اسحق بن راهويه وقد وضع قلنسوة على رأسه ، فقال له إسحق : ما هذا النظر ؟ فوالله ما وضعتها[2] على رأسى حتى حفظت أربعين ألف حديث حفظا .

وقال ابن عطاء فى معنى قوله تعالى « ولقد آتينا داود وسليمان علما » علما بربه ، وعلما بنفسه فأثبت علمهم بالله علمهم أنفسهم[3] ، وأثبت لهم علمهم بأنفسهم حقيقة العلم بالله . قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه . من عرف نفسه فقد عرف ربه . ويقال إن يحي وعيسى عليهما السلام كانا يصطحبان فى السياحة ، فإذا بلغا باب قرية أو مدينة يقول عيسى : دلونى على أفجر رجل فى هذه المدينة وأطغاه ، ويقول يحي : دلونى على أبر رجل وأتقاه . فيقول يحي لعيسى : يا ابن خالة . مالك لا تنزل [على] الأبرار والأتقياء ؟ فيقول[4] : إنما أنا طبيب أعالج أهل البلوى . وأداوى المرضى .

وقال سهل بن عبد الله : فى معنى قوله عزوجل « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق [بالخيرات] » قال السابق العالم ؛ والمقتصد

---

(١) المبالغة ظاهرة فى العدد والصواب ثلاثة آلاف حسبما ذكرت كتب الأصول .

(٢) فى الأصل : وضعته .

(٣) فى الأصل « على أنفسهم » .

(٤) فى الأصل قال .

المتعلم ؛ والظالم الجاهل . وقال حكيم : لا تأخذ من الدنيا إلا ثلاثة أشياء تكن من الفائزين : خذ من الكنوز الحكمة تنفق منها[٢] الليل والنهار ولا تنفد ؛ وخذ من الزاد التقى تبلغ المنزل ؛ وخذ من التجارة الطاعة يعظم لك الربح غدا . وقال بعضهم فى معنى قوله . فمنهم ظالم لنفسه . . الآية الظالم المجتهد[٣] والمقتصد العالم بأحكام الله والسابق العالم بالله وبأسمائه وصفاته. وقال ابن عطاء . العلم أربعة علم المعرفة ؛ وعلم العبادة ؛ وعلم العبودية ؛ وعلم الخدمة ، وقيل الحكماء اطباء ؛ والقصاص صيادلة ؛ والعلماء زين ، ومجالستهم كرم ؛ والنظر إليهم عبادة ؛ والمشى معهم فخر ؛ ومخالطتهم عز . والأكل معهم شفاء ؛ تنزل عليهم ثلاثون رحمة ؛ وعلى غيرهم رحمة واحدة ؛ هم أولياء الله . طوبى لمن خالطهم ؛ جعلهم الله للناس شفاء ؛ فمن حفظهم لم يندم ؛ ومن خذلهم ندم .

وقال الجنيد . العلم أرفع من المعرفة وأتم وأكمل وأشمل . ولذلك تسمى الله بالعلم ولم يتسم بالمعرفة . فقال ؛ والذين أوتوا العلم درجات[٤] . ثم لما

---

(٢) فى الأصل منه .

(٣) كيف يكون المجتهد ظالما لنفسه ؟ وهو إن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران . فهو مأجور فى حالى الصواب والخطأ . وإن قيل إن ظلمه لنفسه لأنه شغل نفسه بعلم الظاهر ، فمن للأمة يرسم لها حدود دينها وينقذها من شكوك الحلال والحرام ؟ ولعل المقصود بالمجتهد الظالم هو الذى لم يبلغ رتبة الاجتهاد ويزج نفسه فى ميدانه أو يجتهد فى غير نطاق المذاهب المعترف بها .

(٤) الآية : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» . وليس فيها دلالة على تسمية الله تعالى نفسه بالعالم كما ذكر المكى . والدليل الصريح قوله تعالى «عالم الغيب والشهادة» «إنه عليم بذات الصدور» ولعل الدلالة فى علمه تعالى بمراتب العلماء ؛ فهو بالعلم أعلم «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» الخ . فالدلالة فى الآية . أن الذى يرتب العلماء درجات بعضهم فوق بعضهم لابد أن يكون عليما .

خاطب النبي صلى الله عليه وسلم خاطبه بأتم الأوصاف وأكملها وأشملها للخيرات . فقال : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ولم يقل فاعرف لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علما . فإذا عرفه وأحاط به علما فقد علمه [٥]
وقيل اجتمع الحكماء فتكلموا بأربع كلمات . ولم يقدروا على خامس منها . قالوا رأس مال الرجل عمره . ونعمته صحة بدنه . وغناه قناعته . وحسبه تقواه . ولم يجدوا لها خامسا . وقال الواسطى . العلم حجة . والمعرفة غلبة [٦] غير محكوم بها .

ويقال إن هرون الرشيد دعا الأوزاعى إلى حضرته فأبى . فجاء إليه وسأله عن شيء فأجابه . فقال له : ما بالى ماشت منك غضبا وغيظا . فإذا رأيتك ملشت فزعا ورعبا ؟ فقال الأوزاعى : سمعت أنسا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعلم العلم لله لم يخف من أحد ولا شيء . وخاف منه كل شيء . ومن تعلم العلم لغير الله . خاف من كل شيء . ولم يخف منه شيء » وقال صلى الله عليه وسلم . من استغنى بالله . أحوج الله إليه الناس ومن استحضر خشية الله فى قلبه . أنطقه الله بالحكمة .

وقال الواسطى فى معنى قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » : هما دعوتان دعا ابرهيم عليه السلام إلى قوله « أسلم » ودعا محمدا صلى الله عليه وسلم إلى قوله « فاعلم » دعا أحدهما إلى العلم ، والآخر إلى الإسلام ،

---

(٥) معرفة الله تعالى أرقى أنواع المعرفة ، والطريق إليها يشمل فنون العالم كله . ولما عرف الله نفسه لم يشرك معه فى هذه المعرفه إلا الملائكة والعلماء . قال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم » أما تسمية الأولياء بالعارفين بالله فهى من باب التسامح [راجع أول مواقع النجوم : لابن عربى]

(٦) وردت المعرفة بمعنى الفراسة فى قوله تعالى « ولتعرفنهم فى لحن القول » فمعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وفراسته ليست من باب الغلبة غير المحكوم بها . فعلمه ومعرفته وفراسته عين الحق « وما ينطق عن الهوى » والحكم بالغلبة غير المحكوم بها ؛ يراد به كشف الأولياء حيث قالوا إنه ليس بحجة .

وأعلاها العلم . وهو مرتبة الأجلة ، والإسلام هو الانقياد ، والانقياد إظهار العبودية ، والعلم إظهار الربوبية ، لاجرم ابتلى ابرهيم حين قال أسلمت ، بالنار وذبح الولدوغيرهما . وقال بعضهم : لا تتم الحكمة فى أحد حتى يكون مبرأ من ثلاث . الحسد والهوى والكذب . لأن من حسد بغى ، ومن هوى غمر فيه ، ومن كذب لم ينتفع به وإن صدق . وقال سهل فى معنى قوله تعالى «فاعلم» خلق الله الخلق ، ثم أحياهم باسم الحياة ، ثم أماتهم بجهلهم . فمن حيي بالعلم فهو حى ؛ وإلا فهم موتى بجهلهم ؛ لذلك دعا نبيه إلى محلة الحياة بالعلم بقوله[1] « فاعلم » .

وقال سهل . اجتمع علماء بنى اسرائيل فى موضع فقالوا إنا تعلمنا العلم ولم نزدد[2] منه هيبة ولا حكمة ولا ورعا فأنزل الله إلى نبي ذلك الزمان . قل لهم إنى أهب الهيبة بالأسحار وأنتم نائمون ، وأخرج الحكمة فى بطن خال وأنتم تشبعون ، وأقسم التقوى والورع فى محبة الأتقياء وأنتم لها مفارقون .

قال . ودخل بهلول على هارون الرشيد فقال : يابهلول أفدنا من حكمتك فقال : ياأمير المؤمنين . قد أفاد العليم الخبير قبلى إن كنت للفائدة أهلا ، حيث يقول : « فإن خير الزاد التقوى » فأما السفر فهو بين يديك كما كان لم ينقطع منه شيء ، وأما الزاد فلا أدرى هل تزودت كما أمرت أم توليت وأدبرت ؟ ثم أنشأ يقول :

ستزعجك المنايا عن قرارك ... ويبدلك الردى لحدا بدارك
وتترك ما شقيت به زمانا ... وتنقل من غناك إلى افتقارك
وعينك فى محل الدود تبلى ... وترتع عين غيرك فى ديارك
فبادر توبة لتحل دارا[3] ... تلذ بها وتنعم مع جوارك

---

(١) فى الأصل « لقوله » .
(٢) فى الأصل « يزدد » .
(٣) فى الأصل « تحيل بدار » .

على ورد ونسرين زكى وريحان الجنى مع جلنارك

ثم قال إن الطبيب إذا سقى الشبعان دواء أتعب نفسه ، وضيع متاعه ، ثم خرج وهو يقرأ «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين » وقيل الحكيم لا يزداد حكمة إلا ازداد من ربه خوفا ، وإليه قربا ، ومع الخلق تواضعا .

والعالم غير الحكيم لا يزداد علما إلا ازداد من الله أمنا ، وعن الله بعدا ، ومع الخلق تكبرا . وقال بعض أهل المعرفة . الناس فى العلم والحكمة على أربع طبقات : رجل عالم لسانه جاهل قلبه ، فذاك العالم الفاجر ، وهو الذى يقول [فيه] عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كم من عالم فاجر ، وعابد جاهل ، فاتقوا الجاهل من المتعبدين ، والفاجر من العلماء ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم «أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان، جاهل القلب ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون » وقال الحسن : يتعلم العلوم قوم لا نصيب لهم منه فى الآخرة ، تحفظ أيديهم العلم لئلا يضيع . والثانى . رجل عالم قلبه جاهل لسانه . فذاك العالم التقى الخائف كما قيل [لبعض] أهل المعرفة أكان فتح من العلماء ؟ قال : كفاه من علمه زهده فى الدنيا . والله تعالى يقول « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ومن ترك الفانى للباقى فهو العالم الحقيق . والثالث . رجل عالم لسانه عالم قلبه فذاك العالم الربانى ، وهم الذين وصفهم على بن أبى طالب رضى الله عنه فى كلامه إن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة . إما ظاهر مكشوف ، وإما خائف مرغوب(١) ، وكم وأين أولئك الأقلون عددا والأعظمون قدرا ؛ أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، صحبوا الدنيا بأبدان وأرواحها معلقة بالمحل الأعلى . أولئك العلماء الربانيون . وكان الحسن يقول اعملوا ما شئتم أن تعلموا ، فوالله لا يأجركم الله عليه حتى تعملوا . وإن السفهاء همتهم الرواية ، كما كان العلماء همتهم الرعاية . وفى الخبر : كل

(١) أى معتزل يرغب الناس فى لقائه هو لا يريد ذلك .

يحتاج إلى العلم [ويحتاج إلى أن] يعمل ويعلم. وقال لقمان الحكيم : يا بنى كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب ، كذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل. والرابع. جاهل لسانه جاهل قلبه ، وهم الذين حذر النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون منهم. فقال : كن عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ، ولا تكون خامسا فتهلك . وقيل فى معنى الخامس هو المبغض للعلماء وقال المزنى . أيها الطالب العلم . اجعل حفظك للعلم حفظ رعاية ، ولا تجعله[1] حفظ رواية ، فإن رواية الحكمة كثيرة ورعايتها قليلة[2] . ورب حاضر غائب ، وعالم جاهل ، وحامل للكتاب[3] والسنة ليس معه منها شيء ، فانظر فيم طلبته ولمن أردته فإنك موقوف عليه ومسئول عنه ومجازى به .

وقال الحكيم : ستة أشياء من طبائع الجاهلين . من غضب من غير حق فهو جاهل ، ومن أعطى فى غير حق فهو جاهل . ومن كثر كلامه من غير نفع فهو جاهل .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى صفة أهل الجهل . همج[4] رعاع . وهو خفيف الطيار لا عقل له يثبته . ذليل يستفزه الطمع . ويستخفه الغضب . ثم قال فى وصفهم : أتباع كل ناعق . أى كلما سمع صوتا عاليا ابتدر بعد إليه لا يعرف العالم من المتكلم . ثم قال فى تمام وصفهم : يميلون مع كل ريح . لم يستضيئوا بنور العلم . ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . فهؤلاء الذين خلاهم الرسول من الخير فقال فى حكمه صلى الله عليه وسلم : العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ولا خير فى سائر الناس بعدهم . فهم الذين

---

(١) فى الأصل ولا تجعلها .

(٢) الأصل قليل .

(٣) فى الأصل لكتاب .

(٤) الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها

وصفهم على بن أبى طالب رضى الله عنه . نعوذ بالله من الجهل . قال أبو طالب . والهمج ، هو الفراش يقتحم ضوء النهار فيتهافت فيها فيحترق ويتلاشى ، واحده همجة . قال سهل . خصلة واحدة . من نجا فى الدنيا من الجهل نجا فى العقبى من النار .

قال سهل . فتشت المعاصى كلها ، فلم أر فيها معصية أعظم من الجهل ، قيل فهل شىء أعظم من الجهل ؟ قال نعم . الجهل بالجهل وأنشد فى معناه :

إذا أنت لا تدرى ولا أنت عالم بقول الذى يدرى فحتى متى تدرى
ومن أعظم البلوى بأنك جاهل وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

وقال ابن وهب : ذكر طلب العلم عند مالك بن أنس فقال . إن طلب العلم لحسن ، وإن العمل بالعلم أحسن ، وإن نشر العلم لحسن إذا صحت لك فيه النية ، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسى ، وحين تمسى إلى أن تصبح ، فلا تؤثرن على ذلك شيئا[1] ، فإذا فعلت ذلك فأنت الحكيم العالم . وقال سهل . بعد ثلثمائة سنة لا يحل للرجل أن يعلّم هذا [العلم] إلا أنه يحدث قوم يتصنّعون للخلق ويتزينون للكلام ، ويتعاطون بالسلام ، تكون مواجيدهم لباسهم، وحليتهم كلامهم ، ومعبودهم بطونهم .

قال أبو طالب المكى . كل نوع من العلوم يتأتى بذله ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك ، إذا رغب فيه ، إلا علم الإيمان والمعرفة واليقين ، فإنه لا يتأتى ظهور مواجيده ، وكشف مشاهداته ، والكلام فى حقائقه ، إلا لمؤمن وموقن . لأن ذلك عهدة عند الأولياء من عباده ، ووديعة عند الخواص من خلقه ، وعهده لا ينال الظالمين ، ووديعته لا تكون وجودا للبطلين ، وخسر هنالك المبطلون .

وقال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه

(١) أى . مايلزم الإنسان من فرائض وسنن ومندوبات من أول النهار إلى آخره كالصلاة والتسبيح والذكر وتلاوة القرآن ونوافل الخير كلها .

سوء الخاتمة . وقال آخر من كان محبا للدنيا أو مصرا على هوى ، لم يتحقق بشيء من هذا العلم أبدا . وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له من هذا العلم حرف. كبر أو بدعة.

قال أبو طالب . اتفق أهل المعـــرفة [على] أن علم الباطن هو علم الصديقين ، وأن من كان له نصيب [منه] فهو من المقربين ، فوق درجة أصحاب اليمين ، قال سهل . من أنكر هذا العلم فأيسر عقوباته ألا يرزق منه شيئا (١) . وقال أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الخضر حين قال لموسى إنك على علم من علم الله لم يعلمنيه ، وعلى من الله لم يعلمك به ، فذلك قوله « وما فعلته عن أمرى » . وقال الثورى لا تكونوا جهالا وميزوا بين العالم ووعاء العلم ، إذا هرب العالم من الناس فاطلبوه ، وإذا طلب الناس فاهربوا منه . قال أبوا طالب : مثل الجهل والعلم فى تفاوت الناس فيهما كمثل الجنون والعقل ، المجانين طبقات والعقلاء طبقات ، وكذلك الجهال طبقات كالعلماء ، وفى كل طبقة منها خصوص وعموم، فخصوص الجهال يشتبهون على العامة حتى يحسبونهم علماء ، وهم مكشوفون عند العلماء بالله . وكذلك العارفون يشتبهون على عموم العلماء ، وهم ظاهرون للموقنين .

وكان سهل يقول . العلماء ثلاثة عالم بالله ، وعالم لله ، وعالم بحكم الله ، يعنى العالم بالله [هو] العارف الموقن ، والعالم لله هو العالم بعلم الإخلاص والمعاملات والأحوال ، والعالم بحكم الله هو العالم بتفصيل الحلال والحرام وقال مرة فى كلام أبسط من هذا . عالم بالله لا بأمر الله ولا بأيام الله . وهم المؤمنون ، وعالم بأيام الله [وهم] المتقون فى الحلال والحرام ، وعالم بالله عالم بأيام الله وهم الصديقون .

قال أبو طالب المكى فى معنى قوله « بأيام الله » أى بنعمة الله الباطنة وعقوباته الغامضة وقد قيل على أحد الوجوه فى معنى قوله « وذكرهم بأيام الله »

---

(١) فى الأصل شىء .

قيل بعقوباته في الأمم الماضية . قال الثوري . كان الناس يطلبون العلم فإذا علموا عملوا ، وإذا عملوا أخلصوا ، وإذا أخلصوا هربوا ؛ وذلك قوله تعالى « واجعلنا للمتقين إماما» . قال الحسن: كانوا يحبون أن يوجد عندهم الخير . وقال بعضهم: هما عالمان عالم الأمراء وعالم المتقين ، فعالم الأمراء هو العالم بالقضايا والأحكام. وعالم المتقين هــــو عالم بالمعرفة واليقين . وقيل لسهل . من العلماء ؟ قال : الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ويؤثرون الله على نفوسهم . وقال بعض العلماء : كان أهل العلم على ضربين عالم عام ، وعالم خاص ، فأما العالم العام . فهو المفتى فى الحلال والحرام وهؤلاء أصحاب الأساطير ، وأما العالم الخاص ، فهو العالم هو الذى إذا جئته تطلبه فلم تجده فى البيت قص عليك بيته حاله ترى مصحفا معلقا ترى إجّانة ترى ركوة ، ترى حصيرا مبسوطا ، ترى أثر الآخرة .

وقيل العالم هو الذى يخالف أحوال الجاهل والعامى ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى مباينة حامل القرآن عن غيره من أهل القسوة والرأى ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ الناس مفطرون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون ، وببكائه إذ الناس يضحكون . وبصحبته إذ الناس يخلطون ، فما رضى صلى الله عليه وسلم أن يكون من علم ودرى بوصف من لم يعلم ولم يدر . يا أخى إذ كان كلامك كلام السفهاء ، وفعالك فعال الجهال ، وسكوتك سكوت أهل الغفلة ، فما ينفعك ما جمعت من طرائف العلم ، وحكمة الحكماء ، يا أخى ليس العالم المتكلم الواصف إنما العالم الحذر الخائف . ليس العالم من جلس[1] [على] الكراسى إنما العالم من اجتنب المعاصى . ليس العالم من صاح فى المحافل [إنما العالم] من عرف دقائق الشبهات والنوازل ، ليس العالم من يروى إنما العالم من يرعوى . ليس العالم من جمع ومنع ، إنما العالم من زهد وقنع ليس العالم من تعمم وتطيلس ، إنما العالم من رقع ثيابه وفى الخلوة جلس . ليس العالم

(١) فى الأصل من جليس .

الذى يضحك من غير عجب ، إنما العالم من طال حزنه وجد فى الهرب والطلب ، ليس العالم الطويل اللسان ، إنما العالم كثير الإحسان . ليس العالم ذا الوجهين ، إنما العالم ذو الجهدين ، ليس العالم من يصف الجنة والحور ، ويشوق إلى الغلمان والقصور ، إنما العالم من لا يظلم ولا يجور ، ولا ينطق بالكذب والفجور . ليس العالم إذا علم أكل ونام ، إنما العالم الذى إذا علم تهجد بالليل وبالنهار صام . ليس العالم من حفظ الأحاديث والأخبار . إنما العالم من عد كلامه وخاف عقوبة الملك الجبار . ليس العالم الذى يجمع الكتب والكراريس . إنما العالم الذى يخاف أن يُمكَر به كما مكر بالشقى إبليس . ليس العالم الذى يفتخر بكثرة الكلام ، إنما العالم الذى أسكته إجلال الملك العلام . العالم هو الذى كلما ازداد علما ازداد تواضعا . وحلما كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . تعلموا العلم وتعلموا بالعلم ، السكينة والحلم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم .

فالعالم هو الذى ينفق ماله على علمه ، وليس العالم الذى يكتسب المال بعلمه ، كما قال الجليل توبيخا لمن باع الكثير بالقليل « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون » ليس العالم الذى يزداد أمنا وراحة بزيادة علمه ، إنما العالم من يزداد خوفا وجهدا بزيادة علمه . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزدد وجعا لم يزدد من الله بعلمه إلا بعدا ومقتا » . وقيل عشرة أشياء قبيحة[1] ومن عشرة أصناف من الناس أقبح . الحرص على طلب الدنيا قبيح ، ولكن فى العلماء أقبح . والكبر قبيح . ولكن فى الفقراء أقبح ، والجور قبيح ولكن من الأمراء أقبح ، والكذب قبيح ولكن بين الأصدقاء أقبح ، والمخالفة قبيح ولكن بين الأحباء أقبح ، وقلة الحياء قبيح ولكن من ذوى الأحساب أقبح . والشح قبيح ولكن فى الأغنياء أقبح ، والضحك قبيح ولكن من الحكماء أقبح ، والمعصية قبيح ولكن فى المشايخ أقبح ، والغدر قبيح

(١) الأصل قبيح .

ولكن من أهل الديانة أقبح . وسئل الجنيد رحمه الله أى شىء أحسن فى كلام العبد ؟ قال الدعوة إلى الله بلسان التوحيد لجميع العالمين ، ونشر آلاء الله فى مجالس الذاكرين ، وغلبة الثناء عليه عند أهل المحبة من خصوص الخائفين ، وتفريج كرب الروحانيين ، الذين قلوبهم موضع نظر رب العالمين.

وقال الحسن البصرى. العلماء ثلاثة عالم لنفسه ولغيره ، فذاك أفضلهم وقيل : يقال ما تصدق رجل بصدقة أفضل من عطية يعطيها أخاه المسلم . وعالم لنفسه وحده [وذلك] محسن . وعالم لا لنفسه ولا لغيره فذاك أشرهم وقيل لأبى ذرّ مازادك ؟ قال العلم [قيل] فما رأس مالك ؟ قال الفقر . قيل فما حرفتك ؟ قال العبادة وقال بعضهم : ينبغى للعالم أن يعمل [ب] سبع خصال حتى يكون علمه لله ، ويكون [من] ورثة الأنبياء ومن أهل القربة من الله . أولها[1] : نية صادقة لوجه الله . والثانى : الطلب . والثالث : الاستماع . الرابع : التعليم الخامس : الحفظ . السادس : العمل به . السابع: نشره للمستحقين إن وجد ذلك ، وإلا فعليه بالكتم حتى حين . وقال ابن عباس رضى الله عنه . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : علماء هذه الأمة رجلان . رجل أعطاه الله تعالى علما فبذله للناس . ولم يأخذ عليه طمعا ، ولم يشتر به ثمنا. فذاك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ، ودواب الأرض ، والكرام الكاتبون[2] . يقدم على الله تعالى يوم القيامة سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين . ورجل آتاه الله علما فى الدنيا فضن به على عباده ، وأخذ عليه طمعا ، واشترى به ثمنا ، يأتى يوم القيامة ملجما بلجام من نار . ينادى مناد على رءوس الخلائق هذا فلان ابن فلان آتاه الله فى الدنيا علما فضن به على عباده ، وأخذ عليه طمعا [و] يعذب حتى يفرغ حساب الناس

---

(١) فى الأصل أوله .
(٢) فى الأصل والكاتبون .

وجميع أسامى أهل العلم مجملا[1] عالم ، وفقيه ، وحكيم ، وناقل للعلم ، وراو للعلم ، وحامل العلم ، ووعاء للعلم ، ومتكلم بالعلم ، وربانى فى العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تجالسوا عند كل عالم إلا عالم يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجالسة طوائف من الناس . نهى عن مجالس الأغنياء الراغبين فى الدنيا ، وجعلهم فى الحقيقة كالموتى ، فقال « لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم » وقال « لا تجالسوا أهل البدع[2] والأهواء » وقال « لا تجالسوا الأفاكين » وقال « لا تجالسوا العلماء الذين يرغبونكم فى الدنيا ويرخصون لكم فى متابعة الهوى فإن مجالستهم من أعظم البلاء » وقال فى حديث « جالسوا من يذكركم الله رؤيته ويزيد فى علمكم منطقه ويرغبكم فى الآخرة عمله » .

فتدبر فى هذا الخطاب . كأنه قال لا تجالسوا من إذا نظرتم إليه ذكرتم برؤيته الدنيا ولا من إذا سمعتم كلامه أورثكم النقص فى أعمالكم ، والعجز والكسل فى الصالح فى فعالكم ، ولا من إذا نظرتم إلى عمله زهدكم عمله فى الآخرة ، نعوذ بالله من الخذلان . ولا تجالسوا النساء فإن مجالستهم تقسى القلوب . وقال الفضيل بن عياض . لا تجالس إلا من وجدت فيه خصلتين يذكرك إذا نسيت ، ويعينك إذا ذكرت . وقال ذو النون . جالس من

---

(١) العالم قد مر التعريف به وكذلك الحكيم . أما الفقيه فهو عالم الفقه أو المتمكن من فروع العلم . وناقل العلم من ينقل أقوال غيره دون سند : وراوى العلم من ينقل علوم غيره بأسانيدها . وحامل العلم هو الحافظ للعلم وإسناده . ووعاء العلم من يردد أقوال العلماء دون فقه لها ، والمتكلم بالعلم من يجلس للناس فى مسائل العلم ، والربانى فى العلم هو العالم التقى « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

(٢) البدعة كل مالم يقم على صحته دليل فى أمور العبادة وكل الأصول ، ويدخل فى الدليل الكتاب والسنة والإجماع والقياس أما العرف فلا يصح دليلا لأن العرف قد يجمع فى مسائل تعبدية كثيرة على خرافات وبدع إذا كان عرف العامة

يكلمك عمله لا من يكلمك لسانه . وقال مالك بن أنس يقول « أدركت سبعين شيخاً من التابعين منهم عباد ومنهم من يستشفى بدعائه ما حملت عنهم قط . قيل ولم ذاك ؟ قال لم يكونوا من أهل هذا الشأن وفي رواية أخرى ما كانوا يدرون معاني ما يحدثون به ولا عندهم فقه جواب ما يسألون[1] عنه . وقال مالك بن دينار : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . ومثله ما ذكر في غرائب التفسير من معنى قوله تعالى « فلينظر الإنسان إلى طعامه » إلى عمله عمن يأخذه . وقال الثورى احذر في زمانك ثلاثا . عالم السلطان ، وقارىء الأسواق ، وعابد السطوح .

وقال حاتم الأصم . والله ما أنصفت بين دينك ودنياك . إذا افتصدت أو احتجمت طلبت أبصر الناس . وإذا اعتللت ببدنك طلبت من الأطباء أحذق الناس ، وإذا اشتريت أو بعت أو أودعت ، طلبت أعدل الناس وآمنهم . وإذا أردت شهوة أو فاكهة طلبت أطيب ذلك واسترخصت . ولم ترض بكل واحد من الناس . وإذا أردت صلاة في جماعة ، أو عالما للمجالسة والفتيا ، صليت خلف الفاجر والبر ، وجلست إلى الصالح والطالح وهذا من [عدم] مبالاتك[2] بدينك . ولو عز عليك دينك لا حتطت له بجهدك ، أما سمعت قول الرسول صلى الله عليه وسلم « الإمام وفد القوم فإن سركم أن تتقبل صلاتكم [ف]ليؤمكم أتقاكم » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) يقصد علم رواية السنة لأن الزهاد لم يكونوا من أهل هذا الشأن فعلا ولذلك لم يأخذ علماء الرجال بروايتهم في الحديث لأنهم يروون الكثير من باب فضائل الأعمال الكبير وإن لم تصح روايته . ومالك لا يأخذ إلا عن الضابط الحافظ ولم يكونوا من أهل الضبط . وإن كان لبعضهم رأى خاص في بعض الأحاديث الضعيفة حيث تقوى عندهم من باب الكشف ولكن محققيهم يقولون إن الكشف ليس بحجة في التشريع ، ويجوز أن يكون المراد . الذين لا حفظ لهم من العلم وإن كان لهم حظ كبير من العبادة الخالصة .

(٢) في الأصل : مثالاتك .

« تعوذوا بالله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون » ، ألا تراه صلى الله عليه وسلم كيف سماه عالما وعابدا ، ثم بعد التسمية لم يعرهما من الجهل والفجور ، وأمر بالتعوذ منهما كما أمر الله بالتعوذ من الشيطان الرجيم . ثم ذكر أن بفتنتهما لا يفتتن إلا كل مفتون ، ولا يغتر بزخرف حالهما إلا كل مغرور ، ولا يهلك على الله إلا هالك . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون .

وقال الخضر لموسى « يا طالب العلم اطلب العلم لتعمل به . ولا تطلبه لتحدث به ، فيكون عليك وزره ، ولغيرك نوره ، وجاء فى تفسير قوله تعالى « وتعيها أذن واعية » قيل : أذن علقت عن الله أمره ونهيه فوعته وعلمت ذلك فعملت به .

وقال أبو طالب المكى رحمه الله . إذا وجد المتعلم فى العالم ثلاث علامات فليلزمه ، فإن يلزمه يصل إلى أعلا درجات الصبر والتواضع وحسن الخلق وإذا[1] جمع المتعلم ثلاث خصال فعلى العالم أن يفتقده فإن فيه كنزه وغنيمته . العقل والأدب وحسن الفهم وقال الشافعى رضى الله عنه . العلم علم الأديان ، وعلم الأبدان ، قال أبو عثمان المغربى : ما أحسن ما قال الشافعى . علم الأديان علم القلوب والحقائق والمعارف ؛ وعلم الأبدان معرفة علم آفات النفوس والرياضات وتقويم السياسات وأحكام المجاهدات .

وقال أبو طالب المكى . اطلب فى العالم خمس علامات ، فإن وجدت ذلك فالزمه إلى الممات . وهذه العلامات هى علامات علماء الآخرة القائمين بالحق الناطقين بالصدق لابد له من العقل الرزين[2] ، كما قال اللطيف الخبير « وما يعقلها إلا العالمون » . ولا بد له من الخشية كما قال القادر على الجمع والألفة « كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولا بد له من الخشوع . كما قال المعبود بالركوع « خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا » ولا بد له

---

(١) فى الأصل فإذا .

(٢) الرزين : الثقيل .

من التواضع . كما قال منزل القوارع « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ولا بدله من حسن الخلق . كما قال خالق النار والفلق « فبما رحمة من الله لنت لهم » .

قال أبو طالب رحمه الله . ولا تكمل أوصافه ولا يعلو عند الله مقامه ولا يحصل فى قلوب الخلق هيبته إلا بتصغير الدنيا عنده ، كما قال الجليل فى كمال وصف العالم النبيل[1] « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن [وعمل صالحا] » فمن وجد [فيه] هذه الخصال فهو من العلماء بالله وهو أعز فى زمانك من الكبريت الأحمر تلك والله أمة قد خلت « هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » .

وقال سفيان بن عيينة . ما بقى أحد يحسن ويعلم ويُتَعَلَّم منه وقال الجنيد رحمه الله . إن الله أراد من العباد شيئين علما ومعرفة علم العبودية، ومعرفة الربوبية ، وما سوى ذلك فحظوظ أنفسهم . وسئل الحلاج عن العالم والعليم والعلام . فقال : العالم بشىء واحد ، والعليم بأشياء كثيرة . والعلام من لا يفوته شىء . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضى الله عنه أى الناس أعلم ؟ قال الله ورسوله أعلم . قال: أعلمهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان فى علمه تقصير . وإن كان يرجُف على السنة ، فكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزالون بخير [فإذا] ما إذا جال فى صدر أحدكم شىء فلم يجد من يخبر به ويشفيه منه ، ويكشفه له [فليسوا بخير] وايم الله أوشك أن تطلبوه فلا تجدوه[2] .

قال أبو طالب المكي رضى الله عنه فى شرح هذا الخبر ، قد حصلنا فى زماننا هذا فى مثل ما خاف [منه] ابن مسعود ، لأن مشكلة لو وردت فى

(١) النابل الحاذق فى الأمر .

(٢) العبارة غير مستقيمة والمعنى أن الناس لا يزالون بخير إلى أن يجىء وقت لا يجدون فيه من يكشف عن شبهات التوحيد المختلجة فى الصدور ويشفى صدرهم عن الشك . ويدل على هذا المعنى شرح أبى طالب للخبر فليست ماظرفية .

معانى التوحيد واشتبهت[1] أو اختلجت فى صدر مؤمن من صفات الموحد . وأراد كشف ذلك على حقيقة الأمر . كان ذلك عزيزا ، ولكان استكشاف ذلك بين خمسة نفر . [الأول] مبتدع ضال ، يخبرك برأيه عن هواه . فيزيدك حيرة إلى حيرة . والرجل الثانى[2] . متكلم ذو لسان ثرثار فى الكلام يقتيك بقصور علمه عن شهادة الموقنين ، وبقياس معقوله على ظاهر الدين[3] هذا شبهة . وكيف تنكشف به شبهة . والرجل الثالث . صوفى شاطح غالط بأنه يجاوز بك الكتاب والسنة يخالف بقوله الأمة والأئمة فيجيبك بالظن والوسواس والتمويه والالتباس ويمحو الكون والمكان ، ويسقط العلم والأحكام ، ويذهب الأسماء والرسوم وهؤلاء تائهون فى مفازة التيه غريقون فى أبحر التوحيد لم يجعلوا أئمة للمتقين ، وهذا ساقط القول[4] ، والرجل الرابع . مفت موسوم بالفقه عند أصحابه ، عالم عند نفسه ، يقول لك هذا . من أحكام الآخرة ، ومن علم الغيب ، لا نتكلم فيه لأنا لم نطقه وهو فى أكثر مناظراته يتكلم فيما لم يكلف [به] إذ لا يعلم المسكين أنه كلف علم الإيمان ، وحقيقة التوحيد ، ومعرفة إخلاص المعاملة ، آثر حوائج الناس وأحوالهم على حاجته وحالته ، واشتغل بإصلاح ألسنتهم عن صلاح ما فى بأيامهم [من] أيامه . وأذهب عمره فى شهواتهم ، فورد القيامة مفلسا ، وعندما يراد من أنصبة المقربين مبلسا . والرجل الخامس . صاحب حديث وآثار ، وناقل رواية الأخبار يقول لك إذا سألته قال: اعتقد التسليم . وأمر لك باستماع الحديث كما جاء بلا تفتيش وهذا أحسنهم طريقة وأشبههم

---

(١) على هامش الأصل « وأشباهه » نسخة ثانية .

(٢) والرجل الأول هو المبدع الضال الذى يخبر برأيه عن هواه .

(٣) وهو هؤلاء أصحاب مذاهب الكلام الذين أطلقوا لعقولهم العنان مضربين صفحا عن النصوص فخلطوا الفلسفة بالعقيدة فضلوا وأضلوا .

(٤) ومنهم المجاذيب أو مدعوا الجذب . ومن نطقوا بعبارات مبهمة للعامة من الناس .

بساقف العامة خليقة ، ليس عنده شهادة يقين ، ولا معرفة بحقيقة أحوال العارفين . فإذا أدركت هذا العصر فاقطع عمرك بسلم سلم . لعلك تنجو من المخاطرة والندم .

وقال أبو سعيد الخراز . العبارة يعرفها العلماء[1] والإشارة يعرفها الحكماء ، والرمز يعرفه الأولياء ، واللطائف يقع عليها السادة من الشيوخ . وقال أبو طالب . فرض على العبد إذا أراد طلب العلم أن يعرف العلم ما هو ، والعالم من هو ، حتى يطلب العلم عند العالم . وإن كثيرا من زخرف الكلام يظنه العموم علوما كثيرة [وكثير] من نقلة العلم يحسبهم العامة علماء ، وقد حكى عن بعض السلف قال دخلت [المسجد] ذات يوم فإذا بحلقتين . إحداهما يقصون ويدعون ، والأخرى[2] يتكلمون فى العلم ، وفقه الأعمال ، وأوصاف العمال ، فملت إلى حلقة الدعاء فجلست إليهم ، فحملت عيناى فنمت ، فهتف بى هاتف وقال لى : جلست إلى هؤلاء وتركت مجلس العلم . أما والله لو جلست إليهم لوجدت جبريل وميكائيل عندهم . وقال الجنيد : إن القلب إذا خلا من حب الرياسة ، والنفس من حب الراحة ، ظهر من القلب الحكمة ، ومن النفس الخدمة .

وقال أبو طالب . حقيقة العلم هى[3] العلم بالله .. ألا تسمع إلى ما روى عن المصطفى صلى الله عليه وسلم . أفضل الذكر لا إله إلا الله ؟ وقال الجليل فى تصديقه : فاعلم أنه لا إله إلا الله . وقال أبو طالب . وهذا العلم أعنى علم اليقين دواء القلوب ، ومراهم العيوب ، وكفارات الذنوب . وعاملوهم

---

(١) الإشارة ما يؤخذ من ظاهر اللفظ وباطن المعنى لا تأويل الباطنية الذين يسقطون اللفظ والمعنى معا .

راجع منشورات اسماعيلية . طبع دمشق . نشر : د . عادل العوا . وعقائد الباطنية . لليمانى ، نشر . عزت العطار . القاهرة

(٢) فى الأصل والآخر

(٣) فى الأصل هو .

الأولياء، وأربابه هم الأطباء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تطبب ولم يعلم منه طب فقتل فهو ضامن . فالمتكلم بهذا العلم من غير يقين للقابلين منه قاتل[١] [لهم] ثم لنفسه [و] يصير بقتلهم أيضا قتالا ، وقال حاتم الأصم لا تجلس[٢] إلى كل عالم ولا تستمع من كل متكلم واعلم أن لجسدك قوتا . ولقلبك قوتا ، وقد أمرت بطلب القوتين . فكما لا ترضى لجسدك إلا بالطيب من الأقوات ، كذلك فلا ترض لقلبك إلا بأنظف العلوم ، وهو علم العالم التقي الخائف النقي : وكما أن لك فى قوت نفسك حلالا تحاسب عليه وحراما تعذب به ، وشبهة تعاتب عليها[٣] . كذلك أيضا فى قوت قلبك مثله فتدبر واعقل وتفكر وميز .

وقال أبو طالب المكى . إن من علامة عالم الآخرة ألا يكون محبا للدنيا ولا جريئا على الفتيا ، ولا ذا شهوة فى كثرة الكلام كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت وفى الكلام تنميق لا زيادة ، وفى السكوت سلامة وعلم . وقال الحسن البصرى ، يستدل على قلة صدق الرجل بكثرة كلامه ، وقيل الصمت زين العالم ، وستر الجاهل ، وكثرة الكلام تفضح الجاهل ، وتذهب ببهاء العالم.

وقال أبو طالب المكى رضى الله عنه كان التورع عن جواب المسائل والسكوت عن كثير من العلوم طلبا للسلامة معروفا [و] ذلك فى الصحابة وخيار التابعين وصالحى السلف ، كما جاء فى الأثر عن ابن مسعود رضى الله عنه . من أفتى الناس فى كل ما يشتهونه فهو مجنون . وكان ابن عمر رضى الله عنه إذا سئل عن عشر مسائل ، أجاب عن واحد [ة] وكان ابن عباس رضى الله عنه إذا سئل عن عشر مسائل ، أجاب عن واحد [ة] وسكت عن تسعة .

---

(١) فى الأصل قاتلا . والمراد أنه يلقى بأنفسهم إلى التهلكة بإفساد عقائدهم . ومن ثم يقتل نفسه لأنه وزرهم عليه .

(٢) فى الأصل تجالس .

(٣) فى الأصل عليه .

قال أبو محمد سهل . العالم هو الذى يقعد فيسكت ، ويرفع قلبه إلى مولاه فيفتقر إليه فى حسن توفيقه ، ويسأله أن يلهمه الصواب . وأى شىء سئل عنه تكلم [فيه] بما فتح له مولاه . وكان أنس بن مالك رضى الله عنه إذا سئل عن شىء يقول . سلوا مولانا الحسن فإنه حفظ ونسينا . وقد جاء فى الأثر ، كانت [1] المسألة من العلم يسأل عنها الرجل من الصحابة فيردها[2] إلى آخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى ترجع إلى الذى سئل عنها[3] أولا . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا سئل عن مسألة جمع الصحابة ، فبدأ بأهل بدر، ثم المهاجرين والأنصار ، فإذا لم يجد الجواب منهم وعندهم التفت إلى ابن عباس رضى الله عنه [وقال] :غص يا غواص ، يعنى استنبط من القرآن . قال واختلف قوم إلى ابن مسعود ثلاثين يوما فى مسألة فلا يجيبهم عن ذلك . ثم قال : أجيب فيها برأيى فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فنى ومن الشيطان ، والله ورسوله منه بريئان [من ذلك] وقال النبى صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت . وقال جماعة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه . إذا كان العلم عند من لا يعمل [به] ، والسلاح عند من لا يقاتل [به] والمال عند من لا ينفقه ، والرأى عند من لا يقبل عنه ، ضاعت الأمور .

وقال الأحنف بن قيس . كنت أطلب العلم عند مالك بن أنس وأطلب الحلم عند قيس بن عاصم ولقد حضرت يوما عنده فإذا نحن بجماعة ومنهم مقتول ومكتوف فوقفوا بين يديه فقالوا : هذا ابنك قتله ابن أخيك فوالله ما حل حبوته[4] حتى قال لابن له . قم فحل وثاق ابن عمك ووار أخاك

---

(١) فى الأصل كان

(٢) فى الأصل يرده

(٣) فى الأصل عنه

(٤) يقال احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقيه بعمامته وقد يحتبى بيده والاسم الحبوة والجمع حبى .

وسق مائة من الإبل إلى أمه فإنها غريبة ، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال : قتلت قرابتك ، ونقصت عددك ، وأذهبت عزك ، وقطعت رحمك ، فلا أبعد الله غيرك .

قال أبو طالب واعلم أن الكلام ينقسم [إلى] سبعة أقسام العلم منه قسم واحد وسائر السنة لغو مطرح يلتقطه من لا يعرفه ومن لا يفرق بين العالم والجاهل ، ولا يميز بين العلم والكلام . والعرب تقول لكل ساقطة لاقطة . ولكل قائلة ناقلة . وقال الجنيد . العلم هو أن تعرف قدرك كم هو وماهو . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا ينبغي للعالم أن يسكت عن علمه، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت عن جهله . والقاص الذي يبتدىء بقص الأخبار ويذكر القصص والآثار من غير تخويف للسامعين ولا تزهيد للراغبين .

قال أبو طالب المكي . وقد كان فيما مضى للمتقدمين [مجالس] يجتمعون عليها قد اندرست في زماننا،وكان للصالحين في علم اليقين والمعرفة مقامات وأحوال يتذاكرها أهلها ، ويطلبون أربابها ، قد عفت عندنا لقلة الطالبين، وعدم الراغبين فيها،وذهاب السالكين طرقها . منها طلب علم الحلال ، وعلم الفرق بين شبهة الحلال وشبهة الحرام [١] ، وعلم الورع في المحاسبات والمعاملات وعلم الإخلاص وعلم آفات النفوس [٢] وعلم فساد الأعمال وعلم نفاق العمل وعلم نفاق القول وعلم الفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس

---

(١) شبهة الحلال . الأمر الذي تغلب عليه الحرمه ، ويشتبه في حله . كالنبيذ والسماع بالنفس ، وشبهة الحرام ما غلب عليه الحل ، ويشتبه في حرمته أو كراهته التحريمية ، كالتدخين إذا كان المدخن لا يحتاج إلى ثمن الدخان ولا تتضرر به صحته والفرق بينهما أن مرتكب ما فيه شبهة الحلال أشد جرما من مرتكب ما فيه شبهة الحرام وكلاهما ليس فيه من الورع شيء .

(٢) صنف في هذا الباب كتب مستقلة مثل : [العرائس القدسية . المفصحة عن الدسائس النفسية لسيدى مصطفى البكرى] مخطوط بدار الكتب المصرية .

ونفاق الروح ونفاق العقل[١] وعلم إخفاء النفس شهوتها وإظهارها ذلك وعلم الفرق بين سكون القلب بالله وسكون النفس بالأسباب[٢] وعلم خواطر النفس وخواطر الروح ، وخواطر اليقين وخواطر العقل ، ولمة الشيطان ولمة الملك[٣] وعلم أحوال طرائق العمال وعلم تفاوت مشاهدات العارفين، وعلم تلوينات الشواهد على المريدين ، وعلم القبض والبسط ، وعلم التفرقة والجمع ، وعلم البداية والنهاية ، وعلم العبودية ، وعلم التخلق بأخلاق الربوبية ، وعلم العبودية والحرية ، وعلم التحقق بصفات العبودية ، وعلم

و[الرعاية للحارث المحاسبى] و[الوصايا] له أيضا . مخطوطة بدار الكتب . تحت الطبع لنا .

(١) نفاق القلب . ميله إلى أهل النفاق . دون أن يظهر ذلك على اللسان . أو شعوره بالذلة نحو العبيد . أو سكونه إلى إلقامات العلم عند الذكر والوقوف معها وتأمل تفاصيلها . ونفاق النفس : أن تستولى النفس على المزيد وتسول له السوء أو التفكير فى أمور الرزق والاولاد تنافق بذلك عقله بالحجة الواهية والاستدلال المنهار . ونفاق الروح . أن تفرح بمشاهدها عند سلوكها وتدل بها على غيرها وترضى عنه وعلامته أن يعقب تلك المشاهد زهو فى نفس المريد ونفاق العقل خضوعه لنفاق النفس ؛ ومؤازرتها بالحجة الداحضة . أو الاحتجاج بحل الامور المكروهة بأدلة فيهامغالطات . فنفاق القلب والروح يرتبط كل منهما بالآخر ونفاق النفس والعقل . يرتبط كل منهما بالآخر ونفاق النفس والعقل معايوصلان إلى نفاق القلب والروح معا .

(٢) سكون القلب بالله . لا يكون معه قلق ولا اضطراب ؛ وتصحبه معارف ومشاهدات وسمو فى الروح والمشاعر والمدارك . وسكون النفس بالأسباب يصحبه قلق فى الباطن ويحجب عن المعارف والمشاهدات . ولا تسمو معه المدارك والمشاعر .

(٣) راجع « التدبيرات الإلهية فى المملكة الإنسانية لابن عربى » باب الخواطر . المثنى ببغداد . وباب الخواطر فى « روضة التعريف بالحب الشريف للسان الدين ابن الخطيب » مصور بالجامعة العربية ١٤٢ تصوف . تحت الطبع لنا .

بيان مقامات العلماء ، وعلم معانى الصفات ، وعلوم المكاشفة بتجلى الذات وعلم إظهار الأفعال الدالة على معانى الأوصاف الباطنة ، وظهور المعانى الدالة على النظر والأعراض . وعلم التقريب والإبعاد ، وعلم النقص والمزيد ، وعلم المثوبة والعقوبه ، وعلم الاختبار ، وعلم البلاء والبلوى ، وعلم الامتحان وعلم مجاهدات النفوس ، وعلم المطالبة والمحاسبة ، وعلم الإشارة والعبارة ، وقد ذكر أبو طالب فى كتاب قوت القلوب من كل نوع من هذه الأنواع والعلوم فصولا ورسم من ذلك جملا وأصولا ، تركت ذلك كراهية الإطالة[1] فمن أراد معرفة ، ذلك فليطالع كتابه .

قيل لجعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه : يا بن رسول الله ما بال الناس منهم من إذا كلمته يستدل بأول كلامك على آخره ثم يجيبك ، ومنهم من إذا كلمته يصمت حتى يستغرق فى كلامك ثم يجيبك ، ومنهم من إذا كلمته يقول أعد على . قال جعفر . اعلم أن الله قسم العقل على ثلاثة أجزاء : فمن الناس من ابتدىء بالعقل قبل خلقته ، فهذا الذى يستدل بأول الكلام على آخره ثم يجيب . ومنهم من عجن عقله بالنطفة التى خلقهم الله منها ، فهو الذى يصمت على ما يستغرق فى الكلام ثم يجيب . ومنهم من ركب فيه العقل بعد كمال خلقته ، فهو الذى إذا كلمته يقول : أعد على .

باب

فى معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم

قوله جل ثناؤه : وأما السائل فلا تنهر . قال بعضهم : ليس هو المسكين الذى يسألك الكسرة والقطعة ، إنما هو طالب العلم الذى يسألك عن العلم فلا تزجره ، ولكن قربه وعلمه . قال جعفر الخلدى هو السائل عن حلقة الهداية ، فإذا سألك عن ذلك فلا تقنطه من رحمتى ، فإنى قادر على أن ألبسه لباس الهداية . والسائل إذا سألك عنى فدله على باللطف دلالة ، فإنى قريب

---

(١) هذه المسائل مبعثرة فى أمهات كتب التصوف . كالفتوحات المكية ؛ والإحياء . وآداب العبودية وغيرها .

مجيب . ومثل هذا حكى سهل بن عبد الله فى معنى قوله تعالى « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » قال : هو طالب العالم يسألك الإرشاد إلى الله ، فأوف له حقه ، والمحروم من لا لسان له[1] ولا يهتدى إلى سؤال العلم فيبتدأون بالدلالة على الله ، والرغبة فى الله إيجابا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، قال أبو طالب المكى . اختلف أهل العلم من علماء الظاهر والباطن فى معنى هذا الخبر .

فقال أبو محمد سهل بن عبدالله أراد بذلك علم الحال . قيل له فما علم الحال؟ قال من الباطن الإخلاص ومن الظاهر الاقتداء[2] ، فمن لم يكن لباطنه كمال ظاهره فهو متعب البدن ، فقلت فما تفسير ذلك ؟ قال أن تعلم أن الله قائم عليك فى سرك وعلانيتك وحركتك وسكونك ، لا تغيب عن الله طرفة عين ، وهو فارغ لك ، كأنه ليس له خلق غيرك ، ولا يذهب عنه من نفسك نَفَس واحد ، ولا من طرفك طرفة واحدة ، ولا من همومك هم واحد ولا يسقط عنه من حركتك وسكونك ذرة ولا أقل منها[3] ، وهو كما قال : أفمن هو قائم على كل نفس [بما كسبت] وقال « يعلم السر وأخفى » وقال : يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، وقال : ويعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو العرق الذى فى جوف القلب ، والله أقرب إلى القلب

(١) أى من يمنعه الخجل عن استعمال لسانه فى سؤال العلم ، فكأنه لا لسان له .

(٢) الحال ينتج عن العمل فى إخلاص ، وهو مشهد روحانى من بواطن الأعمال ، وقد تتلون الأحوال بتلون الأعمال فى بداية أحوال العرفان فيسمى صاحب هذه الحالة « صاحب تلوين » وقد يتمكن العارف فتتبلور تلك المشاهد فى مشهد واحد جامع هو قمة المشاهدات كلها ، ويسمى صاحب هذه الحالة « صاحب تمكين » ولما كانت أحدية المشاهد غير قابلة للتفرقة فإن مشهد كل حال على حدة يكمن فى قلب العارف فيتلون قلبه بتلون تلك المشاهد ، ولكن روحه وظاهره فى مقام التمكين ولذلك سمى صاحب هذه الحالة « صاحب تمكين فى تلوين »

(٣) فى الأصل منه .

من ذلك العرق إلى القلب ، وقال : يعلم ما يلج فى الأرض . الآية . فإذا عرفت قربه منك فينبغى لك أن تستحى منه . وقال بعض العارفين معناه طلب علم الوقت ، وقيام العبد بحكم ساعته ، وما يقتضى منه فى ساعة من نهاره ، وذلك إذا تكلم أو سكت أو مشى أو ركب أو نزل أو أكل أو لبس فيريد أن يعلم أن هذه الحالة هى[1] لله أو لغير الله . فإن كا[نت] لله مضى فيها[2] وإن كا[نت] لغير الله تركها[3] فهذه هى المحاسبة[4] ، التى قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه [فيها] . حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وقال بعض علماء الشام . إنما عنى به طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس ووسواسها . ومعرفة مكائد العدو وخدعه وغروره ومايصلح الأعمال ويفسدها . هذه فريضة كلها[5] من حيث كان الإخلاص . والأعمال فريضة ومن حيث أمر [الإنسان] بمعاداة إبليس ، وهو قول عبد الرحمن ابن يحيى ومن تابعه .

وقال بعض البصريين معناه طلب علم القلب ، ومعرفة الخواطر وتفصيلها ، وبماذا يدفع خاطر العدو ، وهذه فريضة لأنها[6] رسل الله إلى العبد فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ، وبين لمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل ، وهذا مذهب مالك بن دينار وفرق [السبخى] وعبد الواحد بن زيد .

---

(١) فى الأصل هو .
(٢) فى الأصل فيه .
(٣) فى الأصل تركه .
(٤) فى الأصل فهذا هو المحاسبة . وهناك نوع آخر من المحاسبة هو أن يستعرض الإنسان أعماله فى نهاية يومه ويحاسب نفسه على خطئها ويلومها عليه .
(٥) فى الأصل كله .
(٦) أى الخواطر

وقال بعض السلف . إنما معناه طلب علم مالم يسع جهله من علم التوحيد وأصول الأمر والنهى ، والفرق بين الحلال والحرام ؛ إذ لا غاية لسائر العلوم . وقال ابرهيم بن أدهم وابن أسباط ووهيب بن الورد . معناه طلب علم الحلال فريضة إذ قد أمر الله به . وقال بعض فقهاء الكوفة معناه طلب علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه ، وافترض ، عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه ، لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لا يتجر فى سوقنا هذه إلا من تفقه ، وإلا آكل الربا شاء أم أبى ، وهذا مذهب الثورى وأبى حنيفة وأصحابهما .

وقال بعض المتقدمين . منهم ابن المبارك من علماء خراسان معنى ذلك أن يكون الرجل فى منزله فيريد أن يعمل شيئا من أمر الدنيا ، أو تخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد ، وعلى العبد فى ذلك اعتقاد وعمل ، فلا يسعه أن يسكت على ذلك ، ولا يجوز أن يعمل فيه برأيه ، ولا أن يحكم بهواه ، فعليه أن يلبس نعله ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده ، ثم يجلس بين يديه فيسأله

وقال أبو ثور وداود بن على والحارث بن أسد المحاسبى [1] ومن تابعهم من المتكلمين إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلى بها ، وإن لم يكن يسمعها ترك الطلب إذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ، فإذا وقع فى سمعه شيء من ذلك ووقر فى قلبه ، فلم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد بدعة فيخرج بذلك على السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم .

قال أبو طالب . والذى عندى فى معنى هذا الخبر والله أعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة يعنى علم هذه الفرائض الخمس

---

(١) بل إن رأى المحاسبي ليس كذلك .بل رأيه أن المراد بالحديث علم الفرائض التى بنى عليها الإسلام وهو رأى المكى التالى لهذا الرأى ، [راجع النصائح الدينية للمحاسبى . مخطوط بدار الكتب .

الذى بنى الإسلام عليها من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها . ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمها[1] . فأول العلم بها[2] ، فصار علم العمل فرضا من حيث افترض العمل[3] ، فلما لم يكن على المسلم فرض من الأعمال إلا هذه الخمس صار طلب علم هذه الخمس فرضا لأنه فرض الفرض . ومعنى ذلك واضح فى الخبر بإدخال التعريف عليه وإشارة الألف واللام إليه[4] .

وقال أبو طالب . وعلم التوحيد داخل فيه لأنه فى أولها من قول شهادة ألا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصل[ة] بذاته ونفى صفات سواه[5] المنفصلة عن إياه كله داخل فى شهادة ألا إله إلا الله . وقال . وعلم الإخلاص داخل فى صحة الإسلام أيضا إذ لا يكون مسلما إلا بإخلاص العمل لله فبدأ به وبشرطه للإسلام .

وقال أبو طالب ، وهؤلاء المختلفون فى الأقوال مجموعون على أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بذلك طلب علم الأقضية والفتاوى ولا علم الاختلاف والمذاهب ولا كتب الأحاديث مما يتعين فرضه وإن كان سبحانه لا يخلى[6] من ذلك من يقيمه ويحفظه . قال سهل . العلوم سبعة . ثلاثة مكاشفة بلا واسطة ، وأربعة بواسطة ، فالكشف علم ربانى ، وعلم نورانى وعلم ذاتى[7] وأما الذى بواسطة [ف] علم وحى ، وعلم تجلى ، وعلم عندى .

---

(١) فى الأصل بعلمه .

(٢) فى الأصل . به

(٣) فى الأصل العلم

(٤) أى إن « أل » هنا هى « أل » (العهدية)

(٥) فى الأصل « سوه »

(٦) فى الأصل لا يخل

(٧) العلم الربانى ، هو : المفاض من حضرة الربوبية ، وهى علوم لطيفة ، من أسرار الشريعة فى أدق خلجاتها . يفهمها طائفة من لهم طاقة روحية قوية . أو مستعدة

بلا واسطة ، وعلم لدنى ، فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما .

وقال الزوزنى : العلم على الحقيقة هو الذى يعلم حدود الإسلام وبواطن أعلام الإيمان، وسريرة سر الإحسان. فظواهر حدود الإسلام موجود[ة] فى بيان الكتاب والسنة ، لا يعرفها إلا العلماء وبواطن أعلام الإيمان غيب مغيب فى الغيب ، وسريرة سر الإحسان مخفى عن أن يطلع عليه أحد إلا الذى يعلم السر والإعلان . ويقال إن علم الباطن هو من أسرار النبوة كما حكى عن أحمد بن القاسم العلوى أن سائلا سأله بسمرقند . لم لم يقع إلى هذه الديار من علم السرائر ؟ فقال . هذه بلاد لم تطأها أقدام النبوة فكيف تصل اليها أسرار النبوة ؟[1] وقال سهل . لا تدعوا العلم حتى تعملوا ولا تدعوا العمل حتى تخلصوا ، ولا تدعوا الإخلاص حتى تكونوا مشاهدة الله . إياكم ومشاهدتكم إياه وصحبته معكم وصحبتكم معه .

وقال أبو يزيد البسطامى . العالم دون ما يقول والعارف فوق ما يقول والعارف يلاحظ ربه بذهاب شاهد نفسه والعالم يلاحظ نفسه بعمله لأن العلم يرفع أهله فى أنفسهم ؛ والمعرفة تضع أهلها فى أنفسهم لما يلزمهم من التواضع والذلة والخشوع [فـ][2] النبى عليه السلام ، لما خيره الله تعالى بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا ، اختار[3] أن يكون نبيا عبدا . وقال ذو النون المصرى : سافرت ثلاث سفرات فأول سفرة جئت بعلوم

= والعلم النورانى ، هو إشراقات الربوبية فى الألوهية، وهى مواهب تلقى فى الأرواح ولا تكتب فى الاوراق لقصور اللغة غالبا عن إدراك تلك المعانى بألفاظها . والعلم الذاتى هو اندراج الكل فى الأحدية ، حيث لاصوت ولا عين ولا أين ، هذه هى الأصول الصوفية فى فلسفه التدرج فى المعرفة .

(١) فى الأصل الضمير المذكر فى الفقرة كلها

(٢) فى الأصل « يقول النبى »

(٣) فى الأصل فاختار

يفقهها العـــام والخاص والسفرة الثانية جئت بعلوم يفقهها[1] الخاص ولا يفقهها العام . والسفرة الثالثة جئت بعلوم لم يفقهها الخاص ولا العام .
وقال زين العابدين علي بن الحسين بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين :

إني لأكتم من علمي جواهره كيلا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبدا لو ثنا
ولاستحل رجال دينون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقال بعض الحكماء . والله لا تصلون إلى جوهر الجواهر حتى تعبروا قنطرة القناطر . ولا تنالون الكرامة حتى تشربوا[2] السموم القاتلة ، قاله أبو طالب المكي . وروينا في خبر أن الشيطان ربما سبقكم بالعلم قلنا يارسول الله كيف يسبقنا ؟ قال يقول لا تعمل حتى تعلم فلا يزال في العلم قائلا وبالعمل مسوفاً حتى يموت [الإنسان] وما عمل . ففي هذا الخبر دليلان : أحدهما : أنه أريد به [كراهة] طلب فضول العلم الذي لا نفع فيه في الآخرة ، ولا قربة في طلبه من الله[3] . والثاني : أن العلم المفضل المندوب إليه إنما هو الذي يقتضي العمل لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر بعمل بغير علم . ولا يكره طلب علم بغير العمل به . ألا تسمع إلى قوله من خبر آخر . فضل من علم أحب من فضل من عمل وخير دينكم الورع.

---

(١) في الأصل يفقهه

(٢) في الأصل تعبرون وتشربون .

(٣) وكراهة ذلك إن كان الطالب يجهل العلوم المقربة من الله . أما إذا أحكم العلوم النافعة للآخرة والمقربة من الله ، ثم طلب بعد ذلك . وبعد العمل به فضول علوم الدنيا فلا بأس في ذلك لأنه سيشهد فيها فيض الله تعالى على عبيده .

باب
بيان التوحيد والتفريد[1] على لسان
أهل الإشارة من العارف والمريد

وقد ذكر الله جل ثناؤه فى كتابه سبع آيات فى بيان التوحيد، وصفات الموحد، [و] جمع فى ذلك علوما علوية، وأودع فيها فهوما ربانية[2]. لا يهتدى إليها[3] إلا من أمر بالعناية.

الأولى قوله جلت قدرته « وإلهكم إله واحد » قال الإمام أبو سعيد[4] عبد الملك النيسابورى : معبودكم الذى يستحق عبادتكم وطاعتكم، معبود واحد حى لا يموت. قيوم لا ينام، صمد لا يأكل، قائم لا يسهو دائم لا يلهو، قوى لا يغلب، عزيز لا يدركه أحد، لا من عدد، باق إلى غير أمد. ليس كمثله شىء. ولا ككلامه كلام فى الإحكام والبيان، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم موجود غير معدوم، معروف غير مجهول.

وقيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه. بماذا عرفت ربك ؟ قال بم عرفنى به نفسه. لا تشبهه صورة، ولا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، ، قريب فى بعده، بعيد فى قربه، هو فوق كل شىء، ولا يقال تحته شىء وتحت كل شىء ولا يقال فوقه شىء وأمام كل شىء ولا يقال وراءه شىء. ووراء كل شىء، ولا يقال شىء أمامه، علمه بما يكون كعلمه بما كان، فسبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره، وجاء رجل أعرابى إلى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه فقال له هل رأيت ربك ؟ قال جعفر : ما كنت

---

(١) فى القاموس. فرد تفريدا تفقه واعتزل الناس، وخلا لمراعاة الأمر والنهى، ومنه طوبى للمفردين وسبق المفردون وهم المهتزون بذكر الله تعالى. وهم أيضا الذين هلكت لداتهم وبقواهم. والتوحيد الإيمان بالله تعالى وحده

(٢) فى الأصل ربانيا

(٣) فى الأصل إليه

(٤) فى الأصل « أبو سعد »

لأعبد ربا لم أره ، قال الأعرابى ، كيف رأيته ؟ قال لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، ولكنه معروف بالآيات : مشهور بالعلامات ، لا يجور فى قضائه[1] ولا يحيف فى حكمه ، هو الواحد الذى لا إله إلا هو . فقال الأعرابى أعلم أنك من أهل بيت النبوة والشرف ،

قال جعفر الخلدى فى معنى قوله « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » سقاهم التوحيد فى السر فتاهوا عن جميع ما سواه ، فلم يفيقوا إلا عند المعاينة ، ورفع الحجاب ؛ فيما بينه وبينهم ، وحكى عن أبى الحسين النورى قال : دخلت البادية على التوكل ، وكنت كلما خطر بقلبى مسألة إلى مخلوق وشهدت العلة فى ، رجعت إلى أول البادية ، ودخلت من الرأس ، عقوبة لنفسى ، كيف أساءت ظنها بمعبودها ؟ وهى تقصده[2] وتريد قربه ، فبينما أنا أسير إذ نظرت إلى شاب قد [أ] ذابه الحب وأحرقه الشوق يتنفس تنفس المكروب ، ويشير إشارة المحب إلى المحبوب . فسلمت عليه ، فنظر إلى مليا ثم قال : واعجباه هو أنطقك ، وهو إن شاء يرد عليك ، قلت ما تصنع ها هنا ؟ قال غلطت يا هذا . لست أنا بالصانع . قلت ما تطلب ؟ قال أنا مطلوب لا طالب ، قلت إلى أين عزمك وقصدك ؟ قال يا هذا : أنا منذ عشرين سنة بلا عزم ولا قصد ، سبانى الحبيب فقطعنى عن البعيد والقريب وغار علىّ فلم يترك لى عزما ولا قوة ولا فعلا ولا إرادة ولا اختيارا ولا فؤادا ولا قلبا ، ثم مع هذا بالتوحيد يطالبنى ، ونفسى بالتخليط تطالبنى

---

(١) فى الأصل « قضية »

(٢) إنما جاء سوء ظنها بمعبودها ، لأنها نقضت عهد التوكل على الله بمحاولة سؤال المخلوق . ويرى « الدرقوية » من فروع الشاذلية بالمغرب نسبة إلى شيخهم سيدى أحمد العربى الدرقوى أن العبد فى تدريبه العملى على التوكل إذا أراد أن يأخذ من العبد فليتمكن يده للعبد وقلبه معلقا بالرب نابضا بذكره ولا يقدح هذا فى توكله لأن حقيقة التوكل : الخروج عن ملاحظة السبب . ويرى بعض الصوفية أن حقيقة التوكل الخروج عن ملاحظة التوكل لأن ملاحظة التوكل سبب ينقض عقد التوكل .

فلا هو يتركنى مع النفس وتخليطها ولا يكشف لى عن التوحيد ويظهر لى فقرها[1] ، يقول وحدى آمراوناهيا وأنا أقول وحدى داعيا حتى أوحدك بالتوحيد . معنى وحدى داعيا أى اقطع عنى كل ما سواك حتى أصير لك وحدك فأوحدك[2] ثم أنشأ يقول :

خيالك فى سرى وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب

ثم قال . ليته غاب عنى[3] ، وإن لم يغب عنى فليته غيبنى ، فقلت هذا رجل أحرقته نار التوحيد فمضيت وتركته .

وقال ذو النون . من تفكر فى كيفية صعود الرب ونزوله واستوائه على عرشه أخرجه ذلك إلى الزندقة والتعطيل ، لأنه جل ثناؤه ليس كمثله شىء فى كل شىء ، لو شاء لم يتكلم ولم ينقصه ترك الكلام ، ولو شاء تكلم بلا كلام ، ولو شاء تكلم بلا إلهام ، ولو شاء أقوى أبصار الناظرين على رؤيته ، وأسكن الكثير فى القليل ، وأسمع الميت الرحيم خفى الكلام ، الذى لا يسمعه الحى السوىّ . فاعرف ألا معرفة بكيفية قدرته وصعوده ونزوله واستوائه إلا التسليم والرضا والإقرار بالإيمان به لا غير .

الثانية : قوله جل ذكره حكاية عن إقرار الذر « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى» . قال أبو بكر النقاش فى معناه أجاب[ت] طائفة بقول . بلى . فهم أهل السعادة والرضوان ، وأجاب[ت] طائفة أخرى فقالوا . بل لا . جحودا فهم أهل الشقاوة والخذلان ، وقال أبو سعيد النيسابورى ، فى كتابه أنطقهم بتفريد التوحيد ، فقال بعضهم : بلى ، وقال بعضهم : بل لا . فكان[4]

---

(١) فى الأصل «قعرها »

(٢) أى أجعلك موحدا .

(٣) ليس المراد . الجرأة على مقام الألوهية جل وتقدس . بل المراد التعبير عن عدم احتمال الطاقة البشرية لذوق التجليات الإلهية ، فليته غابت عنه الأذواق ، حتى يقوم فى مقام الإيمان بالغيب دون ذوق لذلك الإيمان الغيبى وشهود له .

(٤) فى الأصل « مكان »

المؤمنون كاللآلىء الرطبة[1] والـكافرون كالحميم الأسود ، فذلك قوله تعالى « فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » وقال يحي بن معاذ « لقنهم بأنه ربهم حتى قالوا بلى . وقيل القدرة أجابت عن القدرة . ويقال أجابوا على حد الفناء[2] كما قال بعضهم فى ذلك :

دونك يفنى وأنت تبقى ‏ ‏ ‏ ‏ يا من به إن فنيت أبقى
لـكننى فى هواه فانى ‏ ‏ ‏ ‏ فلم أزل باقيا مـوقىّ

والآية سبعون حرفا ، لـكل حرف نوع من العلم ، وفيه معاملة العبد مع ربه . من تفـكر فيه عقل المراد منه قال سهل : خاطبهم الحق وهم يعقلون عنه الخطاب . ويفهمون منه المراد ، تثبت على أمثالهم الحجة ، وكان ذلك العقل من وصف قدرته وحجة على من خالفه وعبد غيره ، وقال أبو يزيد شهوتى ومناى أن أقول مرة لا إله إلا الله بغيبوبة أبى يزيد عن أبى يزيد وحضور أبى يزيد مع لا إله إلا الله بقيا[م] أبى يزيد مع [الله] كما جرى له فى الذر مع الله حين أقر ببلى ، فـكان إقراره للرب بالربوبية ، و[ل] لنفس بالعبودية . ثم غاب عن الإقرار وبقى التوحيد مجردا للواحد الفرد . وقيل لما أظهر الله الخلق فى العدم بعدما كانوا موجودين فى علمه قلبهم تسع تقليبات . أخرجهم بالقدرة من الجانبين ثم بثهم فى الهواء ثم عرضهم ثم استنطقهم ، فأقروا فسجدوا فـكتب بينه وبينهم فأشهد عليهم ، ثم رش عليهم [من نوره] ، ثم جمعهم ، وردهم إلى الصلب ، وكانت كلمة الاستقرار[3] ظاهرها للحق.

---

(١) فى الأصل الرطب .

(٢) الفناء اندراج جميع الموجودات فى أصل العلم الذى صدرت عنه ، وبما أن الاسم هو المسمى بالنسبة للذات الأقدس فإن جميع ألوان الوجود هى لاشىء ولا موجود بحق إلا الله . وتوجه طلاب الطريق نحو هذا المشهد والاستفاضة منه بالطرق المقررة فى التصرف ينتج مقام الفناء .

(٣) كلمة الاستقرار أى طلب الإقرار . ومعنى أن ظاهرها للحق وباطنها للخلق . أن الربوبية التى تطلب الإقرار لها لا تتحقق إلا برب وعبد فلا ربوبية

وباطنها للخلق ، وكلمة الإقرار باطنها للحق وظاهرها للخلق لقنهم الجواب بقوله ألست؟ .

وقيل فى معنى قوله تعالى . بلى قال بعضهم هى ثلاثة أحرف ولكل حرف إشارة إلى معنى . فالباء إشارة إلى ألا قوة لأحد فى شىء إلا به ، واللام إشارة إلى أن أوصاف الربوبية لا يستحق أحد[1] من المخلوقين أن يدعيها ، ولا يليق ذلك إلا له وحده لا شريك له فيه ، وذلك مثل العزة ، والغنى ، والمدح ، والثناء ، والقدرة ، والبقاء ، والياء . إشارة إلى يوم الفصل والقضاء ، وتهديد لجميع الخلائق والورى ، ومعنى ذلك . بى أطاعنى المطيعون وعبدنى العابدون ، وذكرنى الذاكرون ، فى الملك والملكوت والجبروت والقدرة والربوبية والبقاء والإلهية ، والخلق والأمر ، والقضاء والحكم ، لا شريك لى فى ذلك ، بى يوم الجمع يجتمع الخلائق ، والمخلوق والمعبود ، والظالم والمظلوم ، والسعيد والشقى ، فآخذ للمظلومين من الظالمين ، وأجازى العابدين ، وأتفضل على السعداء المرحومين ، وأعدل مع الأشقياء المحرومين وأنا الله رب العالمين . فهذا تفسير إشارة واحدة من معانى قوله . بلى .

قال . وسئل أبو العباس الزوزنى . ماتية الفرض ؟ قال إذا ماضمن العبد من المعبود يوم العرض[2] وهى تحقيق معانى قول لا إله إلا الله . وكان [ذلك مخزونا فى] قول العبد : بلى . فمن وفى للحق بقوله . بلى . باللسان

= بدون عبودية ولا عبودية بدون ربوبية فظاهر طلب الإقرار لله تعالى وباطنه طلب العبد من الرب تلقين التوحيد ليوحده بتوحيده تعالى لنفسه وكلمة الإقرار وهى (بلى) باطنها للحق أى إنها صادرة عنه تعالى لينطق بها عبيده حتى تتحقق العبودية والربوبية ولكن ظاهر نطقها كان للخلق وهو الذى أنطقهم سبحانه وتعالى .

(١) فى الأصل . « لا تستحق أحدا »

(٢) أى ضمن العبد بها الفقه والمعرفة الكاملة بكلمة التوحيد . بتعريف الله تعالى إياه يوم الذر ودوام تلك المعرفة فى الدنيا بلزوم مقدماتها من الذكر والفكر والعبادة البدنية حتى يضمن الله للعبد التوحيد يوم عرض الأعمال .

والأركان ، فقد أدى الفريضة جهده ، إن علم معانى حروف بلى . وحروفها ثلاثة . ب . ل . ى .

(ب) يعنى برىء من قال بالطوع . بلى . من الكفر والطغيان ، وبارز العدو بالسر والإعلان ، وبعد بالقلب والنفس واللسان ، عن كل مناهى وفسوق وعصيان .

(ل) يعنى لازم الخدمة والطاعة والسنة والإحسان ولأن عنقه عند العبودية والاستقامة للرحمان ولام نفسه وعلمه وحركته فى كل وقت وأوان .

(ى) يرى بنور الجنان ما من عليه الرحمن من الأفضال والامتنان ويميل بالكل لكل الكل فى كل الأحوال إلى رضى الكل بالكلية بالقلب واللسان ، ويأوى فى جميع الأوقات والحركات إلى باب المستعان للاستعانة وطلب الأمان . وهذه إشارة واحدة من بيان معانى حروف . بلى . وفيها [من] لطائف الحكم ما لا يعلمه إلا الله .

وقال سهل بن عبد الله . إن الذر يوم الميثاق أجابوا رب العالمين بذهن الروح ، وفهم [العقل ، وفطنة] القلب فبذلك وقع عليهم الحجة من الرب . وقال يحيى بن معاذ الرازى : لما أخرج الله الذر من صلب آدم ، أوقفهم فى الهواء وخاطبهم مخاطبة من يعقل ، ويرى مخاطب [ة] الأرواح بأفهام حاضرة وأسماع سامعة ، وأبصار ناظرة إلى لطيف لطائف القدرة ، فسمعوا خطاب الحق ونظروا إلى عظمة الحق ورأوا الجنة والنار وفهموا العهد والميثاق ، فأقروا بالتوحيد للواحد ، وبالطاعة(1) للمعبود الصادق ، فربما وقع على العبد الحزن وهو لايدرى وجهه ، وذلك يكون [ا] تذكير الروح بما أخذ عليه من العهد والميثاق فى الذر ، فحزنه يكون للتقصير ؛ وربما بكى وهو لا يعرف وجه بكائه وذلك يكون بذكره رؤية النار فى الذر فبكاؤه لذلك وربما نظر إلى شيء مستحسن من الحيوانات والموات والخضرة فيستفزه الفرح ، وذلك لما ذكر من رؤية الجنة يوم الذر ، وربما نظر إلى عبد قد

---

(1) الأصل « والطاعة »

أودع الله فيه الإيمان ، وزينه بزينة الإتقان ، فركبه التعظيم والهيبة ، وذلك ذكر روحه لما تقدم له من النظر إلى عظمة الرب يوم الذر ، وربما سمع النغمة الطيبة ويستحليها وتستلذ بها ، وذلك ذكر روحه لما كان يوم الذر من خطاب الحق له فى الذر .

وقال سهل لما كان يوم الذر استخرج الله الأنبياء عليهم السلام من ظهر آدم ثم أخذ عليهم أن يبلغوا عن أمر الله أمره ونهيه ، وأن يصدق بعضهم بعضا ، وينصر بعضهم بعضا ، وذلك هو الميثاق الغليظ الذى قال [فيه] « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » فأقروا بذلك ثم أخذ على جميعهم الميثاق أن يصدقوا بمحمد عليه السلام وينصروه[1] ، فأقروا بذلك . [وذلك] قوله . « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتاكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » ثم استخرج من ظهر كل نبي ذريته وأشهد الأنبياء على ذرياتهم وذلك قوله « وأشهدهم على أنفسهم » يعنى ذرياتهم . وقال الحلاج : التوحيد هو أن تقول : لا إله إلا الله بفناء أوصافك وبقاء أوصاف الحق[2] .

وقال سهل : الذر ثلاث . أول وثان وثالث : فالأول محمد الحبيب صلى الله عليه وسلم . لأن الله تعالى لما أراد أن يخلق محمدا أظهر من نوره نورا وبثه فدار فى المملكة كلها فلما بلغ العظمة سجد فخلق الله من سجدته عمودا من نور كثيف كالزجاجة غلظها كالسموات السبع يرى باطنها من ظاهرها[3] فيه عبد محمد رب العالمين ألف ألف عام بلا جسم ولا رسم بل بطابع الإيمان

---

(١) فى الأصل ينصرونه

(٢) ليس فى هذا القول ما يوهم الحلول . فالمراد أن يلاحظ ذاكر الله أن ذكره لله إنما هو بتلقين الله تعالى للذاكر كما كان فى يوم الذر وملاحظة ذلك دائما ونسيان أن الذكر إنما كان نتيجة البحث والدليل والبرهان بفعل العبد نفسه .

(٣) فى الأصل ظاهرها من باطنها

ومكاشفة الغيب قبل بدو الخلق الذى هو آدم بألف ألف عام [و] خلق آدم من نور محمد ، وجسد محمد من آدم وطين آدم من العمود الذى عبد فيه محمد ربه . والذر الثانى آدم والثالث ذريته . فآدم خلقه من نور محمد وخلق المرادين من نور آدم وخلق المريدين من نور المرادين . وقال الجنيد . إن الله جل ثناؤه لما أظهر الذر ، أوقفهم بوصف السكون ، ثم خاطبهم بمطالبة الإقرار له بالربوبية ، فتحركوا بالإقرار وأجابوا خطاب الجبار ، وكان[ت] المطالبة عامة[1] ، والسماع عاما ، للحجة . والجواب عاما ومعانى الجواب خاصة[2] [ف]منهم من أسرع فى الجواب ، ومنهم من تأخر عن الجواب ، ومنهم من قال بلى مرة ، ومنهم من قال مرتين ، وأقل وأكثر ، ومنهم من لم ينس ذلك فى الأصلاب والأرحام ، وفى الطفولية والكبر ، إلى أن يرجع إلى العزيز الأكبر ، لايزال يقول : بلى . بلى . ألا ترى أن الطفل فى أيام ولادته إذا استنطقوه يقول (ب . ب) يريد قوله القديم . بلى . وفى الحديث . نطفة المؤمن تسبح فى صلب الأب ورحم الأم . قال وعاتب رجل الحسن البصرى على كثرة بكائه ، ودوام حزنه . فقال أبكانى وأحزننى سبعة أحكام قضاها الرب فى الغيب ثم أخفاها عن الخلق فأنا أبكى لذلك . كلمتان ، وقبضتان وخطتان ، ودعوتان ، ووقفتان ، ونظرتان ، وبشارتان[3] . قال : كلمتان لما [قال] للذر ألست بربكم ؟ قالت طائفة بلى وقالت طائفة . بل . لا . ولست أدرى فى أى الطائفتين كنت والقبضتان : حيث قبض الله من صلب آدم [من] صفحة ظهره اليمنى قبضة ثم فرقها فى الجنة ، وقال هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وقبض أخرى من صفحة [ظهره] اليسرى وقال هؤلاء فى النار ولا أبالى . فلا أدرى من أى القبضتين كنت . والخطتان : حين أمر الله القلم أن يخط فى اللوح المحفوظ سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء فكتب القلم

---

(١) فى الأصل عاما .

(٢) فى الأصل خاصة .

(٣) فى الأصل بالياء والنون فى الفقره كلها .

الأسامى والصفات ، فلا أدرى من أى الخطتين كنت والدعوتان : حين ينادى فى [يوم] القيامة أين فلان ابن فلان العاصى للرحمن وأين فلان ابن فلان المطيع للرحمن فلا أدرى فى أى الدعوتين أدعى . والوقفتان حين يوقف طائفة داخل الحجب تحت كنف الرب جل ثناؤه ، وطائفة على رءوس الأشهاد فلا أدرى فى اى الوقفتين أقف . والنظرتان حين يوضع للعبد فى كفتى الميزان عمله فلا يزال مرة ينظر إلى كفة الحسنات ، ومرة إلى كفة السيئات ، فلا أدرى أى كفتى ترجح على الأخرى . والبشارتان : عند فراق الدنيا وكشف الغطا وهجوم ملك الموت . لا أدرى [هل] أكون ممن يقال لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة [أو] ممن يقال لهم يوم القيامة . «لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا» حراما محرما أن يكون لكم من البشارة ما للمؤمنين .

وسئل الجنيد عن توحيد الخاص فقال : التوحيد هو أن يكون العبد مسبحا عن الموحد تجرى عليه تعاريف حكمته ، فى مجارى أحكام قدرته ، فى لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الحول والقوة ، بذهاب حسه وحركته ، بقيام الحق له فيما أراد منه . يعنى أنه رجع إلى العبد [فى][1] أوله ، أى يكون كما كان قبل أن يكون لقوله : ألست بربكم ؟ قالوا بلى إذ كان [ذلك] قبل أن يكون . وهل أجابت إلا الأرواح الطاهرة المقدسة ؟ بإقامة القدرة النافذة والمشيئة السابقة ؟ فيكون العبد كما كان وأيا كان ، ولماذا كان ، وكيف كان . وهذا غايته تحقيق حقيقة توحيد الموحد للواحد [وهو] أن يذهب كما لو لم يكن ، ويتلاشى وتنمحى أوصافه ، وتبقى أوصاف الحق كما لم يزل ، على معنى قوله صرت سمعه وبصره ويده ورجله وقلبه يسمع به ويبصر به ويأخذ به ويعقل به .

الآية الثالثة : قوله جل وعلا « إن الله برىء من المشركين ورسوله » سئل الجنيد عن الموحد فقال من لم يشرك مع الله أحدا فى تدبيره وحكمته ،

---

(١) فى الأصل إلى

وعلمه وأمره ، وقضائه وخلقه ، ورزقه وعطائه ومنعه ، كما قال تعالى تهددا لمن أشرك معه فيما له غيره فقال «إن الله برىء من المشركين ورسوله» يقول من أشرك مع الله فيما لله غير الله فالله ورسوله برئتان منه . وقال صلى الله عليه وسلم « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفاة فى الليلة الظلماء[1] » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أدنى الرياء الشرك ، وإن أحب عباد الله إليه هم الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا ، تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها آمنون . وقال سبحانه وتعالى « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فهذا[2] إيمان فى شرك . وقال بعضهم فى معنى الآية : وهو قول الرجل . لولا كلب فلان لأخذنا اللصوص ولولا حذاقة الملاح وفراهته لغرقنا ولولا فلان لم تقض الحاجة ولولا نشر أحمال الزبل فى هذه الأرض لم ينبت هذا الزرع فهذه الأنواع وما شاكلها هى من الشرك الخفى الذى يخالط قلوب أهل الإيمان .

الآية الرابعة : قوله جل ذكره « الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » قال أبو طالب المكى . أحكمت آياته بالتوحيد ، ثم فصلت بالوعيد للعاصين ، وبالوعد للطيعين ، وليس فى التوحيد تفصيل ولا فى الإشارة عبارة ، ولا فى القدرة ترتيب ، ولا فى الإرادة شريك ، إن الله يفعل ما يريد . ولكن لا بد من[3] التفصيل لبيان العلم : فتوحيده لأهل القلوب والإيمان ، وتفصيله لذوى العقول واللسان . ذلك لأن فى القرآن محكما ومتشابها . فمحكمه لموقنى الموحدين ، ومتشابهه للمحدى الزائغين .

فمن التوحيد المحكم قوله تعالى «قل كل من عند الله» ومن المفصل قوله

---

(١) أحسن ما كتب فى هذا الموضوع «خمرة الحان ورنة الألحان . شرح رسالة سيدى أرسلان » لسيدى عبد الغنى النابلسى . طبع القاهرة

(٢) فى الأصل فهذه .

(٣) فى الأصل لا بد للتفصيل .

« وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . ومن التوحيد [المجرد] قوله تعالى « إن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » ثم قال بالتفصيل « وأضلهم السامرى » . وأيضا من التوحيد المشتبه [قوله] « قل يتوفاكم ملك الموت » وقال أيضا فى تجريد التوحيد « يثبت الله الذين آمنوا [بالقول الثابت] » ثم قال فى تفصيله « فثبتوا الذين آمنوا . . . الآية » .

فأنصبة العارفين توحيده . وأنصبة المنكرين متشابهة . إذ فيه عموم وخصوص . فعمومه لعامة الخلق ، وخصوصه لخاصة العباد . وظاهره لأهل الظاهر من الأحكام والفحوى ، وباطنه لأهل الباطن من أولى السر والنجوى . وقال فى مجرد التوحيد « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وقال فى تفصيله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فالتوحيد ما وصف فيه مبدأه وأضافه إليه والمتشابه من التفصيل ما وصف به الخلق وأضافه إليهم ثم نصب[1] ذلك للواجهين فمن كانت وجهته الحق يشهد منه التوحيد ، ومن كانت وجهته الخلق يشهد منه التفصيل .

وقال جعفر الخلدى : سمعت جنيدا يقول : خرجت من قرية من قرى بنى اسرائيل أريد دخول مكة ، فرأيت شخصا قاعدا تحت شجرة وهو يقول يا أبا القاسم كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهى كفر ، وكل توحيد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو زندقة ، وقال بعضهم : التوحيد هو إضافة كل شىء إلى الأصل ، وإن كان الله فصل ذلك فى الفرع ، ألا تنظر إلى قول أهل الإعراض والغفلة فى الفرع بادعاءما ليس لهم فى دعواه [حق] « أليس لى ملك مصر؟ الآية . . وقال « إنما أوتيته على علم عندى . . الآية . وقال : شغلتنا أموالنا [وأهلونا] ثم لما رجع الفرع إلى الأصل قال الله تعالى . لمن الملك اليوم ؟ فخرست الألسن ولم يجترىء أحد على دعوى الملك فقال الله تعالى « لله الواحد القهار » وقال بعضهم : هب أن الله تعالى أمر الرسول عليه السلام بالدعوة

---

(١) الأصل أنصب

إليه فدعا . لقوله « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة » فمن الذى أسمع أذان الدعوة ؟ وفتح أقفال القلوب ووفق للاستجابة ؟ أليس ذاك الله ؟ واحد فى صنعه . فإنك لا تسمع الموتى [ولا تسمع الصم الدعاء] . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .

وقال أبو طالب المكى رضى الله عنه . إذا نطق الجليل بالتوحيد لم يشرك فى حكمه أحدا ، وإذا نطق بالتفصيل أشرك معه الخلق ذلك تقدير العزيز العليم . وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : لا دليل على الله بالحقيقة غير الله ، ولا داعى إلى الله فى الحقيقة سوى الله ، إن الله سبحانه دلنا بنفسه من نفسه على نفسه . وقال بعضهم : إذا نظرت التفصيل . أثبت الوسائط والرسل وإذا نظرت إلى التوحيد لم تر فى الدارين مع الله أحدا غيره . وقال أبو يزيد . الموحد من لا يرى غير الله ، ولا ينظر إلا إلى الله ، ولا يسمع إلا من الله ، ولا يفهم إلا عن الله ، ولا يجلس إلا مع الله[1] ، ولا ينطق إلا بالله ، ولا يحب إلا فى الله ، ولا يخضع إلا لله ، ولا يشكر إلا عند الله كما قال المتفرد بحاله مع الفرد :

طاب عيش المرء إذ صار بحكم الواحد
واحـــدا بواحد لواحد مع واحد
قلبه ولسانه وعينه للواحد
فهو لا يبصر فى الد ارين غير الواحد

وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى « الر . كتاب أحكمت آياته » يقول الله عز وجل . ا . ل . ر . يعنى إقسامى عند المحبين ، ولطفى بالمؤمنين ، ورحمتى للمذنبين . إن هذا الكتاب هو كتاب أحكمت آياته بالتوحيد والمحبة للخواص من المقربين . ثم فصلت آياته بالوعيد والوعد للعوام من المؤمنين .

الخامسة قوله . « ومن كل شىء خلقنا زوجين » قبل الزوجان من جميع

---

(١) الجلوس مع الله يراد به فى لغة القوم الاشتغال بذكر الله وشهوده فى كل عمل فى الخلوة والجلوة .

الحيوان الذكر والأنثى . وقيل الزوجان اختلاف ألوان النبات وطعوم الثمار ، كالحلو والحامض ، والجيد والردىء ، ليعتبر المتفكر فى الأزواج ، فيعلم أن الربوبية والوحدانية لا تصلح إلا لمن خلق هذه الأزواج . ولا تجوز العبودية والطاعة إلا للواحد الفرد الأحد الصمد . وليعلم الموحد أن خالق الزوجين لا يتغير كتغير هذه الأزواج . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تستوحشون من ذلك ، فتفرون إلى الواحد الذى لا وحشة فى قربه ولا مخالفة فى وعده ، ولا نقض لعهده ، ولا خسران فى طاعته ، ولا ندم فى صحبته ، فإن إدراك رضا معبود واحد أيسر وأسهل من إدراك رضا العدد الكثير من المعبودين . وقال ذو النون المصرى . الأنس بالله نور ساطع ، والأنس بالمخلوقين غم واقع .

قال ودخل رجل من الفقراء مسجد الشبلى فقال يا أبا بكر . إن حالى أضيق من السمسمين ، وورائى مطالبة العيال ، وأنا بهذا الحال ، فانظر فى أمرى . فقال الشبلى قد نظرنا . مر فاعمل عند الله حتى يسلفك[1] لما تعمل [قال] . فأى عمل ؟ قال الفلاحة . قال هذا عمل لا أهتدى إليه . قال . مر . فاحرث موضع محرابك ، وابذر فيها بذر معرفتك ، فى أرض توبتك ، ثم أنعم دق مدر حرثك بمدقة الإخلاص ، وأخف بذرك تحت دق المهراس[2] . ثم خط فى أرضك خطوط الزهد والقناعة ، والخوف والرجاء والحزن والحياد ، ثم شد مخارج الماء بالصبر والرضا ، ثم اسقه ماء اليقين ، ثم نظف بأيدى المحاسبة ، ثم احصد بمناجل الشوق والوله ، ثم اطرحه فى بيدر الورع والمطالبة ، ثم دسه بأرجل العزلة والخلوة ، ثم كنسه مقابلا لرياح العناية ، ثم اجمع أطرافه بمجامع التوكل ، ثم ذريه بمذرى المشاهدة ثم اعزل بين خلطه وخالصه ، ثم اطحنه بطاحونة المراقبة والحياء ، ثم اعجنه فى نقير الصدق والصفاء . ثم اخبزه بنار المحبة والهيبة ، فإذا أكلت

(١) السلف نوع من البيوع يعجل فيه الثمن وتضبط السلعة بالوصف .
(٢) المهراس حجر منقور يدق فيه ويتوضأ منه .

من هذا الكسب حبة ذهب عنك ألم الجوع والعطش وخوف الفقر وأبغضت[١] المداهنة والرياء والنفاق ، فيصير جسدك لطيفة وروحك روحانية خفيفة ، تطير فى هواء الملكوت ، وتسرح فى ميادين الجبروت ، ثم قال للفقير قم يامسكين فاعمل فى هذا بجهدك ، فإن فيه نجاتك وعزك .

وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » كيلا تشتغلوا بالأزواج وليكون[٢] شغلكم بمزوج الأزواج ، فإن الاشتغال بالأزواج هو الضلال البعيد ، والانقطاع عن مزوج الأزواج هو الخسران المبين . وقال أبو يزيد البسطامى . إن لله تعالى خواصا من عباده ، هبت عليهم رياح العناية . فتجردت هممهم وأسرارهم ، فهم بالوحدانية مطالبون . وبتجريد التوحيد مرادون ، توحشهم الأزواج وتكدرهم ولائج الأغيار ، ويؤنسهم البار ، لا يحتملون غنج[٣] مخلوق ، ويؤلمهم مسقط [ال]ذباب لما فى أسرارهم من غليان نار التوحيد ، لايخافون إلا من واحد ، ولا يعملون إلا للواحد ، ولا يشيرون إلا إلى واحد ، فهم وحش الله فى أرضه وغرباؤه من بين جميع خلقه ، ولا قرار لهم ولا فرار وأنشد لبعضهم :

ووحشى الطبيعة مستهام نفور القلب تأباه الديار
خيالىّ التألف[٤] ذو انفراد غريب الله مأواه القفار

وقال أبو يزيد البسطامى : لم أزل أرجو فى الملك والملكوت ، أربعين سنة أطلب الواحد . لا يقر بى القرار ولا يخمد فى لهب النار . فما رأيت إلا أزواجا وأشباها ، وأضدادا وقواطع ، فناديت على حد طرف الفنا . واغوثاه . هذا الفانى المقصود فأين الواحد المعبود ؟ فهتف بى هاتف منى فىّ . يا أبا يزيد هل تجد فى ملكنا وملكوتنا مكانا يصلح لنا نسكن فيه ؟

---

(١) فى الأصل « وبعض »
(٢) فى الأصل « ولكن »
(٣) أى تدلل مخلوق .
(٤) فى الأصل « ذى »

ها نحن معك فأنت مع من ؟ وها نحن عندك فأنت عند من ؟ وها نحن لك فأنت لمن ؟ فقلت : سبحان الله الملك . قد نزل فى الدار فأين أنت ياغدار؟ فما تسأل عن حالك من كان تحرقه النار . وهو بعيد من النار وكيف وقد صار معدن النار . فأين المخلص وأين الفرار ؟ وأين الراحة وأين القرار ؟ فما مثلى إلا كما قال العامل .

أخذت ناراً بيدى أشعلتها فى كبدى
إلى من أشكو سيدى قتلت نفسى بيدى
يا حاضرى يا ناظرى ارحم فقد أحرقتنى

يا أخى إن كنت تطلب الواحد . فاهجر مادون الواحد ، كى تحصل لك محبة الواحد .

وقال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه فى قوله عز وجل « ومن كل شىء خلقنا زوجين » قال لينظر الموحد إلى الأشياء بعين الاعتبار فيراها أزواجا فيفر منها ، ويرجع إلى الواحد الأحد ليصح له التوحيد بذلك . وقال أبو عثمان المغربى . الشيطان يدعوك إلى الأمنية وهو لك عدو مضل مبين ، والنفس تدعوك إلى الشهوات واللذات « إن النفس لأمارة بالسوء » والخلق . يدعو[ن]ك إلى المعاصى والمخالفات « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟ » وأهلك وولدك يدعونك إلى جميع المال وإنفاق العمل فى طلب مهماتهم « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » وكان من دعاء النبى عليه السلام ، اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأهلك . ولا تكلنى إلى مخلوق فأضيع . اكلأنى كلاءة[1] الوالدة الشفيقة [ب]ولدها ، فهذه حقيقة الفرار إلى الله عز وجل ، وهذا فرار الرسول صلى الله عليه وسلم مما سوى الله . ثم فر بعد هذا من الله إلى الله فذلك قوله عليه السلام « أعوذ بك منك » .

---

(١) فى الأصل « كلنى كلاية »

وقال بعض أهل المعرفة . جلست إلى أبى الحسن الأطروش [و] كان من أجلة المشايخ فقلت له ، أوصنى بوصية أحفظ[ها] عنك . قال : على أن تقبل منى ؟ قال : نعم إن شاء الله تعالى . فقال : فر من الله . فقلت ياسبحان الله . ما هكذا[١] سمعت الله يقول . إنما قال « ففروا إلى الله » وكل الناس أمروا بالفرار إلى الله وأنت تقول فر من الله فما المعنى فيه ؟ قال . لا تدع[٢] مع الله دعوى يطالبك بحقيقة ما أشرت إليه [فيها] فيفضحك عن لسان نفسك . فقلت له فما تأمرنى أن أعمل ؟ . قال . ابسط بساط الضعف والعجز والفاقة والفقر وتبصبص حوله وانتظر أمره . وقال عبيد الله الجيلى . أفقر ما يكون العبد إلى الله إذا كان مع الله والآن أكون هاهنا وأنا ثم[٣] . أحب إلى من أن أكون ثم وأنا هاهنا[٤] .

وقال بعضهم . فى معنى قوله «ففروا إلى الله[٥]» أى لا تشتغلوا بسياسة أنفسكم فإن مؤنتها عظيمة ولا تتفرغو الطلب رضا الخلق فإن رضاهم غاية لا تدرك . ولكن فروا إلى الله ليكون وليكم ، ويتولى سياستكم . قال سهل بن عبدالله رضى الله عنه فى معنى الآية ففروا مما لغيرنا إلى مالنا ، فروا من المعصية إلى الطاعة ، وفروا من مقام الجهل إلى مقام العلم ، فروا من

---

(١) فى الأصل يا هكذا .

(٢) فى الأصل تدعى .

(٣) أى مع الله .

(٤) الفرق بين الحالتين هو الفرق بين الكينونة والأنا فالكينونة بالفكر والروح والأنا بالجسم ومطالبة المادية . فيصير المعنى لأن أكون بالفكر والروح فى الحياة الدنيا مع الله وكل مطالبى المادية والجسمية هناك عند الله تعالى تحقيقاً للفقر إلى الله . أفضل من أن أكون بعقلى وروحى مع الله : وأنا مثبت ها هنا بمطالبى المادية أفكر فيها بنفسى وأرجوها من ربى فالحالة الأولى فرار من الله والحالة الثانية فرار إلى الله .

(٥) هذه هى الآية السادسة .

مجالس الغفلة إلى مجالس الذكر . فروا من مجالسة المخلطين إلى مجالسة المخلصين . وفروا من محبة الدنيا إلى محبة المولى ، وفروا من رؤية التدبير إلى رؤية التقدير ، وفروا من عذاب الله إلى رحمة الله ؟ ومن سخط الله إلى رضا الله ، فهذا ما وصل إلينا من معانى الآيات السبع[١] الواردة فى تجريد التوحيد والله المعين وهو الموفق .

وقال الشبلى رضى الله عنه . افتخر آدم بالخلقة وافتخر إبليس بالجوهرة وافتخر بلعام بالعلم ، وافتخر قابيل بالنسب ، وافتخر قارون بالمال ، وافتخر فرعون بالملك والأنهار وافتخر موسى بالذكر والتسبيح ، وافتخرت الملائكة بالجهد[٢] والعلم ، فلم ينفعهم ذلك . ولم تعصم إبليس جوهرته من اللعنة والطرد ، وآدم لم يعصمه تصوير الله إياه بيده ، ونفخ الروح فيه من المخالفة [والمعصية] وبلعام[٣] لم يعصمه علمه بالاسم الأعظم من الطرد والبعد ، وقابيل لم تعصمه نسبته إلى أبيه آدم من الهلاك والنقمة ، وفرعون لم تعصمه مملكته وجنده من الغرق والدمار ، وقارون لم يخلصه كنزه من الخسف حين حل به الغضب ، وكذلك الملائكة وموسى . وافتخر نبينا صلى الله عليه وسلم بالله وحده ، وقال أنا سيد ولد آدم ولا فخر . يقول لا فخر لى بالسيادة على الخلق بل فخرى بمن سيدنى[٤] فقال الله جل ثناؤه ناصحا لهذه الأمة « احذروا أن تشتغلوا برؤية الأعمال والعلوم والأنساب والملك وصفاء الأحوال فتهلكوا . ولكن فروا إلى الله وحده ، حتى يكون وليكم وحافظكم ، وموضع شكواكم .

---

(١) لم يذكر إلا ست آيات فقط وكان قد وعد بسبع فى أول الباب . ولم ينبه على الآية السادسة وقد اعتبرناها قوله تعالى . ففروا إلى الله .

(٢) فى الأصل « بتصوير » .

(٣) بلعام بن باعوراء أحد علماء بنى اسرائيل .

(٤) فى الأصل سودنى .

وقال أبو جعفر النيسابورى[١] . واعجباه . كل من خاف من شيء أمر بالفرار منه ، وأنا أخاف منه وقد أمرنى بطلبه . وقال أبو طالب المكى قرأت فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » .

وقال أبو طالب ظاهر التوحيد هو توحيد الله فى كل شيء . وتوحيده بكل شيء ، ومشاهدة إيجاده قبل كل شيء ، ولا نهاية لعلم التوحيد ، ولا غاية لعطاء مزيد الموحدين ، ولكن لهم نهايات يقفون تحتها ، وغايات يصدرون عنها . وقال أبو طالب . لا يصل العبد إلى مشاهدة علم التوحيد إلا بعلم المعرفة ، وهو نور اليقين ، ولا يعطى نور اليقين ، حتى تمخض الجوارح كما يمخض الزق[٢] باللبن حتى تظهر الزبدة وهذه مثل علوم القلب فينقل العبد إلى أعمال القلوب إذا ظهرت الزبدة وهى علم اليقين وليست هذه الزبدة غاية الطالبين ، لأن وراءها صفوها وخالصها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الله جل ثناؤه خلق الخلق ثم رش عليهم من نوره فما أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأ[ه] ضل فلذلك اقول جف القلم على علم الله وقيل إن الله عز وجل لما خلق النور خلق من النور الظلمة ثم خلق الظلمة . وخلق من الظلمة النور ، ثم أخرج من النور نوراً فصار نور النور ، ثم أخرج من الظلمة ظلمة فصار[ت] ظلمة الظلمة ، ولكل طائفة من خلق الله نصيب من النور والظلمة . وذكر فى الأثر خمس كلمات هن أصول لجميع أحوال الصادقين والصالحين . كفى

---

(١) هذه العبارة كررت مرة ثانية بعد قوله « إنى لكم منه نذير مبين » ولذلك حذفنا التكرار .

(٢) الزق وعاء من جلد يمخض فيه اللبن . واللبن الممخوض والمخيض هو الذى أخذ زبده . والمحض بالحاء المهملة هو اللبن الخالص الذى لم يخالطه الماء حلوا كان أو حامضا .

بالتوحيد عبادة ، وكفى بالموت واعظا ، وكفى بالعبادة شغلا ، وكفى باليقين غنى ، وكفى بالحكمة كنزا ، وكفى بالخشية علما .

أم هانىء رضى الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أحدثك بحديث ؟ قلت : بلى . يا رسول الله . قال إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس فى صعيد واحد ثم ينادى مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيقومون فيقول إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الجزاء ، فيتعافون ويدخلون الجنة وتبقى طائفة من الناس متلازمين فينادى مرة أخرى . مالكم واقفين[1] ؟ فيقولون حرام علينا أن نرجع إلى غيرك وأن نشتغل عنك إلى سواك ، فيقول الله تعالى . صدقتم أنا الموحد وأنتم الموحدون أنتم لى وأنا لكم . وسئل النبى صلى الله عليه وسلم . بماذا عرفت ربك ؟ قال حاش لله أن أعرفه بشىء ولكن عرفت الأشياء كلها بالله . فأنا أعرفكم بالله وأشدكم خوفا من الله . وقال جعفر الصادق : الموحد من طالع الحق بنور التوحيد لا يكون للمخلوقين فيه خطر . . يعنى فى قلبه خطر .

وقال بعضهم الموحد[2] الذى رش عليه من نور القبضة يوم الذر عند القسمة . وقيل لذى النون بماذا عرفت الرب ؟ قال ربى أجل من أن يعرف بشىء لكنى عرفت ربى بربى وعرفت مادون ربى بربى[3] قيل فما

(١) فى الأصل « واقفون » .

(٢) فى الأصل « التوحيد » .

(٣) هذا هو السلوك الصعودى فى الفقرة الأولى من الجواب « عرفت ربى بربى . لم أحاول أن أعرفه بنفسى . ولكنى استلمت له حتى عرفنى نفسه سبحانه » والفقرة الثانية « عرفت مادون ربى بربى » هى السلوك النزولى . فلما عرف ربه بربه . استصحب تلك المعرفة حين هبط من علياء المعرفة إلى العوالم المتفرقة فى الخلق فأثبت وجودها بوجود الله . وبمقدار ما يصل إليه السالك من علو فى الصعود أو عمق فى النزول تكون درجة معرفته .

العقل ؟ قال العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ، وهو آلة أعطيت لإقامة العبودية ، لا للاستدلال [على] الربوبية[1] . ألا ترى إلى ما حكى في الأثر أن الله لما خلق العقل قال له . من أنا ؟ قال لا أدرى . فكحله الجبار بنور الوحدانية فقال أنت الله لا إله إلا أنت . فلم يكن للعقل أن يعرف الله بغير الله فكيف أعرفه بالعقل .

وقال بندار ابن الحسين . من طلب أربعة أشياء قبل أربعة أشياء يهلك في الهالكين من يطلب مطالعة التوحيد قبل خمور البشرية يهلك ، ومن طلب الرياسة قبل السياسة يهلك ومن يطلب حقيقة التوحيد قبل الإشراف على الأسرار يهلك ومن ينبسط قبل الإذن يهلك[2]

وقال ذوالنون المصرى من أراد أن يستمع تجريد التوحيد فعليه بالنساء الزمنى . ومن أراد أن يتعلم الطرف فعليه بسقاة الماء ببغداد قيل وكيف

---

(١) ولا لتدبير الرزق . راجع لابن عطاء الله الكندرى . كتاب « التنوير فى إسقاط التدبير » طبع القاهرة .

(٢) أى يحاول التوحيد مع رعونة البشرية من الكبر والرياسة والحرص وغير ذلك من آفات العلم . وطلب الرئاسة قبل السياسة أى طلب التصدر للإرشاد قبل العلم بسياسة النفوس وبدسائسها الخفية . وطلب حقيقة التوحيد أى طلب مشاهدة فناء الموجودات مع الله قبل الاستشراف على مشاهدة أسرار الله الخفية فى عالم الخلق . والانبساط هو الاستسلام لحالة البسط التى يحسها المريدون فى سلوكهم والبسط ضد القبض ولا يصح الاستسلام لهذه الحالة فى السلوك بل يجب علاجها بلزوم ضدها وهو القبض حتى يسلم المريد من الانحراف عن الطريق . والإذن بالبسط معناه استعداد السالك للزوم الأدب فى هذا الحال الذى زل فيه الكثير من طلاب الطريق لأنه يؤدى إلى الإدلال والإدلال يؤدى إلى سوء الأدب مع الخالق .

النساء الزمنى . ذوات الأمراض المزمنة واحده زمنة .

الطرف جمع طرفة وهو الجديد الذى يتحف به الإخوان بعضهم بعضا والمراد طرف العلم .

ذلك ؟ قال لما حملت إلى بغداد طرح بى على باب الطاق مقيدا فمر بى رجل متزر بمنديل كوفى بيده كيزان خزف رقاق . زجاج مخرمط فسألت من هذا ؟ قالوا ساقى السلطان ، فأومأت إليه أن أسقنى فتقدم منى ، فسقانى فشممت من الكيزان رائحة المسك فقلت لمن معى . ادفع إليه دينارا فأعطاه فأبى وقال لست آخذ شيئا . قيل لم ؟ قال أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك ولكن الواجب أن أعطيك ، فسمعت ورائى صوتا فالتفت فإذا امرأة زمنة يتصدق عليها ، فقالت لى ، إذا دخلت على هذا الرجل فلا تعبأ ولا تهبه[1] ولا تر أنه قد[ا]مك أو يقدر عليك فإنكما مخلوقان من نطفة واحدة ، ولا تحتج عن نفسك محقا أو متهما ، قلت ولم ؟ [قالت] إن هبته سلط عليك وإن احتججت عن نفسك كنت كما قيل فيك ، ولم يزد[ك] ذلك إلا وبالا ، وإن كنت بريئا مما قلت فادع الله ينصرك و[إن]تنتصر[2] أنت لنفسك يكلك إلى نفسك . فدخلت عليه . فسلمت عليه بالخلافة . فقال ما تقول فيما قيل فيك ؟ فسكت فقال لم لا تتكلم؟قلت يا أمير المؤمنين إن قلت : لا . كذبت المسلمين ، وإن قلت : نعم ، كذبت على نفسى ، فقال هذا رجل برىء مما قيل فيه . ثم قال فى آخر القصة عظنى قلت نعم يا أمير المؤمنين رجل يعلم أن الله خلقه وخلق الجنة من أجله إن أطاعه ، وخلق النار من أجله إن عصاه ، لا يكون على مثل مارميت من البدعة ، ولا على مثل ما كنت من الغفلة . فبكى وخلى عنى فخرجت إلى العجوز وقلت لها : إنى امتثلت ما قلت فمن أين لك هذا الكلام قالت من حيث الهدهد حين قال لسليمان « أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبإ بنبإ يقين » .

وقال أبو يزيد . اختلاف العلماء رحمة فى جميع العلوم إلا فى تجريد التوحيد ، فإن الاختلاف فيه زندقة وتلحيد ، اجتمع أقوال العلماء الربانيين والحكماء الراسخين أن ليس كهو شىء فمن قال غير ذلك فهو كافر . [و]العلى

---

(١) الأصل تهابه .

(٢) فى الأصل « تقصير أنت لنفسك فيكلك » .

ابن أبى طالب. من قال قولا غير ذا فقد ظلم وجار فى الحكم وبئس ما حكم. وقال أبو يزيد. عرفت الله بالله، وعرفت ما لله بالله، وعرفت مادون الله بنور الله، وقال أيضا. إن طلبت التوحيد طالبنى بنسيان نفسى، وإن طلبت محبته طالبنى بعداوة نفسى، وإن طلبت رضاه طالبنى بمخالفة نفسى. يقول الله. انس نفسك حتى تصل إلى توحيدى، وعاد نفسك حتى تصح لك محبتى، وخالف هواك فإن [فى] مخالفته[1] رضائى. فنار التوحيد تحرق الخطرات، ونار الخوف تحرق الشهوات، ونار المحبة تحرق المخالفات.

وسئل المزين الترمذى عن التوحيد فقال توحيد الله — فى المعرفه فلا تعرف مع[ه] غيره، وتوحيده فى العبادة فلا تعبد معه غيره، وتوحيده بالرجوع إليه فى كل مالك و[ما] عليك فلا تسأل أحد غيره، ولا تشكو إلى سواه ولا تحب إلا إياه، وتعلم [أن] أوصافه [م]باينة لأوصاف الخلق، باينهم بصفاته قديما كما باينوه بصفاتهم حديثا، فهذا هو التوحيد وما سواه فتلحيد، لا توحيد.

قال وأمر جعفر بضرب غلام له فلما مد يده للضرب قال الغلام تضرب من ليس شفيع غيرك فأين كرمك وإحسانك فخلى عنه. فقال الغلام. ما كنت خليت عنى، لكن خلى عنى من أجرى الكلمة على لسانى. فقال جعفر موحد ورب الكعبة لا يرى مع الله غير الله. وقال الحسين بن منصور الحلاج: التوحيد هو أن تفتقد نفسك بوجود ربك ثم تغيب عن وجودك بفناء رؤية وجودك فيبقى الرب كما كان قبل كونك، وترجع أنت إلى ما كنت [عليه] قبل كونك. ثم قال حجبوا بالاسم فعاشوا ولو برز[ت] لهم علوم

---

(١) فى الأصل: مخالفتها.

عند هذه العبارة على هامش الأصل توجد العبارة الآتية «قال سمعته شيخى. شرقى غربى إن غبت بدا وإن بدا غيبنى.

القدرة لطاشوا ولو كشف لهم[١] عن الحقيقة لماتوا[٢] . فيا من قد سكر من رائحة الكأس ، كيف بك لو رأيتها ، ويا من سكر من رؤية الكأس ، كيف بك لو ذقتها ، ويا من سكر من ذوق الكأس ، كيف بك لو شربتها ويا من سكر من شرب الكأس كيف بك لو ثملت منها . من لم يتحقق بالتوحيد سجد بالذل للعبيد . كما جاء فى الخبر أن رجلا يدخل الجنة فتستقبله قهرمانة فى سبعين قهرمان تحت كل قهرمان سبعون ألف قهرمان بهم من الحسن والجمال ما يعجز الواصف عن وصفه فيهم العبد بالسجود فيقال مالك؟ فيقول ظننت أنه إلهى فيقول ليس هو بالملك ولكنه قهرمان من قهرمانه . وبضد هذا ما جاء فى وصف الموحد العارف من جملة الخبر أن الله عز وجل يتجلى لهم فى غير صفته[٣] فيقولون حاشا لربنا أن يكون بهذه الصفة .

وقريب من هذا الخبر ماروى أن الله جل ثناؤه إذا أقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بعث إلى أوليائه من أهل الجنة أن زورونى فيأتيهم الملك فيناديهم : يا أولياء الرحمن . إن السلام يقرىء عليكم السلام . ويأمركم أن تزوروه . فيركبون بأجمعهم وينطلقون إلى الله ثم ينزلون فى ظل العرش فيقول الله تعالى مرحباً بأوليائى وأحبائى وزوّارى . ويكشف لهم عن وجهه الكريم فينظرون بنوره إلى نوره . ثم يؤمرون بالرجوع إلى منازلهم ، فترجع طائفة وتبقى طائفة فإذا [مناد] ينادى من قبل الجبار . مالكم واقفون ؟ فيقولون حرام علينا أن نرجع إلى غيره أو نشغل عنه بسواه . فيقول الله تعالى : صدقتم أنا الموحد وأنتم الموحدون ، أهل الجنة

---

(١) فى الأصل عليهم .

(٢) والحقيقة التى تميت مشاهدها : هى عودة الوجود المستعار فى الإنسان إلى الوجود الذاتى الحق وحينئذ فلا وجود غير وجوده تعالى . والكل فناء محض . وعلى هذا يكون تأويل كل لفظ من هذا القبيل يرد على لسان كثير من الصوفية من الذائقين .

(١) فى الأصل صفة .

بالجنة يتنعمون وبكم تتنعم الجنة فكيف من الله ترجعون فهنيئا لكم[١].
فهؤلاء الذين وحدوا الله فلم يستقر فى قلوبهم تعظيم أحد غير الله.

قال الحلاج. من أسكرته أنوار التوحيد، حجبته عن عبادة التجريد، [و] قيل إن أسكرته أنوار التجريد نطق عن حقائق التوحيد. لأن السكران هو الذى ينبىء عن كل مكتوم. وقال الشبلى من اطلع على ذرة من التوحيد ضعف عن حمل بقة لثقل ما حمل. وقال الفضيل بن عياض. يقول الله جل وعز فى بعض كتبه ماوحدنى من خاف من غيرى، وما علم من لم يَخْشَ. وما عبدنى من لم يرض بقضائى وحكمى، وما أحبنى من استأنس بسواى. عبدى أقبل على أعلمك من غير طلب وأرزقك من غير تعب، تورع تعرفنى، تجوع ترانى، وتصل إلى اعمل بطاعتى ألبسك مهابتى. أقبل على أملأ قلبك غنى بى وأسد فقرك. وقال الشبلى. من اطلع على ذرة من علم التوحيد. حمل السموات والأرضين على شعرة من جفن عينيه، وهذا القول بضد من قوله الأول.

ويقال إن رجلا من تلامذة ذى النون المصرى دخل مسجد أبى يزيد البسطامى فقال له أبو يزيد من تطلب؟ قال أبا يزيد، فقال أبو يزيد. أن أبا يزيد يطلب أبايزيد منذ أربعين سنة لعله يجده. إن أبا يزيد مذشم روائح التوحيد لم يرجع إلى العبيد. فأخبر بذلك ذا النون فقال. رحم الله أبايزيد فقد نفسه فصار يطلبها مع الطالبين[٢]. وقال الشبلى. الدنيا للأغنياء والجوع

---

(١) هذا الخبر اسرائيلى الوضع لما فيه من محاولة التجسيد. وإن كان ذا دلالة قيمة على منزلة الموحدين. ومحاولة التجسيد فيه. ما يظهر فى أثنائه من ركوب المؤمنين إلى ربهم كأنهم يسافرون لزيارة عظيم من العظماء ومثل هذه الأخبار كانت أساسا لبعض الحركات الحنبلية المتأخرة فى مسألة الاستواء والنزول وغيرهما وقد اتخذ بعض أعداء الإسلام مثل هذه الأخبار ذريعة لإدخال عقائد غريبة بيننا. لازال خطرها يستشرى يوما بعد يوم.

(٢) فى الأصل يطلبه

للفقراء ، والعقبى للأجراء ، والبلاء لأهل المحبة والصفاء ، والنار للأباق[1] من أولى العصيان والأشقياء ، والجنة للمتقين أهل الإحسان والوفاء . والتوحيد لمن قد فى تحت هيبة اطلاع الموّحد من أرباب المشاهدة والحرمة والحياء .

وقال الشبلى ، لايخلو الخلق من تعبين . تعب طرب وتعب نصب . بحلم فتعب الطرب للموحدين ، وتعب النصب للمخلصين[2] فالموحد لايزال فى شغل من ربه كلما [3] نقله من مقام أطلعه على مقام هو أعلى منه ليكون أبدا فى تعب طرب لا تعب نصب ، كان المصطفى صلى الله عليه وسلم كلما نقله الحق إلى درجة فهو أعلى مما كان فيه . استغفر فيه فقال إنه ليغان على قلبى فانى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة .

وقال الجنيد للموحد وقتان لا ثالث لهما سكر وصحو فالسكر ملاحظة الحق على دوام الوقت والصحو الغناء عن الحق بالحق وقال ابن مطرق الموحد يستوحش من الوجد والسماع ويكون فانيا أبدا ، وقيل لأبى يزيد البسطامى إنك لا تخالطنا ولاتجالس معنا فقال مالى معكم عيش ولا لكم فى عيش كيف أعيش معكم ؟ وأنتم تقولون انطق وأنا أقول اسكت . وانتم تقولون أبصر وأنا اقول عم . وأنتم تقولون . اقعد وأنا أقول قم ، وأنتم تقولون اذهب وأنا أقول ارجع ، وأنتم تقولون خذ وأنا أقول ادفع ، وأنتم تقولون مالك لا تضحك وأنا أقول مالك لا تبكى ، وأنتم تقولون تداو تعش وأنا أقول « دار وكن تا بميرى » [4]

---

(١) العبد الآبق الهارب من خدمة سيده والجمع أباق مثل كاتب وكتاب .

(٢) فى الأصل كما

(٣) تعب الطرب هو مايصحب التعب فى العبودية من لذة المشاهدة لتجليات الأسماء والصفات الإلهية فى المملكة الربانية ، فينسى المشاهد كل متاعبه . وتعب النصب هو تعب العبودية مع تعب المجاهدة للأهواء والخواطر النفسية . والمعنى الذى ذكره المؤلف وجه آخر من المعنى .

(٤) عبارة فارسيه معناها « عالج نفسك لتموت » والمراد أنه يجب على طالب

وأنتم تقولون اطلب وأنا أقول اهرب فلكم حالكم ولى حالى ولكم دينكم ولى دين تريد منكم التخليط وتريد منى التوحيد فمتى طاب عين الموحد مع المخلط ، دعنا نعيش مع الله ساعة .

وقال البسطامى لو أن الله زين الجنة بسبعين ألف ألف ضعف من ألوان القصور والخيام والأنهار والأشجار ثم خلونى فيها وحيدا ثم كان فى جسدى نشوها ما ادعيت توحيده ، ولو أن الجحيم جعلها فى العظم أضعاف ما جعلها سبعين ألف ألف ضعف ثم حبسنى فيها مخلدا ثم كان على جسدى يمرق تألم بها ما ادعيت قط معرفته .

وقال الثورى : مقامات التوحيد أربعة أحوال . حال فناء العبد عن العبد . وحال الفناء عن الفناء ، وحال فناء الفناء (٦) . [وحال البقاء بالله] ، كما قال الله تعالى

= الحق أن يأخذ نفسه بالرياضة والعلاج لتموت نزواتها ونزعاتها الشيطانية حتى تصفو له المعرفة . وقد انتزع بعض العلماء هذا المعنى من قوله تعالى . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور قالوا : إن الصلاة على الإنسان لا تجوز إلا بعد موته ولا تحجير على الفضل الإلهى أن تكون صلاته سبحانه على المؤمنين بعد الموت بمعنى مفارقة الروح للجسد وللجمع بين شرط الموت لصلاة الله والملائكة على العباد وبين عدم التحجير على فضل الله قالوا إن الصلاة من الله والملائكة على العباد لا تجوز إلا بعد موت النفس ومفارقة نزواتها وشهواتها، لأن النفس فى هذه الحالة تكون مستعدة لتلقى الرحمات الإلهية والفيض العرفانى ، لتناسب ذبذباتها مع ذبذبات عالم الروح . لذا ورد فى الأثر « موتوا قبل أن تموتوا » وما أحكام الشريعة إلا وسائل تصل بالعبد إلى تلك الحال .

(٦) الفناء ألا يرى المريد موجودا غيرا الله . والفناء عن الفناء . أن ينسى المريد أنه فنى عن الموجودات بوجود ربه فتمحى كل اعتبارات الوجود المادى وفناء الفناء . هو المقام فى ذوق مشاهدة الحالة السابقة مع زوال صفة الفناء عن الطالب أى يصير هذا المشهد لديه ملكة لا تحتاج إلى سلم الفناء ثم الفناء عن الفناء بل يعيش فيها دون تدرج . وهى حال البقاء بالله .

فماذا بعد الحق إلا الضلال وقال الثورى . مازال الحق يسقينى حتى سكرت، فلما سكرت قال لى: اعرفنى. قلت . كيف أعرفك وأنا سكران؟ وقال بعضهم: من لم يعرف حاضره كيف يعرف وارده . ومن لم يعرف واردة كيف يعرف مورده ، وقيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين قال كيف يصبح من هو فى معرفة الله حيران ، وفى محبة الله ولهان . وقد علم أن معه أعوان ، وخطاياه مكتوبة فى الديوان ، وإن لم يرض المولى كبكب على وجهه فى النيران [1] . وقال الخلدى: سمعت جنيدا يقول . خرجت من قرية من قرى بنى اسرائيل فرأيت شخصا قاعدا تحت شجرة وهو يقول . يا أبا القاسم . كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهو كفر وكل توحيد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو زندقة .

ومر الشبلى فى سوق بغداد فقال ياأهل بغداد . [هل] فيكم من يقول الله ؟ فقام شاب من أصحاب الحديث بيده محبرة فقال: ياأبا بكر أليس كلنا يقول الله ؟ فقال الشبلى: ويحكم. أنتم تقولون الله نفسا بنفس ورسما برسم، وأنا أقول : الله حقا بحق وأنتم تقولون الله ثم ترجعون إلى معلوماتكم وما لوفاتكم ، وأنا أقول : الله . بذهاب بالدنيا والآخرة . ويحكم وهل تحبون أن أظهر لكم علما من حقائق علوم الله ؟ قالوا: نعم. قال أحضروا طبقا أكتب عليه الله ، وقدحا أقرأ عليه الله . ورجلا أشير إليه بالله فأحضروا ما أراد فكتب على الطبق الله . فانشق الطبق نصفين ، وقرأ على القدح الله فتقطع القدح وطار . وأشار إلى الرجل فاشتعل رأسه نارا والرجل يصيح فقال الشبلى: يانار كونى بردا وسلاما فليس هذا من رجالك فخمدت النار [2] .

---

(١) ليست هذه لغة الإمام ولا منهجه ، ولعله من نقول المكى عن الشيعة ببغداد بعد رحيله إليها .

(٢) هذا الحادث يعد عند علماء التصوف من باب الكرامة التى تؤيد الولى فى دعوته إلى الله على السنن المحمدى . وكل ماجاز أن يكون معجزة لنبى جاز أن=

وقال الشبلي إلهي أنت أنت لا يعلم أحد كيف أنت إلا أنت الناس كلهم يريدون أنت ولكن لا يعلمون من تريد أنت ، إلهي كنت أتمنى معرفتك فلما عرفتك وقع اسمي في ديوانك ولا يمكنني الهرب فلا أستطيع المكث مع الله وليتني لم أعرفك فأنا كما قال القائل[1] :

تمنيت نارا أستضيء بضوئها فلما أضاءت أحرقتني شعاعها

وقال الشبلي . ويلك يامدعي كيف يصح لك التوحيد ؟ وكلما ملكت شيئا ملكك ، وكلما أبصرت شيئا أسكرك . قال الحلاج . من التمس الحق بنور الإيمان فهو كمن طلب الشمس بنور الكواكب . وقال سهل لكل طاعة آفة وآفة التوحيد الشرك ، وآفة الأنس بالله الأنس بالمخلوقين ، وآفة الخوف الغفلة ، وآفة الزهد الرجوع إلى المباح ، وآفة الشوق إلى الجنة إيثار الدنيا عليها .

= يكون كرامة ، لولى لاتحاد الهدف في الدعوة إلى الله من الرسول ومن الولى وإن النبي الرسول هو الإمام الذى يخضع الولى لسنته خضوعا تاما لانقص فيه . وقد ينكر كثير من الناس وقوع الكرامات من الأولياء ولكننا لانسفه زعمهم ، بل ندعوهم إلى دراسة هـــذا الحادث من حيث المدى الهائل الذى يصله عارف الله العامل بمعرفته من شفافية الروح وخفتها حتى ينعدم لديها الزمان والمكان ، وكانا معاشر الدراسين منا من وثق بصحة وقوع الخوارق للأولياء، ومنا من لم يوفق إلى هذا اليقين ، الذى تهفو القلوب داعية المولى جل وعلا أن يدلنا عليه من عنده . وقد أيدت النظريات الحديثة خوارق الإنسان فلا مجال للإنكار .

(١) لعل هذه النقول هي التي جعلت الناس يهجرون المؤلف ويتهمونه بالبدعة والقول المستشنع أما قوله « فلا أستطيع المكث مع الله » فمعناه لا ستطيع الصبر على البلاء في حال معرفتي بالله لشدة وطأته . وأما قوله ليتني لم أعرفك فهو قول يبدو من العارف حينما تضيق به الحيلة عن احتمال البلاء أوحينما ينظر إلى حاله بعد المعرفة فيرى ضلال حاله قبل المعرفه ، ولو بقي على حاله الأول لرضي بقسمته . والقول على كل حال من الأقوال النابية التي لاتليق في جناب الحق . وإن كان له تأويل صحيح ، فهو من باب الإدلال الذى زل فيه الكثير من السالكين .

وسئل أبو العباس الزوزنى عن التوحيد والتفريد والتجريد فقال التوحيد هو الوحدة للموحد، بنور التوحيد الذى رش عليه من نور القبضة يوم الذر عند القسمة . والتفريد ما أفرده المتفرد بنور الفردانية الذى رزق من خزائن المنة . والتجريد فعل المتجرد . تجرد له عند العبودية بنور الصمدانية الذى هداه إلى سواء الطريق . بالتوفيق ، وقال بعض الحكماء .

التجريد على أربع معان : تجريد القلب ، والروح ، والعقل واللسان فأما تجريد الروح [فـ] هو أن يتجرد المريد عن إرادة غيره ، كما يتجرد المحرم من لباس بيته إذا بلغ أطراف حرم ربه ، وأما تجريد العقل فهو أن يتجرد من طيب المؤانسة مع كل ماهو فان [كما أن] أول مايتجرد [منه] المحرم فى إحرامه[1] من المسك والعنبر ، وأما تجريد القلب فهو أن يقوم مجردا على باب الرجاء بالتضرع والنداء كما يقوم الحاج يوم الحج الأكبر ، وأما تجريد اللسان فهو أن يجرده عن ذكره ويشغله بمحامده كما يشغل الحاج لسانه عند الطواف بذكر مناسكه . فيكون الروح مجردا من إرادة غيره والقلب مجردا على باب الرجاء ، تائبا عن الالتفات إلى غيره ، والعقل مجردا عن المؤانسة بغيره ، واللسان مجردا عن ذكر غيره .

وقال بعض الحكماء التجريد حال موسى بن عمران ليلة الشجرة . إذ رأى نارا وكان النار نورا ، فقال لأهله : امكثوا مكانكم فإنى أريد أن أتجرد لطلب النار . قال من : طلب النار تجرد عن الآلة وإلا أحرقته النار[2]

---

(١) فى الأصل (من إحرامه من المسك والعنبر) .

(٢) هذا القول معناه : من أراد التجرد لطلب النور الإلهى . فليتجرد عن كل آلة للنفس أو العقل أو القلب ، فيها مآرب . أولها فى النفس والعقل والقلب هوى . لأن كل مطالب النفس وأخويها . أو ما يطلب النفس وأخويها . إنما هى قواطع وحجب . هى قواطع . لأنها توقف المدارك الروحانية عند بعض المظاهر العليا من العوالم غير المنظورة ، فتلهو بها وتقف عن مطلوبها . أو هى قواطع من حيث أنها قد تفسر تلك المظاهر تفسيرا . لا يليق بالتوحيد والتفريد ، فيضل بها =

تجرد عن ماله ومتاعه وأهله وولد، فلما دنا من النار ومعه العصا والنعل. نودى فاخلع نعليك، وألق عصاك، وتجرد عن الكل لمولاك. والتفريد حال موسى عليه السلام يوم الميقات «ولما جاء موسى لميقاتنا» قيل لما غاب موسى عليه السلام عن جميع صفاته وحركاته، وقام مقام الانفراد. حينئذ ناداه إنى أنا الله. والتوحيد حال موسى عليه السلام يوم سؤال الرؤية، حين قال له: رب أرنى أنظر إليك. وكان فى وقته ذاك ذا إرادة ونظر واختيار، فلما تجلى من الجليل نوره، تلاشى موسى من إرادته، واختياره وخر صعقا، فلما أفاق من صعقته، قال بلا إرادة واختيار موحدا للملك الجبار: سبحانك تنزيها لك عما أردت وظننت أنى أستطيع أن أراك، وتبت إليك من قولى «رب أرنى أنظر إليك» [illegible] أول المؤمنين بأنك لا ترى فى الدنيا والميعاد يوم العرض واللقاء[1].

وقال أبو حمزة الخراسانى محل أبى بكر الصديق فى الدين محل التوحيد ومحل عمر بن الخطاب محل المعرفة ومحل على بن أبى طالب محل الإسلام[2].

= العبد ويضل غيره، وفى هذه الحالة يحترق طالب المشاهدة بنار الضلال وهى حجب لأنها تغلف مناطق الوعى الروحى من الإنسان فتحجب عنها النور المفاض من الغيب الأقدس. فيعيش العبد وكل ما يدركه هو مدركات الوعى العقلى، فيحترق بنار الحرمان من نعيم المشاهدة لمدارك الوعى الروحى.

(١) فى جواز الرؤية واستحالتها مقالات للمتكلمين. واختلافات واسعة بينهم فليرجع إليها من أراد. لعدم جدوى إثباتها هنا فهى مما لا ينفع فى باب الإيمان المطلوب شرعا. وهو الإيمان بالغيب واستعمال العقل فى تدبير العبادة فحسب. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وبالآخرة هم يوقنون.

(٢) إذا أريد معنى الإسلام الشرعى وهو النطق بالشهادتين كان هذا النقل غريبا لأن منزلة الإمام رضى الله عنه أكبر من هذا بكثير. ولعل المراد المعنى اللغوى للإسلام وهو الاستسلام الكلى لمراد الله حتى لا تنازعه إرادة النفس

وسئل عن بن سهل بن عبد الله عن حقيقة التوحيد فقال . قريب من الظنون، بعيد فى الحقائق ، أنشد لبعضهم :

فقلت لأصحابى هو الشمس ضوؤها   قريب ولكن من تناولها بعد

وقال أبو العباس الزوزنى . التوحيد علامة يعرف بها المتعبد نفسه ، والتجريد علامة المتجرد يعرف بها نفسه ، والتفريد علامة يعرف بها المتفرد نفسه ، فعلامة صحة التوحيد فى سر المريد أن يستوحش المريد من سره ، ويستأنس فى سره بلا سره كما قيل لأبى يزيد : ما اسم الله الأعظم ؟ قال : أن تقول لا إله إلا الله وأنت لست ثم . وعلامة صحة التفريد فى قلب المتفرد ، أن يستوحش سره من قلبه ، ويستأنس فى قلبه بلا قلبه ، كما قال واحد .

ولى ألف وجه قد عرفت سبيله   ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

وعلامة صحة التجريد فى نفسه . أن يستوحش من نفسه ويستأنس فى نفسه بلا نفسه .

وقال بعضهم التجريد أن ينسلخ المريد من جميع ما يريد غير ما يزيد المراد من المريد كما تنسلخ الحية من جلدها ، واللبن من ضرعه ، والولد من أمه ، والسهم من قوسه ، والماء من عينه[1] . وسئل أبو العباس صف لنا الموحد . فقال : نعم . الموحد هو الذى غرق قلبه فى أنوار التوحيد ، وطار فؤاده فى لباب التفريد ، واحترقت نفسه بنيران التجريد ، ليكون منقطعا من القريب والبعيد ، متصلا بحق المهيمن المجيد ، متحيرا بين الخلق والحق على شفا جرف هار[2] . والتخليط والتشريد ؛ مثل الكليم قطعه عن خلقه كما قال :

═ ولا العقل ولا القلب .

ولعله أراد بذلك ردع الشيعة الغلاة . وقد يؤيد هذا ما رواه عن جعفر الصادق فى الآية الرابعة من باب وصف العارفين . من أن آلاف العوالم المجهولة ألهمت أن تستغفر لمحبى أبى بكر وعمر .

(١) فى الأصل الضمير فى الفقرة كلها مؤنث

(٢) لأنه يعيش فى الوجود . ولا يرى له وجودا . هذه هى الحيرة التى عبر ═

واصطفيتك لنفسى . أى لم أدع لغيرى فيك نصيبا فلما قطعه عن الغير قال موسى : رب أرنى أنظر إليك . فبعد ذلك أيضا قطعه عن نفسه فقال : لن ترانى . فصار منقطعا عن نفسه بربه . ومنقطعا بربه عن ربه . ومعنى لن ترانى [أى] فى دار البلاء والمحنة . والميعاد يوم الزيارة والرؤية، فى دار النعمة، على بساط المنة ، بلا فراق ولا حشمة ، ولا احتراق ولا وحشة .

وقال أبو طالب رضى الله عنه . علم التوحيد ومعرفة صفات الرب مباين لسائر العلوم ، لأن الاختلاف فى علم الظاهر رحمة ، والاختلاف فى علم التوحيد ضلال وبدعة ، والضلال فى علم الظاهر مغفور بما كان [من] حسنته ، والخطأ فى علم التوحيد فى شهادة اليقين كفر ، من قبل أن العباد لم يكلفوا حقيقة العلم عند الله ، فى طلب علم الظاهر . وعليهم موافقة الحقيقة عند الله فى التوحيد(١) .

باب وصف العارفين الذين وصفهم المعروف بالصفاء واليقين

قال بعض الحكماء . المعرفة أعلى مقامات الموقنين وأكمل أحوال الصادقين ، وأشرف رتب المقربين . وأهل المعرفة هم الذين عززهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقللهم فى جملة كثرة الجمهور ، فقال : هم أعز فى أمتى من

= عنها المشاهدون . بأن العبد موجود ولا موجود . وكائن بائن ومتصل منقطع . وهو مشهد تزل فيه كثير من الأقدام غير الراسخة . أما الراسخ فيقف على شفا الحرف ثابت القدم . مستهديا باليقين .

(١) أى إن العباد مكلفون فى التوحيد بالإيمان بما جاء عن الله تعالى فيه إيمانا غيبيا دون البحث فيه بالعقل « الذين يؤمنون بالغيب » أما فى علم الظاهر فالعباد مأمورون بالاجتهاد وليس الاجتهاد بحثا عن حقيقة الحكم عند الله. وعلى هذا فالخطأ فيه له أجر . فصار الإيمان الصحيح . هو تسليم المعجوز عن دركه . والتسليم له . والانقياد له فى محابه ومكارهه . دون بحث عن الذات . حتى يعلمه الله بتقواه .

الكبريت الأحمر . وسمى المعرفة أصل العلم ورأس العلم ، فى الخبر المروى عنه . قال أنس بن مالك . جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى غرائب العلم . قال : وما صنعت فى أصل العلم ورأس العلم حتى تعرف غرائبه ؟ قال : وما أصل العلم ورأس العلم ؟ قال : هل عرفت الرب ؟ فالمعرفة بالله هى[1] أوجب الأشياء على الخلق وأفرض الأشياء عليهم للحق .

فانظر فى حال السائل جاء يطلب ما لا يحتاج إليه وهو لا يدرى ، وترك طلب ما يحتاج إليه وبه يهتدى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ناصح الخلق ، ودليل الأمة ، دفعه عما هو به غير مطالب ، ودله على ما هو به مطالب . وهذا دليل واضح فى أدب السؤال للعلم ومعرفة المسئول . وذاك أن كثيرا من السائلين فى سؤالهم يغلطون ، وهم فى ذلك يظنون أنهم بالحق ينطقون . فعلى الحكيم العارف ألا يجيب السائل فى سؤاله حتى يوقفه على صدق حاله ، ومن صح له المعرفة فعنده يوجد رأس العلوم وجملتها ، وأصل العلوم وبنيتها[2] ، وعلم بلا معرفة كجسد بلا رأس ، وكبناء على غير أصل ، ولا أساس ، فيكون مأسوسا على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم . فأنا إن شاء الله أجمع لك سبع آيات من كتاب الله عز وجل بين الله فيها[3] معرفة العارفين به ، وماهية وصول العارفين إلى معرفته ، وكيفية دخولهم فى ذلك ، بلسان أهل الفهم والإشارة ، وأرباب التنظيف والطهارة ، الذين رفع لهم الجليل أعلام الهداية . وتوجهم بتاج العناية ، وسربلهم بسرابيل الكفاية ، وأزرهم بمآزر الرعاية ، وأنبع فى قلوبهم أنهار الحكمة والدراية ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم .

وقال جعفر الخلدى فى قوله تعالى : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . قال : إلا ليعرفونى . ثم يعبدونى . على بساط المعرفة ، ليتبرأوا

---

(١) فى الأصل « هو »

(٢) فى الأصل « وجملية وبنيته »

(٣) فى الأصل فيه

من الرياء والسمعة . وقال ابن عطاء : إلا ليعرفونى . وما عرفه حقيقة من وصفه بما لا يليق[1] .

سئل الشبلى رضى الله عنه قوله صم بكم عمى . قال : هذه صفة العارف لأن الله تعالى ، قال للكافر والزنديق : صم عن استماع الحق ، بكم عن التكلم بالحق ، عمى عن النظر إلى الآخرة والحق ، فهم لا يعقلون أمر الهوى والدنيا ، فالعارف الصديق هو بضدهذا الوصف [أ] صم . فلا يسمع غير الحق من الحق ، [أ] بكم فلا ينطق إلا بالحق من الحق للحق ، [أ] عمى فلا ينظر إلا للحق بالحق . ثم قرأ . أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . وقيل له مرة أخرى : هل للعارف علامة ؟ قال : نعم . الاستغناء والافتقار ، والاحتقار للنفس . وقيل : صم . فلا يسمعون نداء المخالفين . بكم فلا ينطقون مع المعرضين ، عمى فلا ينظرون بعين[2] الجاهلين .

وقد قيل فى معنى هذا من تفسير قوله تعالى فى قصة هرون وموسى عليهما السلام: وأخى هرون هو أفصح منى لسانا . قال أبو بكر بن طاهر : هو أفصح منى لسانا لأنه لم يسمع خطابك ، ولم يخاطبك فى موقف حضورك فهو أفصح منى لسانا مع المخلوقين . كيف أكون معهم فصيحا وقد سمعت لذة كلامك ؟ ولكن كيف أخاطبهم مع مخاطبتك ؟ أم كيف أجعل لهم وَزَراً على ما أدنيتنى وخصصتنى به من قربك ؟ وكيف أخاطبهم بلسان به خاطبتك ؟ وكيف أطيق سمع خطابهم بأذن سمعت بها خطابك ؟ وقيل كيف أخاطبهم وكلما ذكرت نداءك لى : إنى أنا ربك . تحيرت فى فهم الكلام كأنى سكران ، وصار عقلى كعقل الصبيان .

رجعنا إلى تفسير الآية . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم . إذا أراد الله بعبد خيرا أعماه وأصمه وأخرسه وأجهله على غيره . صدق صلى الله عليه وسلم . من لا يجهل غيره كيف يعرفه ؟ ومن لا يعمى عن

---

(١) فى الأصل « ولا معرفة حقيقة من وصفه بما لا يليق» .

(٢) فى الأصل بزين وأفرد الضمير فى الفقرة كلها

غيره كيف يبصره ؟ ومن لا يصم عن سواه كيف يسمع منه ؟ ومن لا يخرس كيف ينطق معه ؟ وقال بعضهم صم عن المشاغيل ، بكم عن الأباطيل ، عمى عن التماثيل ، فهم لا يعقلون غير خطاب الملك الجليل . وقال بعضهم صم عن الورى ، بكم عن الهوى ، عمى عن الدنيا ، فهم لا يعقلون غير البر والتقوى ، وقال آخرون فى تفسير الآية بضد من هذا فى وصف أهل العمى والجهل . قيل فيه : صم عن النداء ، بكم عن الدعاء . عمى عن الوفاء ، فهم لا يرجعون إلى مقام التوبة والحياء . وقيل صم عن الملامة ، بكم عن الندامة ، عمى عن السلامة[1] ، فهم لا يرجعون إلى التقى والإمامة . وقيل : صم عن النصيحة ، بكم عن الشريعة ، عمى عن الرجيحة[2] ، فهم لا يرجعون عن[3] الخزى والفضيحة .

الآية الثانية : قال جعفر الخلدى فى قوله عز وجل : الله الصمد . هى خمسة أحرف ألف ولام وصاد [وميم] ودال . قال : الألف دليل على أحديته . واللام دليل على إلاهيته . وهما مدغمان لا يظهران على اللسان ويظهران فى الكتابة . فدا[ت] الحكمة فى ذلك على [أن] أحديثه وإلهيته خفية مستورة الحقيقة ، وأنه لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس . فخفاؤه فى اللفظ : دليل على أن العقول لا تدركه ولا تحيط به علما ، وإظهاره فى الكتابة دليل على أنه يظهر على قلوب العارفين ، ويبدو لأعين المحبين[4] فى دار السلام ، بوصف الكمال والتمام . والصاد . أنه صادق فيما وعده فعله صادق ، وكلامه صدق ، ودعا عباده إلى الصدق . والميم دليل على ملكه . فهو الملك على الحقيقة لا مالك للأشياء غيره . وكل ملك سيزول

---

(١) أى عن طريق السلامة

(٢) أى عن العمل الراجح عند الله

(٣) فى الأصل إلى

(٤) ليس المقصود أن يبدو سبحانه لأعين المحبين ظهورا ماديا بل المراد ظهوره للبصيرة من حيث شهود آثار الأسماء والصفات ذوقا وتحقيقا لا بالعقل والدليل

[إلا] ملكه ، والدال . علامة دوامه فى أبديته وأزليته .

وقال بعضهم . علامة العارف ترك الطلب ، وعلامة من ليس بعارف الجهد فى الطلب . لأن العارف حاضر ، والحاضر قد استغنى عن الطلب ، والطالب يطلب ماقد غاب عنه . من غاب عنه شىء فليس بعارف به . وقال الجنيد: الصمد الذى لم يجعل لأعدائه سبيلا إلى معرفته . وقال الخلدى : الصمد الذى لم يعط خلقته من معرفته إلا الاسم والصفة . وسئل بعضهم . ما معنى الصمد؟ [فقال] أعلمك الجليل جل جلاله أن ما يتسع له اللسان أو يشير إليه البيان أو يتفكر فيه الجنان من تعظيم أو توحيد أو تفريد أو تجريد فهو معلول. والحقيقة وراء ذلك لا تحيط بها العلوم ولا يشرف عليها أحد . لأن الصمدية ممتنعة عن ذلك كله . فياعجباه من ظنك وتوهمك بأنك تعرف ربك. كيف تبلغ أوصافه بلسانك وهو الذى خلق لسانك؟ والمخلوق لا يتسع ولا يبلغ ولا يُدْرَك به إلا وصف مخلوق مثله . كيف يشير إليه بالبيان وهو الذى خلق البيان وبين البيان وبان البيان ؟ وكيف يفكر فيه الجنان وهو الذى خلق الجنان وأجن الجنان فى ظلمات الأجسام؟ وأجن فى الجنان مايتفكر به الجنان؟ فسبحانه من جبار لم يذكره بالحقيقة أحد، ولا وصفه أحد، ولا عرفه أحد ، ولا شكره أحد، ولا، أحبه أحد ، ولا أخافه أحد . لم يذكره غيره ولا وصفه سواه ولا عرفه غير إياه .

وقال أبو على الروذبارى . وجدنا أنواع الشرك فى ثمانية أنواع : على التبعيض والتقليب ، والكثرة والعدد ، والعلة والمعلول ، والأشكال ، والأضداد . فأنزل الله تعالى سورة . نفى [فيها] عن نفسه نوع الكثرة والعدد بقوله : « قل هو الله أحد » ونفى التبعيض والتقليب بقوله : « الله الصمد » ونفى العلة والمعلول بقوله : « لم يلد ولم يولد » ونفى الأشكال والأضداد بقوله : ولم يكن له كفوا أحد . وقيل إن رجلا من أهل المعرفة قام ليلة إلى ورده ، فلما قرأ وتلفظ بهو ، بقى يقول . هو . هو . هو . حتى طلوع الفجر ، فلم يقدر أن يجاوزها . غرق سره فى ميدان ألوهيته فلم يبق فى نفسه

لنفسه بقية ، وقيل : الصمد الذى لا يستغنى عنه شىء من الأشياء . ألا ترى إلى قوله « يسأله كل من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن» . فلم يبق خلق من خلقه إلا طائف على بابه ، طالب لنواله ، فمن استغنى عنه بنفسه أو بماله ، أو رأى أحدا من خلقه ، فذاك الشقى الخاسر ، والمحروم البائر .

وقال بعضهم . إلهى . كل الناس يريدونك ، فياليت شعرى من الذى تريده ؟ وكل الناس يطلبونك . فياليت شعرى من الذى تطلبه أنت ؟ وكل الناس يطلبون محبتك . فياليت شعرى من الذى أنت تحبه ؟ . إلهى . كل الناس يذكرونك . فياليت شعرى من الذى تذكره أنت ؟ . كل الناس يتقربون إليك . فياليت شعرى من الذى تقربه أنت ؟ [1] .

الآية الثالثة : يقال : إن رجلا جاء إلى أبى بكر الشبلى ، فقال له : دلنى على معرفة الجليل كيف ينبغى الدخول فيها [2] ؟ . وبماذا ينال ذلك ؟ وكان الرجل ذا معرفة بعلم الظاهر . فقال الشبلى يا [رجل] هكذا جئت تستدل على معرفة الجليل فهل عرفت [على] نفسك الدليل ؟ بماذا خلقت ! ومتى خلقت ؟ وفيماذا خلقت ؟ وبماذا خلقت ؟ وكيف ولماذا خلقت ؟ فإذا أجبتنى عن هذا أجبتك عما سألت ، وإلا فأنت إلى معرفة ما أخبرتك [به] أحوج

---

(١) هذه المناجاة ، وأمثالها .لون من الأدب الصوفى الرفيع ، فهى تكاد تكون شعرا منثورا ، ولا يخفى ما فى خلجاتها من الهيمنة على المثل العليا للحياة الروحية ، والأدب الصوفى كله ، ينزع نحو التسامى عن المظاهر ، والنظر إليها على أنها شىء لازم فى الوجود ، والنظر إلى الناس نظرة أخوة وإشفاق من هذه المظاهر ، وعدم احتقار أى إنسان ، لأننا كنا فى جهله بالأمس ، وكل الناس يسيرون على الطريق ولكن منهم المتخلف ومنهم المتقدم ، فخذ بيد أخيك ، ولا تحقره .

هذا تلخيص مذاهب الأدب الصوفى فى إيجاز . والأوراد الصوفية . جديرة بالبحث مع غيرها من ألوان المناجاة .

(٢) فى الأصل «فيه»

منك إلى معنى معرفة ما سألت [عنه] . فقال الرجل : بلى . خلقت من نطفة ، وخلقت للابتلاء والمحنة ، قال الشبلي : ويحك . من علم أنه خلق من نطفة كيف يطمع فى معرفة من قطع الأوهام عن إدراك أينونيته وكيفوفيته ومن أظهر اسما من أسمائه وهو الله . ثم اشغل جميع الألسن [ب] شرح هذه الكلمة من حين خلق آدم إلى أن تقوم الساعة لم يدركوا نهاية ذلك. فكيف بالمسمى ؟ وإن بنى إسرائيل مكثوا أربعين سنة يطلبون بقرة لم يهتدوا إلى معرفتها ، ولا وجدوها ولا وقفوا على حقيقتها . وكيف تطمع أنت أيها الطالب لمعرفة الله فى إدراك معرفته . وبهيمه لا يهتدى إلى معرفتها إلا بعد أربعين سنة . إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب وعبرة عظيمة لمتدبر الخطاب .

الآية الرابعة : ذكره تعالى « الرحمن على العرش استوى » قال جعفر الصادق . إن الله تعالى لم يخلق مخلوقا أعظم من العرش . أحكم خلقه من ياقوتة حمراء فجعله سبعين ألف طبق . وجعل [له] ثلاثمائة وستين قائمة ، كطباق الدنيا ستون ألف مرة ، تحت كل قائمة ستون ألف صخرة ، فى كل صخرة ستون ألف مدينة ، فى كل مدينة ألف عالم ، مثل عالمكم هذا ، لا يعلمون أن الله خلق إبليس ولا آدم كلهم ، فى الجنة . ألهمهم الله أن يستغفروا لمحبي أبى بكر وعمر[1] فلما خلق العرش علا على العرش واستوى[2] معرفته بكل شيء فليس شيء قريب إليه من شيء ثم خلق ملكا له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين كل جناح وجناح مسيرة خمسمائة عام ، فجعل الملك يقول فى نفسه : أفرق ربنا شيء ؟ والله فوق عرش ربنا . فعلم الله ذلك فزاد فى أجنحته مثله وكان له ستة وثلاثون ألف جناح ، ثم أوحى إليه . طر . فطار مقدار

---

(١) ظاهر الخبر ردع للروافض ويرى أتباع جعفر الصادق أن خلافة أبى بكر وعمر صحيحة باعتراف الإمام على وإن كان هو صاحب الحق فيها ولكن ما دام هو قد بايع فهم لا يرفضونهما . ولا يخفى ما فى الخبر من دلائل على الشك فى صحته

(٢) فى الأصل « استوى » .

عشرين ألف سنة يقطع [فى] كل طيران مائة ألف عام، فلم ينل قائمة من قوائم العرش، فأوحى الله إليه: أيها الملك. إنى عظيم فوق كل عظيم، وليس فوقى شىء عد إلى مكانك. فسلب الله أجنحته لما تفكر فى نفسه.

وقال أبو طالب المكى. رضى الله عنه. قيل إن الله ينظر إلى العرش عند كل سحر نظرة فيتسع عند ذلك مائة ألف ضعف على ما كان، ويزداد بكل توسعة مائة ألف ضعف. من المعرفة، بالله وتسبيحه: سبحانك أينما كنت وأين تكون. وتسبيح الحملة سبحان من لا يعلم ما هو إلا هو.

وقال الشبلى. من لم يعرف فهو غريق فى بحر الحسرة والمغابنة. وسئل مالك بن أنس عن قوله «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى [ف] قال الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. ثم أمر بالسائل فأخرج من المجلس[1]. وفى الخبر أن أربعة من الملائكة اجتمعوا عند النبى عليه السلام. فقال لأحدهم من أين جئت؟ فقال من فوق سبع سموات وتركت ربى هناك، وقال الآخر: من تحت الثرى وتركت ربى هناك. وقال الآخر وأنا من الخافق الشرقى وتركت ربى هناك، وقال آخر: وأنا من الخافق الغربى وتركت ربى هناك.

ويقال إن موسى بن عمران لما كلمه الله ليلة الشجرة؛ دهش من سماع نداء الحق فقال: إلهى أين أنت؟ أقريب فأناجيك؟ أم بعيد فأناديك؟ فقال

---

(١) هذا مذهب السلف فيما يمنع البحث فيه من مسائل العلم. فلا يجوز عندهم البحث فى الذات وما حولها من مباحث كالقضاء والقدر. والصلاح والأصلح. وأفعال العباد. وغير ذلك. لأن الصحابة رضى الله عنهم ماتوا وهم لا يعلمون عن ذلك شيئا، من باب الجدل.

ولا يظن أحد أن ذلك حجر على العقول، وإعاقة لنهضتها، لأن موضوع الذات وما حولها لا يهم هؤلاء الناقدين ولا يتقدم بحياتهم المادية ولا يكشف عن اختراع جديد، وإذا قصد بإباحة هذه الأبحاث مجرد الرياضة العقلية فهناك مجالات أكثر رياضة للعقل من هذه البحوث.

الله لموسى . أنا من فوقك، وأنا من تحتك، وأنا عن يمينك ، وأنا عن يسارك ، وأنا أمامك ، وأنا وراءك، وأنا معك . أنا أقرب إليك من أنفك إلى لسانك ومن لسانك إلى حدقتك ، ومن حدقتك إلى سواد عينك ، ومن سواد عينك إلى ناظرك ؟ وأنا أقرب إليك منك إلى نفسك فادعني من أى وجه شئت فها أنا ناظر إليك(١) . وعن ابن عيينة . فى معنى قوله تعالى « ألا له الخلق والأمر »قال الخلق ما دون العرش والأمر ما فوق ذلك .

الآية الخامسة : قوله جل ثناؤه « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » قيل الهاء إشارة إلى الله تعالى . وقال ابن عطاء . ولا يحيطون بشىء من ربوبيته علما ، لأنه لم يظهر شىء إلا تحت تلبيس(٢) . لكن لا يستوى علمان فى شىء واحد . ما علمه غيره ولا عرفه سواه ، ولا ذكره غير إياه فهو العالم على الحقيقة ، والعارف على الحقيقة ، والذاكر على الحقيقة(٣) ، وفى الخبر أن ملكا من الملائكة يتفكر فى الله تعالى فيصيح به . مالك ولهذا ؟ فهام على وجهه من ذلك فسمى المفكر . فهو فى الهيمان إلى يوم القيامة . وقال ابن عطاء : المعرفة معرفتان : معرفة حق ومعرفة حقيقة . فمعرفة [ال] حق معرفة وحدانيته على ما أبرز للخلق من الأسامى والصفات ومعرفة الحقيقة على ألا سبيل إليها ، لامتناع الصمدية . وحقيقة الربوبية لقوله « ولا يحيطون به علما » [أى] لا سبيل إلى المعـــرفة على

(١) لا يبعد أن يكون هذا مما أوحى إلى موسى حقيقة ، مما تناقله الرواة ، فهو تصوير للعقيدة السليمة من كل جهاتها .

(٢) المراد بالتلبيس إظهار الأسماء والصفات بالأسباب: فكل مظهر فى الوجود له سبب قريب يلبس عقول العامة ويصرفها عن السبب البعيد . المبدع الأول . سبحانه وتعالى .

(٣) الذاكر الأول لله هو الله . قال تعالى هو الذى لا إله إلا هو والعارف الأول لله هو الله شهد الله . أنه لا إله إلا هو وقد ذكر الذاكرون بذكر الله لنفسه وعرفوه بمعرفته لنفسه .

الحقيقة[1] . وقال الشبلي رحمه الله : إن عرفناك حيرتنا ، وإن طلبناك أتعبتنا ، وإن قصدناك أدهشتنا ، وإن أحببناك قتلتنا ، وإن شاهدناك أفنيتنا ، وإن أردناك أبليتنا وإن دنونا منك أحرقتنا وإن ضحكنا أخزيتنا وإن بكينا أسكتنا وإن هربنا منك طلبتنا ، وإن أطعناك حذرتنا ، وإن عصيناك عذبتنا ، فلا لي معك راحة ولا لي في غيرك أنس ، فالمستغاث بك منك إليك .

الآية السادسة : قوله جل ذكره « وما قدروا الله حق قدره » قال ابن عطاء خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، واقشعرت منها الجلود ، ثم قرأ هذه الآية « وما قدروا الله حق قدره » فتزعزع أعواد المنبر وظننت أنه يسقط على وكنت تحته . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر القيامة احمرت وجنتاه ، وانتفخت أوداجه . وعلا صوته كأنه منذر جيش صبحهم العدو ويقول . أنا والساعة كهاتين ويجمع بين السبابة والوسطى . إن كادت تسبقني .

وكان أبو يزيد يوم الجمعة جالسا بحذاء المنبر ، وقرأ الإمام « وما قدروا الله حق قدره » فهاج بأبي يزيد حاله ، وجعل يبكي ويخرج من عينه الدم كدم العرق[2] ، حتى ضرب المنبر وهو يقول . من أنا حتى أقدر

---

(١) الذي لا سبيل إلى معرفته على الحقيقةهو الذات ، والذي يمكن أن تجول فيه الأرواح هو الأسماء والصفات جولان ذوق ، لاجولان نظر وعقل . والذي يمكن أن تجول فيه العقول . هو العناصر غير المنظورة كالإشعاعات والفضاء وحركات الذرة وغيرذلك من الأبحاث العلمية. والذي يمكن لكل العقول والنفوس أن تجول فيه هـــو العلوم النظرية والعملية على الإطلاق ـ فإذا كانت الأسماء والصفات أوقفت كبار المشاهدين في الحيرة . فلا شك في أن مشهد الذات قاتل محرق ليس معه شيء ولا عين هناك ولا أين .

(٢) أي كالدم الذي ينزف من العرق : ولعل حمرة دمع أبي يزيد رضي الله

قدرك . سهل بن عبد الله ، ما عرفوا الله حق معرفته [لا] فى الأصل ولا فى الفرع . وقال ذو النون إن للعارفين ألسنة أرضية وسماوية وأزلية وأبدية وإلهية . فإن رأيت منهم أحد فاصحبه . واحذره ، فإن أمره قريب وحاله عجيب وعوزه بعيد لأن المعروف له حبيب[1] . وقال النبى صلى الله عليه وسلم الناس كلهم فى ذات الله حمق .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه . سبحان من لم يجعل لأحد من خلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن درك معرفته . وكانت رابعة تقول : إلهى عرفنى نفسك فإنى إذا عرفتك خفتك ، ومحال أن يعصيك من يخافك . وقال ابن مسعود رضى الله عنه . جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . إذا كان يوم القيامة جعل الله تبارك وتعالى السموات السبع على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع . والشجر والمدر على إصبع ، والخلائق كلها على إصبع ، ثم يهزها ثم يقول . أنا الملك الجبار . أين الملوك والجبابرة . قال . فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه تعجبا لما قال تصديقا للقرآن ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا

= عنه لونت دمعه بلون الدم إن كان مستبعدا فى بعض العقول نزف الدم من العين أثناء البكاء .

(١) وجه الحذر من العارف . من حيث أنه متقلب فى ألوان المعارف غارق فى التجليات الإلهية وفى شئونها المختلفة . والعارف دائما فى حالة إفاضة عامة يعرفها القليل ويجهلها الكثير . وله إفاضة خاصة على المستعدين من طلاب الطريق . يوجه بها المريد فى حذر . فليحذر المريد من حال شيخه وليكن على دراية بكل مايعمل فى كل حال . ومتى يصمت ومتى يتكلم . ومتى يتوجه .

فإن كان فطنا نجا . وإن كان فيه غفلة هوى . وإذا كان مثل ذلك ثابتا فى علم الظاهر بين الأستاذ والطالب فلم يثبت فى عالم الروحانيات على طقوس روحانية أيضاً ؟ .

قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون »
قال . وكان من كلام ابرهيم الخليل عليه السلام . سبحان من قدر بقدرته
كل قدر ، ولا يقدر أحد قدره . سبحان من أوله حلم لا يوصف ، وآخره
علم لا يبيد . وقال أبو العباس الزوزني : كيف يعظم الجليل جل جلاله
من لا يعرف جلال قدرة الجليل . وكيف يعرف جلال قدرة الجليل ،
من لا يرى مشاهدة الجليل من قدره ، ووضر قلبه ، بظلمة العصيان ، ونام
ذهنه من كثرة الغفلة والنسيان ، فأصبح كالمتحير السكران ، لا يعرف
الزيادة من النقصان ، ولا الربح من الخسران .

وقال الزوزني : لو زال عنا حرمته ماحفظنا حرمته ، ولو تركنا حرمته
ما ادعينا معرفته . وقال بعضهم رأيت أعرابيا يطوف بالبيت وعليه خرقة
من عباء وهو يقول : يامن يَرى ولا يُرى ، أما ترى أما ترى تقرزى ؟
أما ترى تحيرى ؟ أما ترى أما ترى أنى عار ؟ أما ترى أما ترى حريقى ؟
أماترى أماترى تذللى ؟ أماترى أماترى تقرزى ؟ أماترى أماترى ؟ .
قال فناولته دينارا فالتفت إلى وقال . اعزب عنى يا هذا فإنه غيور ، إذا
رآنى آخذ من غيره جفانى فقلت . هذه والله هى الفتوة [1] .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : وما قدروا الله حق قدره . حين خالفوه
فى أمره ، ما قدروا الله حق قدره حين استخفوا بحفظ حرمته ، ما قدر الله
حق قدره من بادر الجبار بالمعاصى ، ما قدر الله حق قدره من استعان على
معاصيه بنعمته ، ما قدر الله حق قدره من أفنى شبابه فى مخالفته ، ما قدر الله
حق قدره من ضحك بعد المعصية . ملء فيه ، ما قدر الله حق قدره من
اختار دنياه على آخرته ، ما قدر الله حق قدره من عمل الطاعة لطلب
جنته ما قدر الله حق قدره من ترك المعاصى خوفا من ناره ، ما قدر الله
حق قدره من شكاه [2] إلى أعدائه . ما قدر الله حق قدره من أرضى
نفسه باعطائه [ها] شهوة [ها] . ما قدر الله حق قدره من داهن

---

(١) فى الأصل هذا والله هو الفتوة

(٢) فى الأصل « بل شكواه »

المخلوقين بهواية . ما قدر الله حق قدره من نازع الله فى صفته ما قدر الله حق قدره من اغتم لرزق عنده .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لو عرفتم الله حق معرفته لزالت الجبال بدعائكم » وقال الواسطى . لا يعرف قدر الحق إلا الحق وكيف يعرف قدره أحد وقد عجز عن معرفة قدره الوسائط والرسل والأولياء والصديقون ومعرفة قدره ألا تلتفت إلى غيره ، ولا تقصر عن ذكره ، ولا تفتر عن طاعته . إذ ذاك عرفت ظاهر قدره . أما حقيقة قدره [فلا] يقدر قدرها إلا هو . وقال بعض الحكماء . يا صاحب الظلمات هيهات أن تهتدى إلى حفظ الحرمات يا صاحب الغفلات هيهات أن يكشف لك المشاهدات ، يا صاحب أكل الشبهات هيهات أن تزداد بطاعتك غير البعد وسوء الخطرات وأنشد فى مشاهدة رؤية الرقيب للشبلى رضى الله عنه :

كأن خيالا منك ترعى خواطرى وآخـــر يرعى ناظرى وعيانى
فما خطرت فى غامض السر خطرة لغيرك إلا عـــرجا بعنانى

وقال الزوزنى . إن حفظ الحرمة مخ العبادة ، ولباب الرعاية ، وسبب نزول العناية ، والوصول إلى باب الهداية . والطاعة بلا حفظ الحرمة كالجسم بلا حياة ، وكالجوز بلا لباب ، وكالشجر بلا ثمار وكالطيب بلا رائحة فالجوز بلا لباب لا يصلح إلا للعب الصبيان ، والنفس بلا روح لا تصلح إلا للدفن بين الأموات ، والشجر بلا ثمار لا يصلح إلا للحرق بالنيران ، والطيب بلا رائحة لا يصلح إلا لتطيين البنيان .

وقال الشبلى : يا مسكين . كيف يصلح العمل ، وأنت لا تعرف صاحب العمل . كيف تخلص للعمل ، وأنت لا تشاهد صاحب العمل . أو ما علمت أن كل طاعة بلا حفظ حرمة لا تصلح للمطاع ، ولا يستوجبُ بها الثواب ، وذلك لأن [عدم] حفظ الحرمة : الاستخفاف . والمستخف ينتظر المطاع كل يوم وإلا بارَ ، لأنه صاحب الإصرار ولا يعلم أنه صاحب الإصرار يعد طاعته طاعة وهى معصيته مردودة .

يا أخى : وأنت لو رأيت صاحب الحرمة ، لرأيته ساكتا ساكتا ، موعوظا واعظا ؟ فانيا عن غيره باقيا به ، خاشعا له ، راغبا فيه ، راهبا منه، منكس الرأس منكسر الحواس ، هائم القلب طائر اللب ، قائما بين يدى الرب . إذا قام للعبودية قام كأن العذاب فوق رأسه ، وإن جلس كأن النار بين عينيه ، وإذا أقبل كأنه راجع من دفن والديه ، وإذا أدبر كأنه يهرب من الأسد كيلا يصل إليه ، وإن أكل كأنه صاحب أسقام ، وإذا تكلم كأنه قاتل إخوة وأعمام ، وإذا عوتب فى حاله قال لهم وعليكم السلام ، وإذا رآه أهل العلم بادروا إليه معظمين له بالقيام وإذا رآه أهل الجهل والحماقة رموه بالمدر والعظام ، وإذا رآه المنافق كاد يذوب فى مكانه لما فيه من غلبة الحسد وقوة أكل الحرام . وهكذا حكى فى الأخبار عن الحسن البصرى رحمه الله أنه كذلك كان خلقه .

الآية السابقة : قوله عز وجل « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير» روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد ، ويأتى الله فى ظلل من الغمام ، ثم يناديهم : معاشر الناس . أليس مر العدل من ربكم الذى خلقكم وأحسن إليكم ورزقكم ثم عبدتم غيره ؟ أن يولى كل قوم ما كانوا يعبدون ، فيقولون : نعم ربنا . فيرفع لهم تمثال صنم ، وتمثال كل وثن ، ثم ينادى مناد : ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون فلا يبقى أحد كان يعبد من دون الله شيئا إلا تبعوه حتى يقذف بهم فى النار ، وأبقى أنا وأمتى فيقول ما [ل]هؤلاء لا يتحركون ؟ وفى رواية فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم : ألا تذهبون وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : حتى يأتى ربنا فيقول هل بينكم وبين ربكم من آية تعرفونها فيقولون . ليس كمثله شىء « [ف] يتجلى لهم بوصف يعرفون [به] أنه ربهم ، فيخرون له سجدا ، ويقع كل منافق على ظهره ويجعل الله أصلابهم كالصياصى صياصى البقر .

وقيل إن العبد تحتوشه ملائكة العذاب فى القيامة فينادى العبد يا ربه

فيقول الله تعالى ملائكتى ما هذا الصوت المنكر ؟ وعزتى لا أعرف اليوم إلا من عرفنى فى دار الدنيا . وقال الواسطى ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، من جهة المعنى ، ولا كصفته صفة من جميع الوجوه ، إلا من جهة موافقة اللفظ ، وكما لم يجز أن يظهر من مخلوق صفة قديمة ، كذلك يستحيل أن يظهر من الذات الذى ليس كمثله شىء صفة حديثة ، وإن التكرار من حدوث صفة ، جل ربنا أن يحدث له صفة أو اسم إذ لم يزل بجميع صفاته واحد ولا يزال كذلك أبدا .

وقال الواسطى إن الله تعالى احتجب عن خلقه بخلقه ، ثم صنعه بصنعه وساقهم بأمره إلى أمره ، فلا يمكن الأوهام أن تناله ، ولا العقول أن تخاله ولا الاتضاع أن يشتمله ، ولا الإسماع أن يستميله ، ولا الحيطة أن تجمعه ، هو الذى لا قبل له ولا بعد له ، ولا قرب ولا بعد ، ولا قامة ولا قدر[1] ، ولا مقصد [إليه][2] ولا معدل [عنه] ، ولا غاية وراءه ، ليس له أمد ولا نهاية ولا غاية ، ولا انقضاء ولا ميقات ، ولا يستره حجاب ، ولا يقله مكان . ولا يحويه هواء ، ولا يحاطه فضاء ، ولا يتضمنه خلاء ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . وقال شقيق البلخى . من لم يعرف الله بالقدرة فإنه لا يعـــرفه قيل وكيف يعرفه بالقدرة ؟ قال يعرف أن الله تعـالى قادر إذا كان معه شىء أن يأخذه منه فيعطيه غيره ، وإذا لم يكن شىء [فإنه يقدر] أن يعطيه[3] .

وسئل أبو يزيد عن درجة العارف . قال . ليس هناك درجة ، بل أعلى درجة العارف وجود معروفه ، وأدنى فائدته استخدام الملك . ويقال . خرج عيسى ويحيى عليهما السلام يمشيان فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى عليه السلام : يا ابن الخالة لقد أتيت اليوم ذنبا ما أظن أن الله يغفره لك .

---

(١) أى مقدار

(٢) أى ليس له جهة يقصده العباد فيها وفى الأصل «ولا مقصد عنه ولا معدل»

(٣) أى يعطى من العدم .

قال وما هو يا ابن الخالة ؟ قال عيسى . امرأة صدمتها . قال والله ماشعرت بها قال له عيسى . سبحان الله بدنك معى فأين روحك ؟ . قال معلق بالعرش ، ولو أن قلبي يطمئن إلى جبرائيل ماعرفت الله طرفة عين . قال بعضهم . العارف ينظر بالله ، والمؤمن ينظر بنور الله ، والعارف يطمئن بالله والمؤمن يطمئن بذكر الله ، وقلب المؤمن يعتصم بحبل الله . والعارف يعتصم بالله، و المؤمن قلب وليس للعارف قلب ، وأنشد فى ذلك .

يقولون لى قلب فما أنا فتشوا   فإن كان لى قلب فما أنا صادق

وقيل من سكن إلى غير الله فهو من قلة معرفته بالله ، ومن سكن إلى الله فهو من قلة معرفته بدقائق مكر الله ، وقال أبو يزيد : أدنى ما يجب على العارف أن يهب لمولاه ماملكه مولاه ، حتى يصير كله لمولاه . فيحصل له مولاه . فإذا حصل له مولاه . فكأنه عاد إليه كل الكل بالكلية . فيصير به غنيا وإليه فقيرا .

وسئل أبو يزيد ما علامة العارف ؟ قال ألا يفتر عن ذكره ولا من ذكره . ولا يمل من حقه ولا ينتقص من حبه . ولا يستأنس بغيره . وكيف يفتر من ذكره ، ولولا ذكره لما طاب للعارف عيشه . [و] كيف يمل من حقه وهو لا يتنعم إلا به ؟ . وكيف ينتقص من حبه وقد عرف سره ولبه وكيف يستأنس بغيره ؟ وهو لا يجد مثله . وقال معروف الكرخى . ليس للعارف نعمة وهو فى كل نعمة وليس له راحة وهو فى كل راحة وليس له اختيار وقد اختاره المختار وجعله خيار الخيار . فما يصنع بالاختيار .

وقال أبو يزيد . المعرفة فى ذات الله جهل والعلم فى حقيقة المعرفة حياة والإشارة من المشير شرك فى الإشارة [1] والعارف جسمه قد هزل . وروحه قد رحل . وسره قد نزل . ما يريد بمولاه بدلا . ولا يبتغى له مولا . وكلما أراد أن يقول : أنا . أو أنت . ناداه الجليل : أنا أنا . ولا أنت . وقال

(١) لأن عارف الله لا يرى لغيره وجودا فلا يصح أن يشير إلى سواه فإذا أشار إلى الله تعالى فذلك خطأ فى المعرفة يفسره قول أبى يزيد بعده .

أبو يزيد [أ] بعد الخلق من الله أكثرهم إشارة إلى الله ، لأن العارف قد انقطع إلى الله وحصل مع[1] الله فكيف يشير إلى الله !! ، لأن الإشارة لمن بعد عن الله . وسئل الجنيد عن العارفين فقال . ذهب والله وصف الواصفين .

وقال منصور بن عمار الناس رجلان : عارف بنفسه فشغله فى المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه . فشغله بحفظ حرمته ، وطلب رضاه . وسئل الجنيد من العارف ؟ قال من نطق عن سرك وأنت ساكت . وأخبر بحالك وأنت غائب . وهذا لا ينكره أهل المعرفة ، لأن موسى بن عمران لما التقى مع الخضر فرأى منه تلك العجائب . قال يا نبى الله بماذا أطلعك الله على ما فى قلوب الخلق وأعطاك الحياة فلا تموت إلا إذا أردت ذلك ، قال بتركى الذنوب . فهذا يطرد عن قلب المنكر الإنكار . ويبعده من مقام الإصرار .

وقال أبو بكر الوراق من صحت معرفته بالله ظهرت عليه الهيبة والخشية وهذا مثل ما حكى عن الحسن البصرى أنه مر بصبيان يلعبون فى السكة فلما رأوه تنحوا له عن الطريق فدنا إليهم فقال : ما شأنكم تخيتم ؟ فقال واحد منهم . إنك أصلحت سرك مع ربك فوقعت هيبتك فى قلوبنا . وقال أبو العباس مسروق الطوسى أكثر ما يخاف العارف منه فوت الحق ، كما حكى أن الله جل ثناؤه أوحى إلى صاحب الزبور « يا داود احذر ألا أفوتك فيفوتك كل شىء » . وقال مظفر القرميسينى : العارف من جعل قلبه لمولاه وروحه لبلواه وجسده للمخلوقين فى موافقة رضا مولاه . وقال عبد الله الرازى . العارف لا يعبد الله على موافقة الخلق بل يعامل الخلق على موافقة الخالق .

وقال أبو عبد الله من أراد أن يعرف قدر معرفته بالله فلينظر قدر هيبته من الله فى وقت خدمته لله ويقال أوحى الله إلى بعض أنبيائه اعرفوا

---

(١) حصل مع الله بروحه وسره وعقله ونفسه وفكره لاحصول حلول واتحاد كادعاء الزنادقة

ربوبيتي ولا تعرفوا كيفيتي كما أنكم تعرفونى أنى خالقكم ورازقكم من قبل أن تعرفوا من أين رزقكم ، وفى أى وقت . فكذلك لا تقدرون أن تعرفونى بالكيفية . وسئل محمد بن واسع . هل عرفت الرب ؟ فسكت ثم قال : من عرفه طلبه ، ومن طلبه وجده ، ومن وجده أنس به ومن أنس به استوحش من غيره . ويقال إن من المسائل مسائل جوابها السكوت . وهذا إذا سئل العبد أنت العارف ؟ أو تعرف الله ؟ أو تخاف من الله ؟ أو أنت مؤمن ؟ لأنك إن قلت . لا كفرت وإن قلت : نعم . [ف] ليس وصفك وصف العارفين والخائفين والمؤمنين . وقال جعفر الصادق رضى الله عنه قوله عز وجل إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . قال : المعرفة مثل الملك ، والقرية هى البيت ، كالمعرفة إذا دخلت فى القلب زالت من القلب الأمانى والمرادات أجمع . فلا يكون فيه محل لغير الله(١) . وقال أبو يزيد . المعرفة كالشمس والعلم كالنجوم والعقل كالقمر . وسئل الجنيد من العارف ؟ قال من لم يأسره لحظه ولا نطقه . وقال بشر الحافى رحمه الله . بلغنى أن الله جل ثناؤه يقول . وعزتى وجلالى ما عرفنى من لم يحبنى وكيف لا يحبنى وقد عرفنى ؟ وأين يذهب وهو لا يجد مثلى ، ولا عبدنى من لم يذكرنى . ولا علم قربى من لم يأنس بى .

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه إن فى الدنيا جنة من وجدها لم يشتق معها شيئا ، قيل وما هى ؟ قال . معرفة الله . وأنشد فى ذلك :

إن عرفان ذى الجلال لعز وضيـــاء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضا بهاء وعليهم من الجلالة نور
فهنيئا لمن عرفك إلهى هو والله دهره مسرور

وقل على بن أبى طالب رضى الله عنه . ما أحب أن الله أماتنى فى صغرى ورفعنى فى عليين . قيل ولم ؟ قال تركنى حتى عرفته . ليس العجب

---

(١) هذا اضطراب فى التفسير لأن زوال الأمانى والمرادات ليس فسادا حتى ولا من باب الإشارة

ممن وجد الجنة فى العقبي ، ولكن العجب ممن وجد الجنة فى الدنيا ! . ليس العجب ممن يفتخر بدخول الجنة ، ولكن العجب ممن يفتخر بدخول [جنة] الجنة . فقد صار العارف جنة الجنة . وحصل معه نعيم النعيم ، ولذة اللذة، وسرور السرور ، فسبحان من رفع قدر عبده ، وجعل مثله كمثل الجنة ، ثم رفع منزلته فجعله أعظم محلا من الجنة ، لأنه قال . من وجد من وجد[ه] لم يشتق إلى الجنة ، يعنى لما يرى فيه من العجائب ، ويجد به من [ال]التذاذ . وينال من الأنس بقربه ، والجنة لا يموت من دخلها ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يفتقر ، ولا يذل ولا يظلم . وكذلك أيضا من ظفر بصحبة العارف . ومن الله عليه بذلك ، صار كمثله فتدبروا ياأولى الألباب .

وقال ذو النون فى معنى قوله « وأنه تعالى جد ربنا » يعنى عظمته عن أن يكون إليه سبيل(١) إلا به ولا يكون إلا ما أحدثه ، بل لا دليل على الله سوى الله . ولا أثر بشىء عليه لأنه أبد الآثار . وقال الله تعالى . لا أجعل من علم وجود ما بقى سواى متبرئا من قوته وحوله .

ما إن هبط العارفون مذ عرجوا ولا ابتلوا بالحجاب مذ وصلوا
معرفة العارفين جوهرة . . . تضىء ما دون عرش ربنا الأحد
ليس بمرسومة ولا مخلقة ولا محدودة هو ذا الأبد

وقال ابن عبد الله : للعارف ثلاث علامات لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يدعى باطنا من العلم ينقضه ظاهر(٢) من الحكم ولا تحمله الكرامات على هتك أستار المحرمات .

وقال ذو النون أما العارفون [ف]ما ذكروا الله إلا بالغفلة ولا خدموه إلا فى الفترة فياعجباه كيف يعرف مقداره عبد غفلته تستوعب ذكر الذاكرين وفتوره يستغرق خدمة الخدام من العابدين ، فكيف بأوقات يقظته وساعات نشاطه ! ! وقال ذو النون : لو أن الخلق عرفوا ذل أهل

---

(١) فى الأصل سبيلا .
(٢) فى الأصل ظاهرا

المعرفة فى أنفسهم عند أنفسهم ، لحثوا التراب فى وجوههم [١] . وإنما سمى العارف عارفا لأنه عرف مالم يعرف غيره ، ورأى مالم ير سواه ، وأشرف على ما لم يشرف عليه غيره . قال النهر جورى . تذكرت قول ذى النون الطاهر المقدس فقلت [٢] يرحم الله أبا الفيض [٣] حقا ما قال لكنى أقول . لو أبدى الله تعالى من نور أهل معرفته ذرة [لـ] لزاهدين والعابدين لاحترقوا واضمحلوا وتلاشوا حتى كأنهم لم يكونوا [٤] . وقال ابرهيم الخواص : إن العبد إذا تناهى فى معرفة الله لم يأكل ولم يشرب ولم

---

(١) وذلك لغرابة مشرب هؤلاء الفحول من أهل المعرفة : فالمعروف المتفق عليه بين أهل الأنظار الحكمية . أن الروح إذا تخلصت من كل عوائقها المادية ، والعقلية . والمثالية . فإنها تكون فى حال استعداد تام لتلقى الموارد والمعارف الإلهية ولا شىء يعوق الروح عن التحليق سوى النفس وكلما بالغ طالب المعرفة فى إذلالها سما فى مداركه ، فالعارف يبالغ فى إذلال نفسه نزولا ، ليسمو بمداركه خارج الآفاق صعودا . ولذلك يستغرب العوام مشرب الصوفية الكبار .

(٢) فى الأصل فقال .

(٣) لقب ذى النون المصرى

(٤) لاخلاف فى الحقيقة بين مذهب « ذى النون المصرى » ومذهب « النهر جورى » فكل منهما يتحدث عن ذوقه ، وما وصلت إليه مداركه ؛ لا يقلد غيره ولا يعتمد على ذوق سواه ، كما هو مذهب الصوفية جميعا إذ يقولون « لاخير فيك إذا كنت نسخة من غيرك » فمشرب أبى الفيض ينتهى إلى ما لا يدركه أحد غيره من مجال الوعى الروحى ، بحيث يتهيب أن يتقوم به الله خطوة بعد ذلك والنهرجورى شهد ما شهد حسب مداركه الروحية ، وحكم بعقله هذا الحكم من حيث نور أهل المعرفة الحقيقية وهى معرفة اليقين والتحقيق بالنسبة لمن هم أدنى منهم ، فكيف بالنور العرفانى كله !! .

ولا أدل على مدى الانطلاق الفكرى عند الصوفية من هذه المناقشات التى زخرت بها كتب التصوف المعتبرة .

يتعوط ولا يتبزق ولا يتمخط . وإذا عرق كان عرقه مثل المسك الجبالى .

وقيل العارف يقبل عليك بوجهه كأنه لا يعرف غيرك ، ويقوم عنك كأنه لم يعرفك قط . وهكذا كما قال فى وصف النبي صلى الله عليه وسلم. وقد سئل عن ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : كان يكون معنا فى البيت كأحدكم ، فإذا سمع الأذان قام مسرعا كأنه لم يعرفنا . قال ولقى حكيم حكيما فقال له بماذا عرفت ربك ؟ قال بفسخ الأمور ونقض العزائم ، ومنع الهمم عزمت فحال القضاء بينى وبين عزمى ، وهممت فجاءنى القضاء بخلاف ما هممت به ، فعلمت أن المتولى على قابى غيرى ، فبهذا عرفت ربى . قال : صدقت ، وقال أبو سعيد الخراز فى معنى قوله تعالى وتقدس ، لك . « الملك يومئذ الحق للرحمن » حقيقة الملك لمن هو مستغن عما أبدا فى الملك من جميع المكونات ، لا يرضيه من حركات العبد شيء ، ولا يغضيه شيء جل وتعالى عن ذلك وأنشد فى معناه :

لو كان يرضيه شيء[1] من بريته	لكان إبليس فى غايات إدلال
أو كان يسخطه من رؤية سبب	لكان أسخطه سحر باضلال
فلا رضى ولا سخط يليق به	ولا قبول ولا رد على حال
إن الحقيقة أمر ليس يدركها	أمر الشريعة إلا خطرة البال

وقال بعضهم حقيقة المعرفة . إذا عرفت أنه لم يُعَرف فأنت[2] عارف وقال أبو يزيد . العارف هو الذى أوله هو ، وأوسطه هو ، وآخره هو .

وقال ابن عطاء فى معنى قوله عز وجل « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل » قال حجب الخلق عنه ، وقطعهم عن بلوغ الحقيقة من معرفته ، ومد عليهم ستور الغفلة وحجبها ، وسئل أبو يزيد . بماذا نالوا[3] المعرفة قال بتضييع

---

(١) فى الأصل « شيء يرضيه »

(٢) فى الأصل « فهد »

(٣) فى الأصل أنا لداء

ما لهم والوقوف مع ماله وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » قال : شموس المعرفة هى دلائل القلب ، إلى الله . وسئل الشبلى : من العارف قال من لسانه بذكر الله ناطق . وقلبه بمحبة الله صادق ، وسره بموعود الله واثق . وهو أبدا على الله عاشق[1] ، ثم قال من لسانه لطيف وقلبه نظيف ونفسه عفيف ودينه كثيف وهو بعرفان مولاه شريف . وقال ابن عطاء فى معنى قوله تعالى « وآتيناه فى الدنيا حسنة » قال : المعرفة بنا ، والتوكل علينا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين الراجعين إلى مقام العارفين . وأنشد للمحبين .

محب الله لا تحـــويه دار ... ولا يأوى مكانا فيه جار

ولا يهتم فى الدنيا لرزق ... ويكره أن يكون له العقار

ويصبح ذا احتراق واشتياق ... كأن فؤاده كانون نار

قد احرقه الحبيب بكل نار ... فليس له من الحب القرار

يقول بحرقة وينوح شجوا ... أما والله ما فى الحب عار

وقال بعضهم . فى معنى قوله جل ثناؤه حكاية عن سؤال سليمان عليه السلام « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » أى هب لى المعرفة بك ، حتى لا أرى معك غيرك . ولا تشغلنى كثرة عروض الدنيا عنك . وقال بعضهم فى معنى قوله « إنك ميت » عن شواهدنا . ولولا ذاك ما أديت الرسالة . ولا قمت بسياسة الأمة ، وإنهم ميتون عن شواهد ما أخبرت ، ولولا ذلك ما أطاقوا إقامة الأمر . وقال يحى بن معاذ : خاص

---

(١) أى عاشق لطريق الوصول إليه . عاشق لشريعته . عاشق لتجلياته فى الأكوان . عاشق للخلوة من أجله لا عاشق للذات الأقدس تنزه سبحانه وتبارك . وعلى هذا كل ما جاء عن الصـــوفية من غزل فى مواجيدهم فهم كما نرى أصحاب حساسية وشفافية وفراسه . تختلط الحقائق عندهم بمشاعرهم فينطقون فى رقه لا تعهد فى آداب غيرهم .

العارف لجة بحر لا بد له [معه] من أحد أمرين إما أن يرفع منه إلى[1] أعلى عليين وإما أن ينزل منه أسفل السافلين . وقال ابن عطاء فى معنى قوله « إنك ميت » أى مجالس ميت يعنى عن شواهد ما استتر . وإنهم ميتون عن شواهد ما أظهر[2] .

وقال يحيى بن معاذ . أهل الرغبة صيدهم من الأسواق ، وأهل التوبة صيدهم من مجالس الذكر ، وأهل الزهد صيدهم من مجالسة العارفين ، وأهل الإرادة صيدهم من ملكوت العرش ، وأهل المعرفة صيدهم من قرب خالق العرش ، وأنشد :

حسن عبد أحب مولاه وحسن قلب يصيد معناه
طوبى لمن كان عاشقا دنفا يشكو إلى ذى الجلال بلواه
ياذا المعانى عليك معتمدى طوبى لمن كنت أنت معناه

وقال أبو عثمان المغربى . كل قلب لا يعرف الله فإنه لا يأنس بذكره ، ولا يسكن إليه ، ولا يفرح به ، ألا ترى إلى قوله « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة » وقال الجنيد : إن أردت أن يكون بينك وبين الله معرفة فاحفظ عنى ثلاثا : بع نفسك من الله حتى يفعل بك ما يريد . واحفظ الباطن على رضى الرب ، وانظر فى الظاهر على حكم الكتاب والسنة . وقيل : من عرف مولاه [أ] ذهب بلواه ، ومن خالف هواه صحح تقواه ، ومن ترك شهوة شم من الجنة شمة ، ومن بكى من خوف الله ضحك الله إليه . قال : أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام . ياموسى اعرف شيئين واجهل شيئين ، اعرف أنى مولاك واجهل كيفيتى ، واعرف أنى أرزقك أينيتى فإن إلى ربك المنتهى . وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى :

---

(١) فى الأصل فى

(٢) الناس ميتون دون الوصول إلى شواهد ما أظهر فيك من غرائب المعجزات ؛ وألوان التجليات وأنت ميت عن شواهد الذات المستتر المغيب عن كل إدراك .

« الله لطيف بعباده » اللطيف الذى لم يدع أحدا يقف على ماهية أسمائه ، فكيف الوقوف على ماهية وصفه وذاته . وقيل اللطيف الذى لم يظهر شيئا من الألوان تقف على ماهيته . وقال ابن سلام . إذا صاح البوم يقول سبحان من هو . سبحان من لا يدرى كيف هو إلا هو ، سبحان من لا يعلم أين هو إلا هو . سبحان من لا يدرى ما هو إلا هو[1] .

قوله تعالى « إلا من أتى الله بقلب سليم » قيل العارف قلبه سليم وفؤاده سقيم ، وروحه ونفسه كظيمة ، وبلاؤه عظيم وبدنه على البلوى مقيم . لأن معاملته مع رب كريم . وقيل نفسه مذلل ، وقلبه مذلل ، وروحه مذلل منحل ، وجسمه مسبل . وقال الجنيد : رأيت سبعين عارفا هلكوا بالتمنى والتوهم . أى أنهم توهموا أنهم عرفوا الله وهو قوله « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وقال سهل فى معنى قوله تعالى « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا » قال : يكرمهم [فى الدنيا] بالمعرفة والعلم ، ويوم يقوم الأشهاد بالرضا والرؤية . وقال [أبو سليمان] الدارانى فى معنى قوله « الله لطيف بعباده » ومن لطفه أن قصر عنهم كنه معرفته ، حتى لا تتكدر عليهم نعماؤه ، وقال الشيخ أبو بكر بن دينار رحمة الله عليه : قلوب العارفين مذ ساكنتها المعرفة ما نامت ، ومذ صعدت تلك القلوب إلى مولاها ما نزلت ، ومذ ملكتها [المعرفة] اتصلت [بـ] ما عند الله [و] الله . ما انفصلت . وأنا أقول . كيف ينام قلب هو معدن الإلهام ، واليه مدد الأسقام ، وهو موضع نظر العلام ، كيف تنزل قلوب صعدت إلى العلا ، وغابت عن الورى ، وشمت نسيم القرب والزلفى ، واشتغلت بمشاهدة المولى . من عرف الوهاب عكف على الباب . من صعد العلا خفى نعته عن الورى . من اتصل بالمولى لم تؤوه[2] أرض ولا سماء . من هجم على الملوك قيد بالقيود .

---

(١) خبر ظاهر الاسرائيلية .

(٢) فى الأصل « تأوه »

قوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » قال ابن عطاء فى معناه : انكم لا تدركونها فكيف تدركون نفس النفوس . من له السموات ومشيئته نافذة فى كل شيء . وقال جعفر فى معنى قوله « فكان قاب قوسين أو أدنى » [دنا] منه حتى كان منه مثل ما بين الحاجب إلى الحاجب ، والدنو من الله لا حد له ، والدنو من العبد بالحدود . وقال أبو طالب فى معنى قوله . هو الأول يعنى الأول فى أمره ، والآخر فى حكمه ، والظاهر فى فعله ، والباطن فى وصفه . وقال الجنيد فى معنى الآية . نفى القدم عن كل أول بأوليته ، ونفى البقاء عن كل آخر بآخرتيه ، وأظهر الخلق إلى الأقدار بربوبيته بظاهريته ، وحجب الأفهام عن الإدراك بكيفيته بباطنيته .

وسئل بعضهم عن ذات الله فقال . إن سألت عن قوله فقوله « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن تقول له كن فيكون » وإن سألت عن فعله فكل يوم هو فى شأن . وإن سألت عن وصفه فقل . هو الله أحد [الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد [1]] . وإن سألت عن اسمه فقوله لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » [هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم] وإن سألت عن ذاته فليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وقال بعضهم فى معنى قوله .

« ليبلوكم أيكم أحسن عملا » أيكم أعرف بعيوب نفسه [2] » قال بعضهم فى معنى قوله « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» . قال الأمانة المعرفة الأصلية . وقال سليمان بن داود عليهما السلام للهامة وقد سكنت الطيور منها لكثرة صياحها بالليل . فقال لها . مالك لا تنامين ؟ . قالت يارسول الله والذى أكرمك بالنبوة مذ عرفت ربى ما ذقت طعم النوم فى ليلى ولا فى

---

(١) فى الأصل « إلى آخره »
(٢) فى الأصل أنفسكم

نهاري . وقال أبو علي الكرخي ، كان لي أخ يصحبني وكان قد كتب الحديث وقرأ القرآن ، فمات فرأيته في النوم كأنه في موضع مظلم وهو أسود الوجه فقلت له ما فعل الله بك ؟ قال أقامني بين يديه وقال . خرجت من الدنيا ولم تعرفني . وسئل بعضهم من العارف ؟ قال من يعرف ولا يعرف ويذكر ولا يذكر ويريد ولا يريد [١] . معناه يعرف الله ولا يعرف الكونين . ويذكر ماالله عنده ولا يذكر ماله عند الله . ويريد ما يريد الله ولا يريد غير ما يريد الله . وسئل الزوزني : ما حقيقة المعرفة ؟ . قال إنكار كل من ليس له حول ولا قوة يعني من عرف الله بكمال القدرة أسقط عنه الالتفات إلى من ليس له قدرة فهذا هو العارف .

وقال أبو طالب المكي رضي الله عنه إن المعرفة على ثلاث طبقات : فقوم عرفوه بوصف الأزل والقدم والسرمدية الأبدية وهذا مندرج في اسمين من أسمائه أول وآخر . والعارفون [٢] عرفوه بصفات الجبر والقهر والقدرة والمكر ، وهذا قد أحكمه في الاسمين ظاهر وباطن . وليس هذا من معرفة المحبين في شيء . والمحبون عرفوه بصفات التجلي ومعاني ونعوت أخلاقه وهذه [٣] سرائر الغيوب ومشاهدة المحبوب وأنشد لبعضهم :

سبحان من جل في قدره أن يدرك الأقرب من وصفه
ومن تجلى بصنوف البلاء ليشهد الألطاف من لطفه

وقال الحسين الحلاج . عندي أن المعرفة هي الجهل ، والتواضع هو التكبر . والعز هو الذل والبقاء هو الفناء ، والذكر هو الغفلة والنسيان . وقال بعض أهل المعرفة في تفسير ما أشار إليه . من لم يحب كل ما دون معبوده لم تصح له معرفة معبوده وقيل في معناه . المعرفة في ذات الله جهل ، ومن لم يتكبر على المتكبرين لم يصح تواضعه لرب العالمين ، ومن لم يتذلل للعزيز لم يصح له

---

(١) في الأصل يراد
(٢) في الأصل عارف
(٣) في الأصل وهذا

التعزز بالعزيز . ومن لم يفن عن الفناء لم يصح له مع الباقى البقاء ، ومن لم ينس كل ما سواه لم يصح ذكره لمولاد . وقال بعضهم المعرفة نار ، والمحبة نار النار . والإيمان نور والتوحيد نور النور ، فإذا اجتمع ذلك صار نورا على نور وأنشد :

مجال قلوب العارفين بروضة سماوية من دونها حجب الرب
سرائرها بين الحبيب وبينها فلا شيء إلا رؤية العبد للرب

باب صفة الإخلاص وطبقات المخلصين بالقلب

الإخلاص هو من فرائض الدين ، وبه يتم الإيمان للمؤمنين ، وهو معروف فى شريعة المسلمين ، وهو لباب الأعمال ، ومنال ذى الجلال ، والعمل بغير إخلاص كالجوز بلا لباب ، والجسم بلا روح ، وكالشجر بلا ثمار ، وكالغيم بلا مطر ، وكالمولود بلا نسب ، وكالبذر بلا نبت ، والجوز بلا لباب لا يصلح إلا للعب الصبيان ، والجسم بلا روح لا يصلح إلا للدفن بين القبور ، والشجر بلا ثمار لا يصلح إلا للحرق بالنار ، والغيم بلا مطر لا ينتفع به من البشر ، والمولود بلا نسب لا يدفع إليه عند الميراث ذرة من المتاع . والبذر بلا نبات تسخن به عين الزراع يوم الحصاد والبيدر فلو أن جسما ملأ الدنيا تعبدا من شرقها إلى غربها ، ولم يكن فيها روح ، لم يؤنس بقربه ، ولم ينتفع به ، ولا ترجى بركته ، ويتغير بطول المدة ، وتزدحم عليه الكلاب ، وتطمع فيه الهوام والطيور ، ولا يجعل له من القيامة ذرة ولا حبة ، وإن كان قد ملأ بين الخافقين عظيم جثته .

ولو أن مولودا ذا روح انفصل من رحم أمه لم يملأ من المكان إلا موضع شبر وجد الأنس بقربه وفرحت القلوب بظهوره واستبشر أهل البيت والجيران بوجوده وعظم الرجاء لنيل بركته فى وقت صغره وكلما طال به الأيام ازداد جلادة فى قلوب الأنام وهرب منه الذر . والطيور والهوام طائرون من حركته ويجعل له يوم القيامة اثنا عشر ألفا . فهذا فى فرق واحد

من الحكمة بين العمل الذى قد زين بالإخلاص . والعمل الذى قد عرى منه وقبح بالأسقام . والله يؤتى ملكه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وأما الإخلاص [ف] يدور على أوجه خمسة إخلاص الملة من بين جملة الملل ، وإخلاص الدين القيم من الشيع والأهواء والبدع ، وإخلاص العمل من دقائق الآفات وخفايا العلل (١) ، وإخلاص الأقوال من اللغو والباطل

---

(١) يحسن هنا أن نفصل مسألة السماع . لأنها فى طريق التصوف من أمهات العلل والآفات .

قال سيدى أحمد زروق : الواجد إن لاحظ معنى فى وجده أفاده علما أو عملا أو حالا مع ميله للسكون والاستلقاء ظاهرا فوجده من الحقيقة والمعنى . وإن لاحظ الوزن والألحان ؛ فطبيعى . لاسيما إن أعقبه اضطراب واحتراق فى النفس ؛ وإن لاحظ نفس الحركة فشيطانى ، سيما إن أعقبه اضطراب وهوشة فى البدن واشتعال نارى ، فلزم اعتبار ذلك بوجه من التحقيق تام ، وإلا فترك سببه أولى (راجع قواعد التصوف . ص ٥٠ القاهرة) .

وقال الشيخ الأكبر : إن سماع النفس لايأتى بعلم ألبتة ، وسماع العقل لاتسكون معه حركة ، فمن جمع بين الحركة والعلم فهو كاذب جاهل بالحقائق (التدبيرات الإلهية . ص ٢٢٤ ليدن) .

وروى الكلاباذى عن الإمام ابى القاسم الجنيد البغدادى . أن الحركة عند السماع لا تقدح فى التحقق بالسماع . إذا كانت الحركة بعد أن تمتلىء الروح من قوتها ، وهى النغمة ، فتشرف على مقامها الأصلى ، فتعرض عن تدبير الجسم ، فيظهر عليه الاضطراب والحركة (التعرف ١٦١ القاهرة) .

وعد سيدى أحمد زروق صاحب هذا الحال من المجانين ، وأسقط اعتبار أفعاله ؛ ولم يجر عليه الأحكام إن تحقق وجود الحالة منه ، وألزمه باستدراك الفائت كالسكران لتسببه فى الأصل (القواعد ٤٩) وجمعا بين الآراء فالمتحرك فى السماع الروحى وسط بين الجاهل والعارف .

وعد «لسان الدين بن الخطيب» السماع من محركات الحب على الإطلاق . فإذا

والحال ، وإخلاص الأخلاق باتباع مرضاه ملك الخلال ، وأنا أشرح لك إن شاء الله هذه الأوجه وأستدل لكل وجه [ب] آية من الكتاب وأبين لك مكتوم الخطاب مع ما تيسر من أقوال أهل الصدق والصواب ولا قوة إلا بالله ، وماالنصر إلا من عندالله ، وماالتوفيق إلا بالله ، ولا يكون إلا ماشاء الله ، وما التكلان إلا على الله ، وما العون إلا من عند الله .

فأما الوجه الاول [و] هو إخلاص الملة من بين جملة الملل كما قال الساتر على القبائح والعلل « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابرهيم حنيفا وما كان من المشركين » قال ابن العباس . الأديان ستة . خمسة منها باطل . اليهود والنصرانية والمجوسية والصابئة والمشركين فهذه باطلة . والحق الواحد وهو دين الإسلام . قال الله تعالى « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين . وقال بعضهم : كان الناس أمة واحدة على دين الإسلام فاختلفوا فقوم عبدوا النور ، وقوم عبدوا النار ، وقوم عبدوا الظلمة ، وقوم عبدوا الملائكة ، وقوم عبدوا الجمادات ، وقوم أشركوا مع الله بعزير ، فسموا يهودا وقوم أشركوا مع الله بعيسى فسموا نصارى ، وقوم عبدوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . قال إن ما وقع عليه المخالفة [كان] يوم الذر وذلك أن الله جل ثناؤه لما أخرج الذر من العدم إلى الوجود ، أوقفهم فى الظلمة ؛ ثم رش عليهم من نوره ؛ رشة ، وركب فيهم نور [ا] به اللطائف الثلاث . ذهن الروح ؛ وفهم العقل وفطنة القلب ؛ فصاروا ذوى[1] سمع وبصر وفهم ومنطق تقع الحجة على

= حصل الحب . اختلف فيه أحوال العشاق بحسب ضعفهم وتمكينهم . فنهم عن يكون السماع فى حقه معدلا ؛ ومنهم من يكون مغريا أو مهلكا فإذا حصل الرسوخ والتمكين لم يكن هناك إحساس (روضة التعريف . فيلم مصور ١٤٢ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) .

وقسمه الهروى : إلى سماع العامة والخاصة ؛ وخاصة الخاصة .

(١) فى الأصل ذوات .

أمثالهم ثم دعاهم إلى نفسه ، وألزمهم العبودية لنفسه وحده ، فطائفة نظروا من النور فاختلط عليهم الأمر فعبدوا الظلمة ؛ وقوم نظروا من النور إلى النار فاختلط عليهم الأمر فعبدوا النار : وقوم نظروا من النور إلى الملائكة فاختلط عليهم الأمر فعبدوا الملائكة ؛ وقوم نظروا من النور الذى كانوا فيه إلى النور الذى كانوا فيه[1] فوقعوا فى بحور التشبيه فاشتركوا فى العبودية مع الله تعالى الله عما يقولون [فعبدوا] عيسى وعزيرا عليهما السلام ، وقوم دعاهم الجليل فلم ينظروا إلى قاطع ، ولم يشتغلوا بمانع ، بل نظروا من النور إلى نور النور[2] ، فأقروا بالربوبية ، وأخلصوا بالوحدانية ، وأذعنوا خاضعين بالعبودية ، فهم الذين عبدوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

قال ولقى حكيم حكيما فقال له : هل تحب لقاء الله ؟ قال نعم . قال . ولماذا تحب لقاءه ؟ قال لأصل التخيير . ونفيا للتهمة[3] وذلك أن الله تعالى لما اختار فى الأصل دين الملائكة والنبيين ثم مع هذا بارزته حتى كدت أن أقنط من رحمته فوثده [هى] التهمة بعد علمى بالتخيير ؛ ثم قلت ترى أن الذى أحسن إلى فى أوله يسىء إلى فى آخره ؟ فرجوت أنه لا يفعل ذلك فأحببت لقاءه لنفى التهمة فقال له أحسنت . فانظر بقلبك يا مغرور كيف خلصك الملك الغفور ، من عبادة النار والنور ، ونجاك من الآفات والشرور .

---

(١) أى نظروا من النور الذى كانوا فيه وقت أن رش الله عليهم من نوره إلى النور الذى كانوا فيه قبل أن يخرجهم الله على هيئة الذر أى نور العلم الإلهى ووقعوا فى التشبيه لما اشتبه عليهم النوران .

(٢) والفرق بين هؤلاء وبين سابقيهم أن النوع الأخير نظر من نور الرشة إلى نور النور وهو الله تعالى . الله نور السموات والأرض أما من قبلهم فنظروا إلى نور العلم أى إن النوع الأول نظر إلى نور الصفة والنوع الثانى نظر إلى نور الذات

(٣) الاصل وإنفا التهمة .

ووفقك للصواب من رش النور فيالها من نعمة لا يؤدى شكرها فى الأيام والليالى والدهور .

والوجه الثانى : هو إخلاص الدين من الفرق والشيع والأهواء الفاسدة والبدع المضلة وقد أخرج الله تعالى أهل البدع من جملة المسلمين ، وجمهور الأمة ، ومحصول الدين ، بقوله عز وجل « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » قالت عائشة رضى الله عنها . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء فقال : هم أهل البدع وأنا منهم برىء وهم منى براء . وقال صلى الله عليه وسلم . افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث[1] وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة وفى رواية كلها فى النار إلا السواد الأعظم وفى رواية كلها ضالة مضلة ، يدعون إلى النار . وقال أبو عاصم . فى تفصيل الفرق . أصل البدع كلها ستة أصول . الزنادقة والجهمية والقدرية والمرجئة والرافضة والحرورية . فافترقت الزنادقة على خمس فرق . والجهمية على ثمان فرق والقدرية على سبع فرق . والمرجئة على اثنتى[2] عشرة فرقة . والحرورية على خمس[3] وعشرين فرقة . فذلك اثنان وسبعون فرقة فهؤلاء هلكى كلهم .

وقال أبو طالب المكى رضى الله عنه . والبدع كلها معاصى ، غير أن فيها صغائر وكبائر ، فمن كبائرها ، خمس أهل النقل والأثر مجتمعون على تكفير أهلها . القدرية مجوس هذه الأمة ، والمرجئة نصارى هذه الأمة ، والجهمية يهود هذه الأمة ، والرافضة مشركوا الأمة ، الذين كفروا أحدا من الصحابة والزنادقة كفار هذه الأمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعوا ولا تبتدعوا وبشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وإياكم والحدث والبدعة ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ،

---

(١) فى الاصل ثلاثة .

(٢) فى الاصل « اثنا عشر » .

(٣) فى الاصل « خمسة »

وإياكم والتبدع والتعمق ، فإن شرار . عباد الله المتعمقون المتشدقون ومن اراد بحبوحة الجنَّه فليلزم الجماعة ومن شذ ففى النار » وقال صلى الله عليه وسلم « كلاب أهل النار أصحاب البدع ، وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع فليست لهم توبة وأنا منهم برىء وهم منى براء » وقال إبليس « سولت لأمة [محمد] بالمعاصى فقطعوا ظهرى بالاستغفار ، فلما رأيت ذلك سولت لهم ذنوبا لا يستغفرون منها يعنى الأهواء والبدع[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله اختارنى واختار لى أصحابا وجعلهم أصهارى وأصحابى . فإنه سيجىء فى آخر الزمان قوم ينتقصونهم ، فلا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ، ولا تعودوهم إذا مرضوا ، ولا تصلوا عليهم إذا ماتوا .

وقال على رضى الله عنه « ما قطع ظهرى فى الإسلام إلا رجلان[2] مبتدع ناسك وعالم فاجر ، فالعالم الفاجر يزهد الناس فى علمه لما يرون من فجوره ، والمبتدع الناسك يرغب الناس فى بدعته لما يرون من نسكه ، وعمل قليل فى السنه ، خير من عمل كثير فى البدعة ، وأنشد فى ذلك .

طوبى لعبد عبد الله وصلى وابتهل
الدين دين بينٌ قد أوضح الله السبل

يا أخى . كيف ينجو [ال] جاحد الزنديق غدا من النار والحريق ؟ بعد شتم الصادق الصديق ؟ ومايضر الفاضل الصديق ، شتم جاحد زنديق ، بعد ما شهد له المصطفى أنه صديق ، ورضى عنه الملك الشفيق .

والوجه الثالث : هو إخلاص العمل من دقائق الآفات . وخفايا العلل

---

(١) وأساس كل ذلك حب التعالم والظهور والتأويل . وإنما دخل فى الإسلام ناس ليكيدوا له فأدخلوا المسلمين فى جدل حول مسائل لم تكن مجال الجدل فى عهد السلف فضلوا وأضلوا .

(٢) فى الاصل : رجلين .

(٣) فى الاصل: نصر .

كما قال الآخر الأول فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ، قال الأنطاكى فى معنى الآية : من خاف المقام بين يدى العلام ، فليعمل عملا صالحا على أساس الإخلاص والتمام ، ولا يشرك ولا يرائى بطاعته لربه أحدا من الأنام . وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادى المرء يوم القيامة على رءوس الخلائق بأربعة أسماء ينسب إليها . يقال له . يا فاجر . يا غادر ، يا كافر . يا ظالم . ضل سعيك وبطل عملك . اذهب فالتمس الأجر ممن كنت تعمل له يا خاسر » وقيل . لا يعرف الرياء إلا المخلص ، ولا يعرف النفاق إلا المؤمن ، ولا يعرف الكذب إلا الصادق ، ولا يعرف الغش إلا ناصح ، ولا يعرف الغفلة إلا تائب ، ولا يعرف الزيادة والنقصان والإقبال والإدبار والقرب والبعد إلا عارف » وقال على رضى الله عنه : يامرائى حبط من عملك عمل ثمانين سنة : وقال صلى الله عليه وسلم « من راءى الله راءى الله به . ومن سمع الله سمع الله به . سامع خلقه صغره وحقره . وكم من موسع عليه فى الدنيا مقتور عليه فى الآخرة . ومقتور عليه فى الدنيا موسع عليه فى الآخرة ومستريح ومستراح منه . قيل . المستريح المؤمن من غموم الدنيا وهمومها ومصائبها ، ويفضى إلا رحمة الله تعالى ، والمستراح [منه] يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب . وقال يحي بن معاذ . العمل الصالح ما يصلح للعرض على الجليل ولا يُستحىَ منه فى تلك المشاهدة يوم البكاء والعويل . ثم قال « ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » لا يرائى بطاعته أحدا مثلك . فإنه لا يضرك ولا ينفعك ، ولا يرزقك ولا يحفظك ، ولا يعطيك ولا يمنعك ، ولا يحييك ولا يميتك ، أخلص عملك لمن يقدر لك على هذه الأشياء كلها . وقال الجنيد . لا يتم الإخلاص فى العمل إلا بارتفاع رؤيتك وفنائك عن فعلك . وقيل . من غضب إذا ذكر [ت] عيوبه فهو مرائى ، ومن ازداد بالمدح وانتقص بالذم فهو مرائى ، ومن نشط فى الملأ وكسل فى الخلا فهو مرائى وقال عيسى عليه السلام «يكون فى آخر الزمان قوم يقصون

الشوارب ويقصرون الثياب ويطيلون الصلاة كى يفسح لهم فى المجالس ويبدأون[1] بالسلام يقال لهم يوم القيامة يا عبيد الشهوات خذوا أجوركم ممن عملتم له .

والوجه الرابع : لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة [أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما] فنفى الله تعالى أن يكون فى كلام العبد نفع للعبد إلا فى هذه الثلاث . وهى كلمات جامعات فى المعنى مختصرات فى اللفظ . فالأول . قوله « إلا من أمر بصدقة » قيل فى تفسير الظاهر هو الفرض . وقيل موعظة الأخ أخا لله هى صدقة يتصدق بها عليه ، وكف أذى لسانك عن المسلمين صدقة ، وإرشادك الأعمى إلى الطريق صدقة . ثم قال « أو معروف » وهو كل ما قبله العلم وعرف مثله فى الأثر الصحيح ثم قال : « أو إصلاح بين الناس » وهو الكلام فى إصلاح ذات البين . ثم قال « ومن يفعل ذلك» يعنى هذه الخصال . المذكورة . يقول : لا كل من عمل بهذه الخصال قبل منه ، ولكن من عمل مخلصا بها لا لرؤية خلق ، واتباع هوى ، بل طلبا [لـ] رضى الله عنه . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما . والعظيم من الجزاء لا يقدر قدره إلا العظيم . ومثله قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسكم الآية .

ويقال . كل ما فى كتابنا : يا أيها الذين آمنوا [و] وفى التوراة يا أيها المسكين . وليس شرف العبد إلا فى التمسك بالمسكنة والفقر والانكسار والخضوع تحت هيبة الرب ، ألاترى إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم لما نظر فى الملك والملكوت ، فلم ير شيئا أجل قدرا وأعظم خطرا من المسكنة ، فسأل مولاه ذلك فقال: اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين[1] ؟ . قال ابن عباس فى تفسير الآية: كونوا قوامين يعنى

---

(١) فى الأصل ويبدون

(٢) ليس معنى هذا أن التوراة أتم من القرآن فى السلوك الدينى ، بل إن=

قوالين ناطقين بالعدل « شهداء لله » ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، أو على أبويكم ، أو على أقربائكم ، لا تميلوا مع الهوى فى أقوالكم ، ولكن انطقوا بالحق . ولقد أوحى المسمى بالصبور إلى صاحب الزبور . يا داود . حرام على قلب يحب الدنيا أن يقول الحق . وقيل إنما ينطق بجميع لسانه ، يقال كل كلام ابن آدم عليه لا له غير أربع . ذكر الله ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وإصلاح ذات البين .

ويقال كان عمر بن عبد العزيز إذا خطب واستحسن خطبته قطعها ، وإذا كتب الكتاب واستحسن عبارته فيه[1] خرقها ورمى بها ، لمعرفته بآفات الكلام[2] وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم واليوم

= الرسالات السماوية نزلت بالتدرج التعليمى ، وبدأت فى الطريق من أوله حتى انتهت إلى ذروة التعليم الدينى فى الإسلام . ولذلك كانت رسالة اليهودية والنصرانية تنتزعان نحو التجرد الكلى ، والرهبنة ، والتخلى عن كل ما هو من شئون الحياة المترفة . إلا من الكفاف والتخشن فى اللباس . ولذلك كان النداء « يا أيها المسكين » تربية للعقول السائرة على مدرجة الطريق ، فلما جاء الإسلام بتقويم الحياتين : الدنيا والعقبى . ونادى بتعميرهما وعدم طغيان واحـــدة منهما على الأخرى . وإظهار آيات الله فى الخلق بالعلم والسعى والفكر . كان لابد هنا من الإيمان العميق ، فكان النداء فى الإسلام « يا أيها الذين آمنوا » وكان لا بد من استبطان المسكنة فى قلوب المؤمنين لحفظ الإسلام وتقويم النظام . من هنا كان دعاء النبى صلى الله عليه وسلم

(١) فى الأصل « فيها

(٢) هذه سنه الصوفية لا يعتبرون كل كلام للنفس فيه مدخل ، وكان الأستاذ الخواص فى تربيته للإمام الشعرانى يأمره بإبادة ما يكتب فى أول أمره ، لأن فيه أثر النفس . فهم يريدون أن يكون العلم كله بعيدا عن النفس ، فإذا كان خالصا من القلب هجم على القلوب . ومن هنا سر التأثر البالغ بكلام كبار رجال التصوف دون غيرهم .

الآخر فليقل خيرا أو ليصمت . وقيل : المخاص من تعد كلامه عدا ويُمسِّن بالكلام ، ويفقد بعد الكلام .

ويقال فى اللسان ستة وثلاثون نوعا من المعصية . مثل المداهنة والنفاق[1] والتزين والجدال، والمراء والخصومة، والقذف وشهادة الزور واليمين الفاجرة ، والغيبة والكذب والبهتان[2] ، والنميمة واللجاجة ، والمدح والذم والسحر ، والكفران للنعمة والمعصية بالباطل ، وما يطول بذكره الكتاب فمن سكت فقد أغلق على نفسه ستة وثلاثين بابا من أبواب المعصية . فيا لها من ربح .

وقيل : من تكلم بكل ما يريد لم يتورع فى كلامه ، ومن أكل ما يشتهى لم يتورع فى طعامه ، ومن نام بالليل أكثر من ثلاثة أرباعه لم يتورع فى منامه ، ومن زاد ثمن كسوته [عن] أربعين درهما لم يتورع فى كسوته ، ومن رفع بنيان بيته على ثمانية أذرع لم يتورع فى بنيانه . ومن علا صوته عند ضحكه لم يتورع فى ضحكه . وقال . من سمع الكلام ليتكلم [به] مع الناس رزقه فهما ليكلم به الناس . ومن سمعه ليعامل الله به فى فعله ، رزقه الله فهما يناجى [به] ربه .

الوجه الخامس :

هو إخلاص الأخلاق باتباع مرضاة الملك[3] الخلاق ، كما قال اللطيف الرزاق مدحا للنبى المصداق « وإنك لعلى خلق عظيم » قال أنس بن مالك خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع سنين . فلا والذى بعثه بالحق نبيا ، ما قال لى فى شيء فعلته وهو يكره ذلك لم فعلته ، وما تركت شيئا قط من خدمته كان يجب أن أفعله فقال لى مالك لم تفعله ، فضلا على أن يلزمنى

---

(١) الفرق بين النفاق والمداراة أن النفاق إظهار ما ليس فى الباطن لجلب منفعة أما المداراة فإنها إظهار ما ليس فى الباطن لدفع مضرة ، ومن المداراة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لنبش فى وجوه قلوب قوم ، وإن قلوبنا لتلعنهم

(٢) البهتان نوع خطير من الغيبة وهو ذكر المرء بما يكره وبما ليس فيه .

(٣) فى الأصل : ملك .

فى شيء . وما كان يلومنى أحد فى شيء إلا قال دعوه . فإنما كان هذا بكتاب وقدر[1] . وكان إذا أراد أمرا فتعسر عليه يقول : لو قدر لكان . وما كان يعيب الطعام إذا قدم إليه ، إن اشتهى أكل وإن لم يشته ترك ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر . فأما فى شيء من حقوق الله ، أو فيما بين الناس بعضهم مع[2] بعض ، فليس عنده هوى لقريب[3] ولا بعيد ، وإذا غضب لله يتطاير الناس من حوله كما يتطاير الصوف من ظهر الغنم ، إذا أصابه العاصف من الريح ، فهذه أخلاقه التى مدحه الله بها . وذكر ذلك فى كتابه « وإنك لعلى خلق عظيم » قال أنس رضى الله عنه . وكان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس قواما ، وأحسن الناس وجها ، وأطيب الناس ريحا ، وألين الناس كفا . ما شممت رائحة قط مسكا ولا عنبرا أطيب من رائحته ، وماسست قزا ولا حريرا ألين من كفه ، ولقد قالت عائشة رضى الله عنها فى ذلك :

ماضر من قد شم تربة أحمد ألا يشم الدهر ريح غواليا
صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

وقال ابن عطاء فى معنى قوله وإنك لعلى خلق عظيم . قال . جاد بالدنيا والعقبى عوضا من المولى ، زهد فى الدنيا ولم يحب العقبى ، ولم يطلب من المولى سوى المولى . وقال الجنيد . احتمل من الله البلاء[4] ماشكا ، بل رحم وعفا ، فقال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . فأثنى الله عليه فقال . وإنك لعلى خلق عظيم حيث لم يؤثر فيك البلاء .

وقال أبو بكر الخوارزمى فى معنى قولة وإنك لعلى خلق عظيم ليست

---

(١) هذا هو مشهد الصوفية على السنن المحمدى ، لا يتقززون من شيء لأنه إجراء الله على العباد ، فهم يشهدون الحكمة ولا يعترضون على العمل ، ولا يهملون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(٢) فى الأصل « فى »

(٣) فى الأصل « بقريب »

(٤) هذه العبارة كررت فى الأصل مرتين .

لك همة غيرنا . إن قلت فلنا ، وإن نظرت فبنا ، وإن جلست فعنا ، وإن أحببت ففينا ، وإن دعوت فإلينا ، وإن سمعت فمنا ، وإن نزلت فعندنا . ليس مما معك لك شيء ، بل جميع ذلك وكليته لنا . وقال الواسطى فى معنى الآية ، الخلق لا يحتمله العامة ، والخلق لمن تخلق بأخلاق الرب لأن الله عز وجل أوحى إلى داود تخلق بأخلاقى فإنى أنا الصبور فمن أوتى [ذلك أوتى] أعظم المقامات . لأن [ا] لمقامات ارتباطا بالعلوم[1] ، وللخلق ارتباطا بالصفات والنعوت . وفى الخبر أن لله تعالى ثلاثمائة وبضعة عشر خلقا من لقيه بخلق منها دخل الجنة ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه هل [فىّ] منها خلق واحد يا رسول الله ؟ قال : كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله السخاء[2] . فانظر إلى هذه الفضيلة التى صغر فى جنبها كل فضيلة ما يسأل عن مقام من اجتمع فيه ثلاثمائة وبضع عشر جزءا مما لو اجتمع منها جزء واحد فى جميع الخلق لدخلوا كلهم الجنة .

وقال الحسن البصرى رحمه الله فى معنى ذلك عظم خلقك حيث لم ترض بالأخلاق ، وسرت ولم تسكن إلى النعوت ، حتى وصلت إلى الذات ،

---

(١) المقام ما يثبت من الحال ، والمقامات تثبت صاحبها فى الصبر والرضا والشكر وهى أساس العلوم حقا ، فالصبر من مستلزمات العلوم ، والرضا عن الله يمنع العالم عن التأويل لمصلحة هواه ، والشكر داعية الزيادة ، وهكذا بقية المقامات .

(٢) لا يجتمع عرفان وبخل بأى حال من الأحوال ، وقد كان سيدى أحمد العربى الدرقاوى يختبر المريد الذى قارب الفطام فى ماله ؛ فإذا وجده سخيا مضى به فى السلوك ، وإن وجده شحيحا أوقفه فى مكانه ، وذلك لأن المال من محبوبات النفس والهوى . فالشح به يميل بالنفس على أبسط التقديرات إلى تأويل شحه والخروج به إلى مخرج الجواز الشرعى . ومن هنا أحب الله السخاء وأحب صاحب السخاء .

ثم فنيت عن الذات بالذات، حتى وصلت إلى حقيقة الذات ، ومن فنى بالفناء عن الفناء كان القائم غيره بالفناء[1] . وقال بعض المحبين .

أشير إلى حق بحق وإنني   لفي حق حق للحبيب أغيب

وقد فسر [ت] هذه الآية بوجوه كثيرة .

وقال الضحاك في معنى قوله « وسيدا وحصورا » قال : السيد الحسن الخلق ، والحصور الذي لا يأتي النساء ، وقيل في معنى قوله « وثيابك فطهر » يعني وخلقك فحسن . وقال بعضهم . إن الله جل ثناؤه أعطى المؤمن خمسة أنوار : نور الهداية ونور التوفيق ، ونور العبادة ، ونور الكفاية ، ونور الرعاية ، فبنور الهداية أخلص إسلامه ، وبنور التوفيق أخلص إيمانه ، وبنور العبادة أخلص أفعاله ، وبنور الكفاية أخلص أقواله ، وبنور الرعاية أخلص أخلاقه ، وقال بعضهم : إخلاص الدين للمسلمين ، وإخلاص الإيمان للمؤمنين ، وإخلاص الأفعال للمتقين ، وإخلاص الأقوال للمحبين ، وإخلاص الأخلاق للعارفين . وقال صلى الله عليه وسلم ، يجيء الإخلاص والشرك يوم القيامة فيجثوان بين يدي الرب تبارك وتعالى فيقول الله للإخلاص : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ، ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار .

وقال الداراني : كل عمل لا ثواب له في الدنيا لا أجر له في العقبى ، يعني

---

(١) الفناء عدم رؤية الأكوان ، والتوجه إلى الله باستلهام العون منه تعالى . والفناء عن الفناء نسيان الفاني أنه فني عن الأكوان ، وذلك حين يصير الفناء ملكة من ملكات روحه ، ومثال ذلك . الكاتب على آلة الكتابة الماهر في ذلك . تضرب أصابعه الحروف دون تفكير فيها ولا بحث عنها . وهذا مثال مع الفارق طبعا ومن فني عن فنائه حتى صار له . كالملكة . كان مسيرا في فنائه من ربه . وكان فانيا بربه لا بنفسه أما ملاحظة السالك لفنائه . وتتبع دقائق فنائه والمحافظة على فنائه . فذلك للـ[illegible] فيه مدخل . وليس من فناء الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من فناء كبار العارفين من الصوفية .

وجود الحلاوة فى العمل هو ميراث العمل ، فمن لم يجد ذلك فهو من قلة إخلاصه فى العمل [١] ، وكل علم لا يجد العبد نفعه فى نفسه ، لا يصل نفعه إلى غيره . وقال أحمد بن أبى الحوارى . قلت لأبى سليمان الدارانى . صليت صلاة فى خلوة فوجدت لها لذة ، قال وأى شىء ألذمها ؟ قلت حيث لم يرنى أحد . قال : إنك لضعيف حيث خطر بقلبك الخلق ، إنك لا تكون مخلصا فى عملك حتى لا ترى فى الدارين أحدا غير ربك . وهذا على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون الناس عنده كالأبعرة » فهذا حقيقة نفى رؤية الخلق للعبد عند العبد ، ثم قال فى تمام الوصف ، ثم يرجع إلى نفسه فيراها أحقر حاقر ، وهذا حقيقة نفى رؤية العبد للعبد فى العبد ففى الفصل الأول علة الخلق ، وفى الفصل الثانى علة النفس . ولا يخلص عمل العبد إلا بنفى العلتين جميعا .

وقال الدارانى : إن من لطائف المعاريض قوله جل ذكره « ألا لله الدين الخالص » تهديد بلطف . وهذا كما يقول الرجل إذا كان له أمر نافذ فى الناس فيراهم يتطففون بالكيل بالأقفزة الناقصة ، فيقول لهم من غير تصريح بالتهديد : عندى قفيز تام . فهذا قد هددهم بتهديد لطيف . كأنه يقول . سوف أظهر لكم خسرانكم إذا غيرت أقفزتكم الناقصة بقفيزى

---

(١) بل الوقوف عند حلاوة العمل ضلال فى طريق السلوك . والقاعدة فى السلوك الصوفى أن كل مايرد على الروح من حلاوة الأعمال التى هى روحها . أو واردات العلم الكلية عند الذكر أو التأمل العميق . فإنه من الخطأ الشنيع الوقوف عندها وتأمل تفاصيلها . لأن ذلك حجاب كثيف عنها وعن غيرها . أما أنه حجاب عنها . فلأن السالك بمجرد وقوفه عند شىء من ذلك . فقد حرم تفاصيله ودقائقه لأن هذه الواردات لا تأتى إلا مجملة ، وأما حجابه عن غيرها . فلأن المطلوب ليس هو تلك الواردات التى تعتبر عند الصوفيه كلعب الأطفال ، وإنما المطلوب هو الحقيقة الكبرى . هى المعرفة الإلهية القدسية . فمهما شهدت فى السلوك . فلا تلق له بالا . لأن المطلوب لازال أمامك . وليس له مبدأ ولا نهاية .

التام . ومثل هذا [ال] تهديد بلطف قوله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لما خالفه الخلق وآذوه ولم يجيبوه فى دعوته إلى الله . تلطف[1] الله فى التهديد فقال عز وجل : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » وهذا كما يقول الرجل لصاحبه : إذا عزم على عقوبة مخالفه . قل : بسم الله وخل بينى وبينه . فهذا قد بالغ فى التهديد بألطف لطيفة . وكان معروف الكرخى قد علق بجنبه سوطا لتأديب نفسه إذا أنكر منه حاله ، فدخلوا عليه يوما فإذا هو يضرب على ساقه ويعاتب نفسه ويقول : يامسكينة كم تبكين وتندمين أخلصى وتخلصى . فنظر إليهم وقد وقفوا عليه فقال : ياأصحابى . لا تلومونى فإن الغريم اللجوج لا يدفع الحق إلا بالضرب والحبس ، ومثل هذا قول . بشر . يا ابن آدم نفسك لا تطاوعك فيما تريد فلا تطاوعها فيما تطلب .

وقال حاتم الأصم تعاهد نفسك فى خمسة أشياء . العمل الصالح بغير رياء ، والأخذ بلا طمع ، والعطاء بغير ضن ، والإمساك بغير بخل ، والأكل بغير شره . فالرياء مع العمل خسران ، والطمع مع الأخذ نقصان ، والمن مع العطاء بهتان ، والإمساك مع البخل[2] كفر وطغيان والشره مع الأكل ظلم وعدوان ، والرياء آفة العمل ، والطمع آفة الأخذ ، والمن آفة العطاء ، والبخل آفة المال ، والشره آفة الأكل . وقال حاتم الأصم . تعاهد نفسك فى ثلاثة مواضع لعلك تنال الشرف والخلاص إذا عملت فاذكر نظر الجبار إليك ، وإذا تكلمت فاذكر سمع الغفار ، وإذا سكت فاذكر فيك علم القهار ، فمن عمل بمشاهدة نظر الجبار صفى عمله من القذى والأقذار ، ومن نطق بمشاهدة سمع الغفار أخرج كلامه بالوزن والعيار ، وإن سكت بمشاهدة علم

---

(١) فى الأصل . لطف .

(٢) فى الأصل « والبخل مع الإمساك » أما وجه كون الإمساك مع البخل كفرا . فهو من كفران النعم أو كفران صفة الكرم ؛ التى هى من صفات الله تعالى أو أن هذه الصفة تجر إلى نسيان المنعم ؛ ثم الاستقلال بالمال ، ثم المجاهرة بالاستقلال بالحصول على المال دون نظر إلى السبب الأول كما حدث لقارون

القهار ، اجتهد فى خلوص سره من الاشتغال بكل مخلوق وديار . وقال أحمد بن أبى الحوارى من عمل بغير اتباع السنة بطل عمله ، ألا ترى إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أدخل فى ديننا ماليس منه فهو رد .

وسنة الرسول عليه السلام ثلاث : حب الخليل ، وطاعة القليل ، وطاعة الذليل[١] . وقال يحيى بن معاذ الرازى . الصبر فى الحلاوة من علامات الإخلاص[٢] ، والاشتغال بمخالفة النفس والهوى من علامات النجاة والخلاص ومن نسيم القرب ، ومن ذاق مذاق الحب قيد بسيور القد[٣] ، فلا مخلص ولا خلاص ، ولات حين مناص . لا يموت إلا هناك ولا يقبل إلا هناك ، ولا يقبر إلا هناك ، وقال أبو على الروذبارى . لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان صوابا . ومن صوابها إلا ما كان مخلصا ومن خالصها إلا ما وافق السنة . عمل الملوك يعمل فى الخزائن ، وعمل العوام يعمل فى الأسواق ، وعمل الأكرة بعمل خارج البنيان ، وكل عمل إنما يدقق فيه بقدر صاحب العمل وجليل محله . وقال عبد الله بن المبارك : لو صح لعبد فى عمره نفس فى غير رياء ولا شرك ، لأثر بركات ذلك عليه آخر الدهر .

وقال ابرهيم بن شيبان : من أراد أن يكون حرا من الكون فليخلص عبادة ربه . فمن تحقق فى عبودية ربه صار حرا مما سواه[٤] كيف يصح لعامل إخلاص عمله وهو يطلب بعمله مخلوقا مثل عمله . فإذا كان العبد

---

(١) أى حب الله تعالى ؛ كحب الخليل لخليله ؛ وطاعة أقل ما يأمر به الحبيب ؛ طاعة الذليل الخاضع لمحبوبه .

(٢) أى الصبر فى مجاهدة حلاوة الأعمال وعدم الوقوف معها لتخليص العمل من كل الشوائب .

(٣) القد بالكسر سير يقد من جلد غير مدبوغ .

(٤) الحرية عند الصوفية حرية الباطن وجولانه فى الميادين المباحة من المعرفة لا حرية الأعضاء التى يطالب بها العامة دائما .

مخلوقا وعمله مخلوقا كيف يكون مخلصا بعمله لخالق المخلوقين فتدبر !! وقال بعضهم لا يكون العمل مخلصا حتى يخلص من ثلاثة . من رؤية الخلق ، ورؤيه النفس ، ورؤية طمع الجزاء عليه من الرب ، وقال أبو بكر الرقى : الإخلاص هو أن يكون ظاهره للإنسان وباطنه وسكونه وحركاته خالصا لله تعالى . لا يشوبه نفس ولا هوى ، ولا خلق ، ولا طمع ، وقال عبد الله الرازى الشعرانى من لم يستغنم السكوت فهو إذا نطق نطق بلغو ، ومن لم يستغنم الخلوة فإنه إذا خرج خاض فى الباطل ، وينبغى للمخلص أن يفتقد حال خلوته وسكوته وجوعه وبكائه وحزنه ، ينبغى أن تأكل خلوته أشغاله[1] ، وسكوته كلامه ، وجوعه شهواته ، وبكاؤه ضحكه ، وحزنه فرحه ، فصاحب هذه الخلوة إذا خرج من خلوته منعته[2] من الأشغال لأن خلوته قد أكلت أشغاله وصاحب هذا السكوت إذا نطق لم يشنه الكلام وصاحب هذا الجوع إذا أكل لم يتلذذ بالطعام ، وصاحب هذا البكاء إذا سكن لم يستفزه الضحك والمزاح ، وصاحب هذا الحزن إذا رأى أهل الفرح والسرور اشمأز وانقبض وهرب منهم فرار الفرس الشموس[3] وفى هذا الفصل تفكر وتدبر لا يعقله إلا أهله[4] ولا يقف عليه إلا من وفق له[5] .

---

(١) معنى أكلت أشغاله قضت على ما يشغله عن الله تعالى . والخلوة نوعان خلوة العبد عن كل ما يشغل عن الله تعالى ؛ وهو بين الناس عامل مثلهم وتسمى (الخلوة فى الجلوة) ويسمى صاحبها كائنا بائنا . وخلوة اصطلاحية وهى أن يحبس المريد نفسه فى مكان له شروط خاصة مع التزام طعام خاص وذكر خاص . (راجع كتاب الخلوة للشيخ الأكبر ابن عربى) .

(٢) فى الأصل (منعه)

(٣) الفرس الشموس الصعب المراس والقياد .

(٤) فى الأصل (لا يعقلها إلا أهلها)

(٥) فى الأصل (وفق لها) .

وقال [ذو النون] المصرى الشرك على أربعة أوجه : فوجه هو الشرك فى التوحيد ، وهو شرك اليهود والنصارى . وشرك فى شيء من الدنيا عند [ما] يجعله عدة له ، ويتكل عليه ، ويقول هو عندى هذا الشيء فيعبده الآن ، وشرك فى شك ، وهو الصانع الملتمس لرزقه من الصنعة ، يقول إن لم أطلب وأعمل [فـ] من أين آكل . وشرك فى الأعمال [١] .

وقال بعضهم . العمل فى ثلاثة . يرى التوفيق فى العمل من الله ، ويلتمس بعمله رضا الله ، ويطلب ثواب عمله بعد الموت [٢] . فإذا رأى ابتداء عمله من الله نفى به العجب فى العمل ، وإذا التمس بعمله رضى الله نفى المحمدة والمذمة من خلق الله ؛ وإذا التمس بعمله الثواب بعد الموت نفى به الطمع فى المخلوقين . وقال الجنيد رحمه الله . الذى يفسد [القلب كما] يفسد الخل العسل سوء الخلق . والذى يحرق الحسنات كما تحرق النار الحطب الحسد [٣] والذى يحلق البر كما يحلق الموسى الشعر الغل والتباغض . والذى يفلس العبد يوم القيامة الكبر والخيلاء [٤] . والذى يعمى قلب العبد عن

---

(١) الشرك فى الأعمال أن يعمل الإنسان الخير لينال الشهرة عند الخلق . أو لطالب مجد فى الدنيا ، أو ليقصده الناس للتعلم فيباهى بكثرة طلابه .

(٢) بل الراجح عند الصوفية أن يعمل العامل دون رغبة فى ثواب ، فطلب الثواب عندهم مرتبة صغار المريدين . وعلى أى حال فهو سلك محمود بوجه عام .

(٣) لأنه اعتراض صريح على الحكمة الإلهية ، فالحاسد يرى نفسه أحق من المحسود بالنعمة وأن الله كان يجب عليه أن ينعم بها عليه هو .

(٤) لأنهما آفة الآفات فى الأعمال . فالكبرياء صفة مميزة لله تعالى على خلقه ، فالمتكبر يحاول مشاركة الله فى صفته ، والخيلاء إعجاب والإعجاب فيه معنى استكثار العمل أو وفاء العمل بحق الله تعالى . والواقع بعيد عن ذلك . فلا فائدة فى هذا العمل . ومن الخيلاء فى الصدقات ، اعتقاد امتياز المعطى على المعطى له ، واحتقاره وذلك باب من أبواب نسيان النعم

موارد الحق من الله تعالى ، متابعة النفس والهوى، والذى يقطع العبد عن الأعمال الصالحة مجالسة أهل البطر والغفلة .

وسئل بعضهم : ما الفرق بين إخلاص[١] العبودية ، وإخلاص الهمة، وإخلاص التوحيد ؟ قال نعم . إخلاص العبودية هو صفاء التوجه إلى الله وصحة العمل مع التبرى من الحول والقوة ، وإخلاص الهمة قطع العلائق من القلوب ليصفو من التشبث فى أعيان الغفلات ، وإخلاص التوحيد إفراد الله بالتخلص وسقوط الدعاوى . فهنالك سقط . فهو كمالم يكن والحق باق كما لم يزل . وصار جملة العبد متبعا لمرضاة الرب ، كيف يخلص لك العمل وأنت باق فى العمل ؟ تشهد العمل وترى حركاتك فى العمل ، ولا يخلص عملك حتى تفنى عن رؤية عملك ، ثم تبقى بعد الفناء مع ربك ، ثم تفنى بعد البقاء فى بقائك ، فهناك يخلص لك العمل، ويرفع لك المحل، وتنزل فى المقام الأجل . قال أبو الخير الأقطع .

من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مرائى، ومن أحب أن يطلع الناس على حاله فهو مدع كذاب[٢] . ومثله ما حكى فى الأثر أنه قيل لامرأة متعبدة : : فى أى درجة أنت ؟ قالت : لا أطلع قميصى الذى على جلدى على الدرجة التى أنا فيها مخافة أن أسلبها[٣] . وقال أبو العباس الزوزنى : صحة الشهادة تحتاج إلى أربع خصال حتى يكون العبد صادقا بها . الإخلاص ،

---

(١) فى الأصل « أخلاق » .

(٢) لأن أساس صحة الحال ، أن يؤدى الحال ما أراد منه الله تعالى حين وهبه لصاحبه ، وحينما لا يؤدى الحال عمله كاملا فإنه يعتبر ناقصا . ولا عبرة بالمقامات الناقصة فى التصوف ، لأن صاحبها لا زال مريدا وليس سالكا وعمل الحال الذى يريده الله تعالى . أن يصعد بصاحبه إلى غيره من المقامات . فاذا أراد صاحب الحال أن يطلع الناس على حاله ، وقف عند هذا الحد من سلوكه، وبتر حاله وانقطع مقامه . فهو لذلك كذاب .

(٣) فى الأصل . تسلب

والتصديق ، واتباع السنة ، واستقامة الطريق ، فمن أتى بالشهادة بلا إخلاص القلب فهو منافق مرتاب ، ومن أتى بها بلا تصديق القلب فهو كافر كذاب ، ومن أتى بها بغير اتباع السنة فهو مبتدع مذموم ، ومن أتى بها بلا استقامة الطريق فهو فاسق ملوم . وقال شقيق البلخى ، من أخلص استوحش ، ومن استوحش تفرد ، ومن تفرد تجرد ، ومن تجرد توحد ، ومن توحد استراح ، ومن استراح زهد فى المباح ، وقال بعضهم . إن الله أوحى إلى صاحب النوّح : يا داود ليس كل من صلى قبلت صلاته ، وليس كل من تصدق رفعت صدقته ، ولا كل من نقى رأسه صار من الصالحين ، إنى لاأنظر إلى أعمالكم ، ولكن أنظر إلى قلوبكم .

وقال الزوزنى يحتاج المصلى إلى أربع خصال حتى ترفع صلاته فى صالح الأعمال . حضور القلب ، وشهود العقل ، وخضوع الأركان ، وخشوع النفس . [فمن صلى بلا حضور القلب فهو مصل لاه ، ومن صلى بلاشهود العقل فهو مصل ساه] ومن صلى بلا خضوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن صلى بلاخشوع النفس فهو مصل خاطىء ، ومن صلى بتمام هذه الحدود فهو مصل واف . واللهو للقلوب ، والسهو للعقول ، والجفاء للأركان ، والخطأ للنفوس ، أعاننا الله وإياكم على أداء فرائضه وإقامة أوامره إنه جواد كريم . وقال تلميذ لأبى يزيد البسطامى : يا أستاذ . ربى معيوب أم بغير عيب ؟ قال بل بغير عيب . قال : فأنا معيوب أم بغير عيب ؟ قال بل معيوب . قال : فربى يطلب منى الطاعة على قدرى وموافقة وصفى أم على قدره وموافقة وصفه ؟ . قال : بل على قدرك . قال : الله أكبر . إذن يجب عليه أن يقبل أعمالى المعيوبة . وذاك لأنى معيوب ، وفعلى معيوب ، وقولى معيوب ، ونفسى معيوبة ، وقلبى معيوب ؛ فلايخرج من المعيوب إلا المعيوب والله تعالى منزه عن [كل] نقص وعيب . فقال أبو يزيد : إذا اذهب فإنك لا تتحير مع هذه الفصول[1]

---

(١) لا تقدح المعصية فى الحب الإلهى ؛ فهذا نعيمان رضى الله عنه كان فيه =

ياأخى ما أجل الافتقار ، وأنجح الاعتذار ، كما حكى فى الآثار . أى طاعة لا تقبل مع الافتقار ؟ وأى عثرة لا تقال مع الاستغفار ؟ وأى ذنب لا يعفى [عنه] مع الاعتذار ؟ وأى محبة لا تصفو مع الاختيار ؟ وأى أنس لا يطيب مع الأذكار ؟ وأى عمل لا ينفع مع تشعب الأنوار ؟ وأى علانية لا تصلح مع حسن الأسرار ؟ وأى جهد لا يطيب مع الملك الجبار وأى بلاء لا يتلذ [ذ به] مع مشاهدة العزيز الغفار ؟ وقال الدارانى . طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها غير الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم . إن فضل من يعرف أبواب الشرك على من لا يعرفها[1] كفضلى على أمتى . حكى عن بعضهم . قال . حضرت القصار وقد احتضر فقال لى : يا بنى . لقنى الشهادة . فإن الشيطان يلقى إلى نيفا[2] وسبعين نوعا من الشرك ثم قال اخسأ[3] يا ملعون إن كل لسانى عن الذكر ، فقلبى لا يخلو من مشاهدة المذكور .

قال أبو سعيد النيسابورى فى معنى الحديث الأول[4] من معرفة أبواب الشرك : وذلك إن يقول العبد أن الخير من الله تعالى ، والشر من نفسى ، ويؤمن [مع ذلك] بالكهانة والنجوم ، وزجر الطيور ، وحك الحاجب يعنى الاختلاج . والطيرة ، والتعلل بالأطعمة ، وأن يقول لولا هذا الماء

=== مزاح ؛ وربما كان يبتسم الرسول صلى الله عليه وسلم من كلامه ؛ رفع إليه وقد شرب الخمر فحده ، ورفع إليه ثانية فحده ثم ثالثة ؛ فلعنه بعض القوم فى الرابعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله ، وسئل ذو النون المصرى عن الرجل يعصى ويحب الله . فقال : هذا رجل عاص يحب الله .

(١) فى الأصل : يعرفه .

(٢) فى الأصل : نيف .

(٣) فى الأصل : اخس .

(٤) الحديث هو قوله صلى الله عليه وسلم « من أدخل فى ديننا هذا ماليس منه فهو رد .

لم ينبت زرعى ، ولولا هذا الزبل لم ينم حرثى ، ولولا فلان لأخذوا مالى ولولا كلب فلان لقطعوا أداوى، ولولا فلان لقضيت حاجتى ، ولولا معرفة فلان بافتقاد البستان لخرب بستانى ، ولولا فراهة الملاح لغرقت سفينتى ، وأن يقول غدا يمطر . وأن يقول للفقير لا أعطيك ، ما تسألنى مخافة على رزقى ، وأن يقول الكوز يبرد الماء ، وأشباه هذا كله من الشرك الخفى الذى حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته منه .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة نادى مناد يسمع أهل الجمع يقول : أين الذين كانوا يعبدون الناس ؟ قوموا خذوا أجوركم ممن كنتم تعملون له ، فإنى لا أقبل عملا خالطه شىء من أمر الدنيا وأهلها .

وقال الأنطاكى : اعمل كأنه ليس فى الدنيا أحد غيرك ، وكأنه فى الأرض ليس أحد غيرك وقيل لراهب : ما الإخلاص قال أن تعبد الله لا لرجاء ثواب ، ولا لخوف عقاب . وقال يحيى بن معاذ . سيئة مغفورة خير لك من طاعة مردودة لا تقبل منك[1] .

وقال الأنطاكى : التزين اسم لثلاث معان . تزين بعلم ، وتزين بعمل ، وتزين بترك التزين[2] وقال بعضهم فى معنى قوله والشفع والوتر . قال الشفع الأفعال ، والوتر النية : وهو الإخلاص . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : مكتوب فى التوراة ما أريد [به] وجهى فقليله كثير . وما أريد [به] غير وجهى فكثيره قليل وقال بعض الحكماء . إن العبد إذا أخلص لله بأعماله

---

(١) لأن السيئة المغفورة لم تغفر إلا بالاستغفار الصحيح ، والندم الكامل . والذلة التى تميز العبد من الرب . أما الطاعة المردودة . فلم ترد إلا لاعجاب ، أو رياء ، أو فساد فى شروطها ، أو بطلان فى أركان . وكل هذا استهانة بمقام الربوبية والأعمال عند الصوفية بمبادئها ونهاياتها . يقولون « البدايات علامات النهايات »

(٢) قد يكون ترك التزين عند بعض الناس هو التزين بعينه حيث يبدو أمام الناس بحلية الصالحين ، وهكذا فى كل أعمال العبادة الظاهرية والقلبية فإعلان التواضع كبر وإعلان الذل عز وهكذا .

أقواله . لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، وإذا قال العبد المخلص : « يارب » يقول له : لبيك يا عبدى ـ فإذا سأله أعطاه ، وإن لم يسأله ادخر له ماهو خير من مسألته .

وقال الروذبارى : وقع فى نفسى أن أسأل جنيدا عن مسألة فى الإخلاص فبكرت إلى منزله ، فاستقبلنى صديق لى فأطعمنى هريسة ، فسرت إلى أبى القاسم [الجنيد ف] قال : تسأل عن الإخلاص وتأكل عن الشهوات ؟ فهبته أن أسأله فقال الإخلاص . واجب الفرائض ، والنوافل . فهو فرض فى [ال] فرض ، وفرض فى [ال] فضل ، ثم قال : أكل الشهوات منعك عن المنارات . وقيل فى معنى قوله « كل شىء هالك إلا وجهه » كل عمل باطل إلا [إذ] أريد به وجهه. وقال النبى صلى الله عليه وسلم ، لا أخاف على أمتى أن يعبدوا[1] شمسا ولا قمرا ولكن يرائى بعضهم بعضا وإن يسير الرياء شرك . قال أبو سعيد رحمه الله : جاهدوا أنفسكم على [بغض] المحمدة و[على] الرضا بالمذمة فإنه بلغنا حديث إن صح من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه لقاصم الظهور أمثاله. بلغنا عنه أنه قال ، ويل للصائم، ويل للقائم، ويل لصاحب الصوت، فقيل: إلا من يا رسول الله ؟ قال إلا من نزه نفسه عن الدنيا ، وأبغض المحمدة ، واستحب المذمة .

وقال صلى الله عليه وسلم : أخوف ما أخاف على أمتى الشرك والشهوة الخفية[2]. قيل يا رسول الله أو تشرك أمتك بعدك ؟ قال إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا ولا حجرا ، ولكن يراءون الناس بأعمالهم ، وإن

---

(١) فى الأصل : يعبدون .

(٢) فسر الرسول صلى الله عليه وسلم الشهوة الخفية فى باب من أبواب التشريع وركن من أركان الإسلام . لأنه صلى الله عليه وسلم أستاذ العقيدة ولابد من تصحيح الأركان أولا ، وقد فتح بذلك باب الفهم فى الشهوة الخفية ، وأنها ليست قاصرة على فسخ عقد الصوم بل إنها كذلك فى الصلاة ، والزكاة ، والحج ، وغير ذلك من الأعمال والعلوم .

يسير الرياء شرك . قيل يا رسول الله فما الشهوة الخفية ؟ قال يصبح الرجل صائما فتعرض له شهوة من شهوات الدنيا فيفطر[١] . وقد هلكت طائفة من أهل الزمان ممن لا معرفة لهم ولا إيقان يفطر باتباع هواه ما عقد لصوم ونواه ، يتأول فى ذلك أن إدخال السرور على الأخ من الإخوان أفضل من الصوم ، وأين ذلك الأخ الذى يحب العبد أن يفطر لرضاه؟ ذاك هو الأخ الذى يفرح بأكلك عنده ، وإفطارك لديه ، فرحا ينسى به الأكل ويشبعه بدل الطعام . فضلا عن أكله ويحزن على تركك لطعامه ، ومخالفتك له ، حزنا لا يشتهى [معه] الطعام يوما وليلة . وربما تربص بذلك الطعام ، فلم يأكل هو ولم يطعم غيره ، ينتظر إجابة الأخ له بعد ذلك . وربما تصدق به إذا قطع رجاءه من إجابة أخيه تحرجا أن يأكل هو بعد مالم يأكل أخوه ذلك فهذه كانت بعض صفة الأخ الذى كان يحب على الأخ أن يفطر لطلب رضاه ، ولالتماس سروره ، وهذا الأخ اليوم ضالة لا توجد ، ونجم غاب فلا يطلع ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما وضع الناس شيئا إلا رفعه الله ، ولا رفعوا شيئا إلا وضعه الله[٢]» .

قال وهب بن منبه ، كان فى بنى اسرائيل راهب على رأسه ثلاث عمامات فجاء إليه قوم فقالوا : قد أصبنا اليوم عجبا ، دفنا فلان العابد عشرين مرة كل ذلك يقذفه القبر فتركناه . فوقع العابد فى السجود فعبد الله عشرين سنة فرآى ليلة الجمعة فى المنام قائلا يقول له . أنت تذكرنى ؟ وإنك ترى جمجمة العابد نحوك فجاء العابد فنظر إلى جمجمة قد ابيض [ت] من طول الزمان . وإذا على جبهته مكتوب . فتأمله فإذا هو : ماذا لقيت وماذا ألقى ؟ فسأله الراهب عن حاله . فقال : إنى كنت رجلا فى بنى اسرائيل أرائى الناس

---

(١) لأن طلب العلو والرفعه آفة من آفات الأعمال إن لم تكن أهمها . قال تعالى ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ؛ والعاقبة للمتقين .

بصلواتى ، ما كنت بتلك[١] الصلاة لله . وإنى كنت آكل الدنيا بالدين، قالت فماذا لقيت ؟ قال لمـا كان عند انقضاء أجلى . دخل على ملـكان ومعهم ملك الموت ، فقال أحد الملـكين للآخر . آخذ [ه] قبض المؤمن أم قبض الفاسق ؟ قال بل قبض الفاسق فخرج روحى من جسدى كما قد شرح بالسكين فتمنيت [أن أ] قتل عشر مرات أو [أ] طبخ عشر مرات ولا أرى خشونة الموت . ولـكن اشفع لى إلى الله لعله يردنى إلى الدنيا فأفرش من الرماد ، وآكل من الحشيش ، وأتوب إلى الله ، فإنى رأيت الرياء أشد من الشرك . فسمع صوتا وهو يقول . قم [أيها الر] اهب المستجاب الدعوة ودعه حتى نرده إلى عذاب دائم وهوان[٢]

وقيل بالعلم تـُقـَوَّم الأعمال ، وبالإخلاص تصحح ، وبالصدق تصفى . وقيل للمرائى ثلاث علامات : يكسل فى الوحدة ، وينشط فى الملأ ، ويحرص على الأمور الممدوحة عند الناس . وقال الأنطاكى احذر الشيطان لايحول بينك وبين طاعة ربك ، فإن أعانك الله على طاعته ، فاحذره أن يفسد عليك ما قد عملته من الطاعة ، ثم احذره أن يخفى عليك ما أفسد عليك من طاعة الله[٣] ، فإن قويت عليه فاحذر أن يسلبك بعد تعبك ونصبك وسعيك ما قد أفسده عليك[٤] ، فإنه يحتال أن يخرجك من ذلك كله صفرا . ثم احذره أن يحتال لك فى المعاصى الكبائر أن يوقعك فيها سرا أو جهرا بجهالة أو تعلم ، فإن له فى جميع ذلك احتيالا ومكرا . حكى عن ابن المبارك ، أنه

---

(١) فى الأصل : بذلك .

(٢) قصة إسرائيلية يراد بها كغيرها . الدلالة على فضائل الأعمال . يؤخذ بنتائجها ولا يؤخذ بتفاصيلها .

(٣) يخفى عليك الشيطان ما أفسد عليك من طاعة ، بأن يلقنك نوعا من الجدل والحجة الباطلة تقنعك بصحة عملك .

(٤) العمل الفاسد خير من عدم العمل . والشيطان يوقع العامل فى اليأس فلا يعمل ، فيسلبه الشيطان ما أفسده عليه .

وسوس له الشيطان فقال له : تمسح رأسك ؟ فقال : أنت المدعى . عليك شاهدين عدلين ، وصلى .

وقيل إذا أراد المؤمن أن يصلى ركعتين استقبله الشيطان على خمسة أوجه أولها[1] بالمنع ، والثانى بالتعجيل ، والثالث بالرياء ، والرابع بالعجب والخامس بالإياسة . ويقال كان رجل يلعن إبليس كل يوم ألف مرة ، وكان يوما نائما فى أصل جدار فجاء إليه . فأيقظه من منامه ، وقال : قم . فإن الجدار هو ذا يقع ، فقام الرجل وسقط الجدار فقال : من أنت بهذه الشفقة؟ قال : أنا إبليس . فقال العابد : سبحان الله . أنا ألعنك كل يوم ألف مرة وأنت تنصح لى ؟ قال : كفانى ما أقاسيه معك من المشاغل[2] والعناء وأنا أعلم مراتب الشهداء ، أخاف أن يقع عليك الجدار فتدرك بذلك درجة الشهداء . فيكون ذلك أعظم لغيظى وشقوتى .

وسئل الجنيد عن الإخلاص فقال : هو سر بين الله وبين العبد . لا يعرفه ملك فيكتبه ولا هوى فيميله ، ولا عدو فيفسده وسئل الحصرى عن الإخلاص فقال لا يخلص عمل العبد إلا أن يخلص العبد ، وإخلاصه : ألا يملك شيئا . ولا يملكه شىء فإن ملك ذرة أدعى مع الربوبية قدماً ، وإن ملكه شىء كان فيه مشتركا ، فإذا أخلصه الحق لم يكن للعبد فيه [شىء] ، ولا له منه [شىء] . ولا له من ملك مولاه ، ولا له فى ملك [مولاه] ، فيكون العبد بكا [ه] لله .

وقال الروزبارى : الإخلاص هو أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن . والمخلص هو الذى يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وقال سهل : الخالص من العمل هو الذى لا يريد صاحبه عليه جزاء ولا شكورا . وقال يحيى بن زكريا ، سألت إبليس لعنه الله فقلت يا عدو الله لم أيست من المخلصين ؟ فقال [يا] يحيى . ومثلك يقول هذا ؟ إن قلوب المخلصين كالمرآة

(١) فى الأصل « أوله » .
(٢) فى الأصل « المشغل » .

ذات وجهين[١] ، يتلألآن بنور الفكر ، ويختلج [فيهما] شعاع الذكر ، وقلوبهم كالبحر ملىء نارا ونورا ، فكلما هممت بالدنو إليهم ، أعمانى نور نارهم ، وأحرقتنى نار نورهم ، فليس من حيث أتطلع إليهم[٢] يخشون مسي وتلمسى ، فتهاونوا[٣] بي لعلو مقامهم ، وأنسهم مع ربهم ، وذلك قول الله عز وجل « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون . وقال الشعبي : قال : اطلع بن الخطاب على معاذ بن جبل وهو يبكى عند قبر النبي عليه السلام ، فقال يا معاذ لعلك على فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ليتنى كنت أبكى عليه فقد كان يبكى عليه ولكنه حدثنى بحديث فى هذا المكان وأنا أبكى لذلك ، فقال لى : يامعاذ يسير الرياء شرك . وإن أحب عباد الله إلى الله الأخفياء الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذاشهدوا لم يعرفوا ، أولئك أئمة العلم ، ومصابيح الهدى تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم ، وهم منها فى عافية : الحديث على لفظه .

وسئل عيسى بن مريم عليه السلام عن الإخلاص [ف] قال المخلص من يعمل لله ولا يحب أن يمدح عليه وفى رواية ولا يحب أن يمدحه الناس عليه فاللفظة الأولى هى أدق [فى] المعنى لأن معناها يعمل على مشاهدة الرضا والتسليم فلا يحب مدح الله له إلا إذا أحب الله[٤] ذلك فيكون حينئذ محبا لذلك باختيار الله ومحبته ، فهو المخلص الحقيقى . ومعنى الرواية الثانية لايحب مدح الناس والمخلوقين . فأما مدح الخالق فإنه يحب ذلك لأنه منية المتمنين . وكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية تعظه : إنه من عمل

---

(١) فى الأصل « وجهان »

(٢) فى الأصل « إلا ويخشون »

(٣) فى الأصل « فتهاورنى »

(٤) جاء هذا المعنى من التعبير الأول بناء الفعل « يمدح » للمجهول . فصار نائب الفاعل عاما .

(٥) فى الأصل : تجترفها . وأمامها على الهامش تصحيح لها . كلمة « تنظر » .

لله كفاه الله الناس ، ومن عمل للناس وكله الله إليهم ، ومن تزين للعباد بغير ما يحب الله عاد حامده منهم له ذاما . وقيل : من عمل للحى الذى لا يموت خضع له النواطق والصموت ، من عمل بالإخلاص نال الربح والخلاص .

ويقال كان الحكماء من العارفين وأهل الإخاء فى الدين يوصى بعضهم بعضا بهذه الكلمات الجوامع الثلاث . من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس . ومثل هذا ما حكى عن بعض الصالحين وهو يليق بالنكتة - قال: كنت مارا فى بعض بوادى العرب فإذا أنا بقطيع من الغنم والذئاب بينها فنظرت . فلا الذئاب تقطع الغنم ، ولا الغنم تنزع الذئاب ، فرمقت يدى نحو السماء، وعجبت عجبا شديدا، فنظرت إلى البرية فإذا أنا بجارية سوداء قائمة تصلى . فسلمت عليها فأوجزت فى صلاتها وقالت مالك وسلام النسوان يا شيخ ؟ قلت : يا جارية . ما هذا العجب ؟ قالت: وهل فى أمر الله عجب؟ما الذى رأيت ؟ فأخبرتها . فقالت : يا هذا. ذاك من الأمور . أصلحنا المعاملة بيننا وبين الملك الغفور فأصلح بين الذئاب والغنم ليتعجب الغافل المستور ، وقيل الكافر يعمل لزينة الدنيا ، والمنافق يعمل لرؤية الخلق بالهوى ، والمؤمن يعمل للآخرة والعقبى ، والموقن يعمل لمشاهدة الجليل فى المنظر الأعلى ، من عمل للدنيا ، فهو يؤدى العمل للمخلوقين[1] فهو زدى ، ومن عمل للعقبى ، فهو رد[ى] ومن عمل للمولى فهو صفى .

معاذ بن جبل قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى . قال أخلص عملك لله يكفك القليل ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لقد خشينا أن يدخلنا خوفنا من الرياء فى تسعة أعشار الرياء فهذا عظيم ، ومعناه أن يترك العبد كثيرا من الصالحات لأجل خوف دخول الرياء ، لأن الرياء كان عندهم العمل لأجل الناس[2] ، فأما ترك العمل لأجلهم فهو شرك . وقال بعضهم

(١) فى الأصل « فهو يود لى عمل للمخلوقين .

(٢) الذى يدخلنا فى تسعة أعشار الرياء ، أن نضطرب فى إخفاء أعمالنا ؛ فيظهر =

فى معنى قوله تعالى : والذين هم بربهم لا يشركون . فتش سره فرأى فيه شيئا أعظم من ربه أو أجل منه فقد أشرك به، إذ جعل له مثلا .

وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » الحكمة فى الآية لأهل المعرفة والصدق أنه من يظهر[1] من أفعاله شيئا إلا ما يظهر عليه من غير قصد له فيه ، فقد سقط به عند رؤية الحق ، لأن ما وقع عليه رؤية الخلق فهو ساقط عند رؤية الحق .

وقال بعضهم : ربما قال الرجل : سبحان الله لا إله إلا الله . فأخشى عليه النار . ولهم قيل كيف ذلك ؟ قال يغتاب بين يديه فيعجبه ذلك [ويقول هذا القول] وليس هذا موضعه ، إنما موضعه أن ينصح له ويقول له اتق الله . وقال عصام بن طليق . قلت لابن عباس : يا أبا اسماعيل ، ما بلغك فى الغيبة ؟ قال بلغنى أن أقل الغيبة ان يسأل الرجل عن الرجل فيقول : دعه غفر الله له ولنا . فتكتب له خطيئة أثقل من جبل أحد . هذا لمن يريد عيبه بذلك[2] .

وقال أبو عثمان فى معنى قوله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من

إخفاؤنا لأعمالنا ، فنجد لإجلال الناس لنا لذة ؛ فنظهر ألوانا من الورع لنثبت حالنا فى أذهان الناس . أو نخفى الأعمال ؛ إما فى خلوة ؛ أو بالإسراع بها .ل رؤية الناس فيدخلنا الشك فى صحتها ؛ فنصاب بالوسوسة ؛ والوسوسة تجر إلى إعلان الأعمال رغم أنف العامل فربما حاول تلبيس وسواسه ؛ بأنه إتقان للعمل . وإما أن يعالج العامل الرياء بالرياء . فيعمل أمام الناس ليتحاشى ترك العمل خوفا من الناس . فيجد من ذلك سترا لنفسه من الرياء وهو عين الرياء .

ورأى المؤلف فى تفسير قول سيدنا عمر — جيد أيضا .

(١) فى الأصل يظهر أهل أفعاله .

(٢) قد يقصد العيب فى المغتاب بهذه العبارة ؛ فهى إقرار ضمنى لمن اغتاب أخاه . وفيها كذلك رياء . لإظهار التقصير والاعتراف بالذنب وإيهام للسامع بأن المتكلم يستغفر من الصغائر فى كل مناسبة .

أتى الله بقلب سليم : هو أربع منازل [الأول] سلامة القلب من الشرك . الثانى : سلامة القلب من الأهواء ، الثالث : سلامة القلب من الرياء . الرابع سلامة القلب من ذكر كل شيء سوى الله . وقال أبو أمامة . كنا نمشى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع خفق نعالنا فوقف ثم قال امشوا [فلما مشينا] . قال نعم إنى سمعت خفق نعالكم فخفت أن يدخل قلبي شيء[١].

وقال الجنيد فى معنى قوله عز وجل ولا تنس نصيبك من الدنيا . لا تترك إخلاص العمل لله فى الدنيا ، فهو الذى يقربك منه[٢] ، ويقطعك عما سواه :

وقال أبو على الجوزجانى . إن الله جل ثناؤه دعا عباده إلى الإخلاص من كل وجه . وأخبر أن من كان فى ظاهره وباطنه شيء غير الحق لم يكن مخلصا بقوله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا » معرضا عن الكل مقبلا على الكل حنيفا . أى مطهرا عن الأكوان وما فيها ، وقال فى معنى قول لقمان « يا بنى لا تشرك بالله . وعظ لقمان ابنه ودله فى ابتداء وعظه ، على مجانبة الشرك ، وهو[٣] التفرد بالحق للحق بالكل نفسا. وقلبا وروحا . فلا تشتغل النفس إلا بخدمته ، ولا يلاحظ القلب سواه ، ولا يشاهد بالروح غيره ، فهو مقام التفريد بالتوحيد .

وقال سهل فى معنى قوله تعالى « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ظاهره الدعاء والصدق ، وباطنه[٤] عمل بالعلم والاقتداء بالسنة .

---

(١) هذا تعليم للأمة على يد الرعيل الأول . وليس من باب إظهار العمل الصالح لأن له صلى الله عليه وسلم من المهابة والعظمة فى الظاهر . ما يتضاءل أمامه إظهار التواضع . وله صلى الله عليه وسلم من الأعمال الخفية ما يعجز عنه فحول الرجال

(٢) فى الأصل : به .

(٣) أى : مجانبة الشرك .

(٤) الضمير فى ظاهره يعود على الكلم الطيب . والضمير فى باطنه يعود على العمل الصالح . أو كل منهما يعود عليهما معا .

يرفعه . ويوصله الإخلاص . وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى : فمنهم ظالم لنفسه ، قال الظالم من يكون عمله كله رياء ، والمقتصد من يكون بعض عمله رياء ، وبعض عمله إخلاصا ، والسابق من يخلص عمله لله . وقال الكتانى ، المحسن من أحسن إلى نفسه ، فلا يوقعها[١] فى الورطات ، ويحسن إلى الخلائق لا يؤذيهم بسوء خلقه ، ويحسن عبادة ربه فلا يشوبها[٢] شىء من الرياء .

وقال الواسطى فى معنى قوله تعالى « إلا لله الدين الخالص » هو الذى يخلص فيه صاحبه [من النفاق] والبدعة والرياء والعجب ورؤية النفس . وقيل فى معنى قوله تعالى : ولا تبطلوا أعمالكم . يعنى بالرياء والعجب . قال أبو عثمان فى ذلك بترك الستر .

وقال سهل فى معنى قوله عزوجل « حتى إذا جاءنا » يعنى جاء بعمله [ه] الذى أشرك فيه معنا غيرنا : لقوله صلى الله عليه وسلم . الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفاة . يعنى شرك النفس ، قال ؟ ياليت بينى وبينك بعد المشرقين .

وقال ابن عطاء فى معنى قوله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . إلا ماسعى . إلا ما نواه ، وإن كان سعيه رضى الرحمن فإن الله يرزقه الرضوان ، وإن كان سعيه للثواب والإعطاء[٣] والأعواض كان له ذلك[٤] .

وقال سهل فى معنى قوله « رب المشارق والمغارب » المشارق الجوارح

---

(١) فى الاصل « يوقعه » .

(٢) فى الاصل « يشوبه » .

(٣) فى الاصل « والإعطاء » .

(٤) ليس سعى الإنسان المدخر له مقصورا على الصلاة والزكاة والصدقات وغيرها من الأعمال بل يتعدى السعى إلى الأولاد وحسن القيام على تربيتهم وتوجيههم نحو خالقهم ، فقد عد النبي صلى الله عليه وسلم من الأعمال الصالحة التى تبق للإنسان « ولده الصالح الذى يدعو له » ورد العلماء على من اعترض بهذه الآية فقالوا « ولد الإنسان من سعيه » .

المستعملة بالأخلاق ومغاربها بالطاعة لله بالسنة[١] . وقال بعضهم فى معنى قوله عز وجل : أيكم أحسن عملا . أحسن العمل ترك التزين به . وقيل حسن العمل نسيان العمل ورؤية الفضل[٢] — وقال فى معنى قوله « وأقوم قيلا» أصوب قولا . لأنه أبعد من الرياء . وقال عبادة : الليل أتم إخلاصا وأكثر بركة ، وقيل الصدق على ثلاثة وجوه : رياء ، وهوى وبلاء ، وما كان من ذلك الوجه[٣] لله خالصا فهو عزيز لا يصل إليه إلا الأبرار المقربون .

باب حكم النية فى الأعمال
ومعرفة دقائق العلل وغوامض الآفات

وقد قال طوائف العلماء الراسخين ، والحكماء الربانيين ، والخلصاء من العارفين ، فى النية أقوالا مختلفة الألفاظ قريبة المعانى . قال أبو طالب المكى رحمه الله . قول النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أحسابكم ، ولا إلى أعمالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم » فنظر علام الغيوب إلى القلوب إنما هو موضع النية ، والنية هى روح العمل . وكما لا قيمة للجسد إلا بالروح كذلك لا قيمة للعمل إلا بالنية ، والنية قلب القلب يعنى لولا محل النية فى القلب لما كان يعرف قيمة القلب ، وصار [ت] النية بهذا قلب القلب والنية زمام القلب . فكما لا صلاح للدابة فى سيرها إلا بإحكام الزمام . كذلك لا صلاح للقلب فى مقاصده إلا بإحكام النية ، والنية قائد العمل . فكما لا تصل القافلة إلى محل الأمن والسلامة إلا بمعرفة القائد

---

(١) تعسف ظاهر فى تفسير « المشارق والمغارب » وبعيد عن مسلك . سهل رضى الله عنه .

(٢) أى الفضل من الله تعالى بالتوفيق للعمل .

(٣) أى الذى هو وجه . البلاء والاختبار . والمراد من هذه العبارة أن الصدق فى الظاهر قد يكون . رياء . فنحن لا نستطيع أن نقول للمصلى : إنك لا تصلى . وقد يكون هوى ، إذا وافق ميل العامل . وقد يكون اختبار الصدق الباطن وهو العزيز النادر .

بالطريق ، كذلك لا يصل العمل إلى الله تعالى إلا بخلصان النية فيه . والنية أول القصد . وإنما يجيء تمام الأعمال على شبيه أول القصد فيه ، وربما تتغير النية بعد القصد من الفساد إلى الصلاح ومن الصلاح إلى الفساد . والنية باطن العلانية من الحركات والسكنات[١] والنطق والسكوت ، والخروج والدخول والنية موضع نظر رب العالمين من سر العبيد . كما قال الله تعالى فى بعض الكتب . إنى لا أنظر إلى قول الحكيم وإنما أنظر إلى همه فمن كان همه فى رضائى ، جعلت صمته تسبيحا ، ونومه عبادة ، فمن رجح صمته تسبيح المسبحين ، وذكر الذاكرين ، كيف يكون ذكره وتسبيحه ؟ ! ومن رجح نومه عبادة المتعبدين، كيف تكون صلاته ؟ ! ! والنية مثلها[٢] فى الأعمال كالطهارة فى الصلاة . فلو لم يتطهر العبد قبل الصلاة للصلاة . وقام ألف سنة فى الصلاة لم يعتد له [شيء] من صلاته بذلك . كذلك العامل إذا لم ينو بقلبه قبل العمل فلو عمل ألف سنة لم يحصل له من عمله مثقال خردلة . وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا صلاة لمن لا وضوء له ولا عمل لمن لا نية له . والنيه مثلها[٣] فى الأعمال كمثل الأمير فى الجند فلو كان الجند ألف ألف رجل ، لما اجترأوا على محاربة العدو إلا إذا خرج الأمير وحصل فيما بينهم . كذلك العمل وإن كثر . لا يصلح للعرض على الجليل ، إلا إذا كان معه النية الخالصة والنية هى فرض [الفرض] وأيضا مثل النية كالرسول ، والعمل كالهدية . والعبد المهدى ، والله المهدى إليه فإذا غاب الرسول [ف]من يوصل الهدية إلى المهدى إليه ؟ كذلك إذا غاب[ت] النية فالعمل من يوصل[ه] إلى المعمول له ؟ .

فهذه بعض ماهية النية . قصرتها[٤] كراهة الإطالة وأنا أستدل إن

---

(١) فى الأصل « السكوت » .

(٢) فى الأصل « مثله » .

(٣) فى الأصل « مثله » .

(٤) فى الأصل « قصرته » .

شاء الله بعد هذه النية مع ما حكيت لك من أقوال الحكماء . يقول الحكيم العالم جل جلاله مما أودع فى كتابه المنزل على الخير المصطفى صلى الله عليه وسلم، واكتفى من ذلك بثلاث آيات . وكذلك أستدل لك من السنة باختيار ثلاثة [أحاديث] أبين لك فيها مايحتاج العمل إليه، من تصحيح الإخلاص، ومعرفة العلل والآفات . وبالله التوفيق ، ومن عنده الكفاية ، وعليه التكلان ، وما شاء الله كان .

الآية الأولى :

فمن ذلك قوله جل ثناؤه « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها [ولكن يناله التقوى منكم] » وفى هذه الآية بيان ما يريد الله من العباد فى أفعالهم ، وما الذى يصلح أن يكون لك من ذلك ، وقد نطق العلماء من العارفين فى معنى الآية بأوجه من التفسير . إذ أذكر من ذلك ما يليق بالموضع . وسبب نزول الآية : أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن ، لطخوا بدمائها جدر البيت ، ورشوا الدماء عليه ، يقولون هذه قربة إلى الله . ففعل المسلمون أول ما أسلموا كفعلهم فى الجاهلية ، فهبط جبريل بالوحى من عند الحق على رسول الله عليه السلام فقال « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » . الآية، أى لا يصل إلى الله تعالى من هذا القربان الذى تنحرونه غير التقوى . فذلك الذى يقبله الله منكم . والتقوى محلها فى القلوب ، وهو مثال الحق من الأعمال، لا يصلح له غيره ، ولا يقبل سواه، ما أصنع باللحوم والدماء ؟ وإنما أريد ، الإخلاص والصفاء . منى محل الدماء ، وبطونكم محل اللحم ، وأنا محل التقى ، وقيل : الحكمة فى ذلك كأنه يقول . معاشر المتقربين إلى . التقى من عندى ، والذى تتقربون به من القربان من لدنى ، فأما القربان فقد جرى تحت رسم أيديكم ، وقد لاحظته عيون الخلق منكم ، والتقى محفوظ فى قلوبكم ، مكنون فى غيابة غيب نياتكم ، لم تنله الأيدى ، ولا جرت فيه الأنظار ، ولا شهادة الأبصار ، فهو طلبتى منكم ، لأنى لا أقبل من عبادى إلا الطاهر من التخليط ، وذلك هو التقوى لا غير .

وقال الحسين بن الفضل فى معنى الآية: ولكن يناله التقوى منكم . الهاء إشارة إلى الله تعالى ، ولكن المتقى من المتقربين ، هو الذى ينال غدا رب العالمين ويراه ، فينظر إليه عيانا فى محل اللقاء والتمكين ، وهذا جائز كما حكى عن ابرهيم بن شيبان قال : إذا اجتمع الخلائق فى الموقف بين يدى رب العالمين ، يأتى الملائكة إلى زمرة المؤمنين فيقولون لهم : انطلقوا يا أولياء الجبار . فيقولون : إلى أين ؟ فيقال لهم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت لكم . فيقولون : والله ما لهذا عملنا فترضى به . ولا هو بغيتنا فنتبعكم . فيقول الملائكة . فما بغيتكم ؟ فيقولون : هو بغيتنا له عملنا ، وإياه أردنا ، فإذا نبداء من قبل الله تعالى : ملائكتى . اركوهم فإنهم لا يرضيهم غير النظر إلى وجهى .

وقيل فى معنى الآية . لا تصعد الملائكة بلحمها ودمها ، ولكن يصعدون بالتقوى منكم . وقد جاء فى الخبر أن العبد ليعمل أعمالا حسنة فيصعد بها الملائكة فى صحف مختمة ، فتلقى بين يدى الله ، فيقول الله : اطرحوا هذه الصحيفة . فيقول الملائكة : إلهنا ماعلمنا إلا خيرا . فيقول الله : ملائكتى . أنتم الحفظة على عمل عبدى ، وأنا المطلع على قلبه ، إنه لم يرد به وجهى .

وقال بعضهم فى معنى هذه الآية إشارة دقيقة ، وعتاب لطيف لأهل المحبة والوفاء ، وأرباب الصدق والصفاء ، وذاك أن التقى فى العبد من العبد ، واللحم والدم خارج من العبد ، فكأن الله يقول : عبادى وأحبائى أنا لا أريد منكم غيركم ، ولا أطلب سواكم ، فلذلك كونوا[1] أنتم . لا تطلبوا منى غيرى ، ولا تريدوا منى سواى ، وعن بعض أهل المعرفة قال : رأيت رب العزة فى المنام . فقال : كل الخلائق تريد منى غيرى . إلا أبا يزيد فإنه يريدنى وحدى . قال سهل : طلب الله من العباد فى أعمالهم التقوى . والتقوى

---

(١) فى الأصل « فذلك فكونوا » .

محلها[1] القلب، وهي[2] الإخلاص، فمن لم يعرف طلبة الله من أعمال العباد، كيف ينال رضى الله فى المعاد .

الآية الثانية :

قوله جل ذكره « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » قال سهل : إنما حصل التضعيف بإيتاء الزكاة ، لإرادة وجه الله بالإخلاص . والزكاة زكاتان : زكاة البدن فى تطهيره[3] من المعاصى والمخالفات ، وزكاة المال فى تطهيره من الشبهات . ومن حصل له هاتان الطهارتان فى بدنه وماله ، ، نال بذلك الجزيل من الثواب فى ماله ، وإلا فهو معيوب فى حاله . وقد أوحى الخبير إلى من يخلط الرماد بالشعير . يا داود ليس كل من صلى قبلت صلاته ، ولا من تصدق رفعت صدقته ، ولا من نكس رأسه صار من الصالحين ، إنما أتقبل [من] الأعمال ما أريد به وجهى . وكذلك أوحى إلى عيسى عليه السلام فى الإنجيل : يا عبيد الدنيا ما أحلى[4] كلامكم ، وأمر أفعالكم ، وما أطيب رائحتكم ، وأنتن قلوبكم ما ألين ألسنتكم وأصلب قلوبكم .

الآية الثالثة :

فى تصحيح النية . قوله جل ذكره « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » جميع ما يفسد أعمال العابدين ، وعبادة المتعبدين ، الطمع فى شيئين : المكافأة بالأفعال ، وفى حسن الثناء والمدح بالأقوال . وقد أخبر الله تعالى فى ذكره ، عمن نزلت هذه الآية بسببهم . أنهم لم يريدوا بفعلهم الصالح من الخلق مكافأة بالأفعال ، ولا حسن ثناء بالأقوال وإنما عملوا لوجه الكبير المتعال .

---

(١) فى الأصل « محله » .
(٢) فى الأصل « وهو » .
(٣) فى الأصل « فى تطهيرها » .
(٤) فى الأصل « ما أحل » .

وقال جعفر بن محمد الصادق [فى] تفسير هذه الآية . وسبب نزولها قال : إن على بن أبى طالب رضى الله عنه أصبح صائما . فقال يا فاطمة . عندك شيء نفطر عليه ؟ قالت : نعم . هذه الحيسة قد عملناها لك . فجاء سائل سأله فقال: يا فاطمة أطعمى الحيسة هذا السائل . فأطعمته . ثم إنه عمل له حريرة[1] . فجاء يتيم قد استشهد أبوه فقال : أعندكم شيء تطعمونى فإنى جائع ؟ فقال على: يافاطمةأعندك شيء ؟ قالت هيأت لك حريرة لتفطر عليها . فقال : أطعميها [اليتيم] ففعلت . ثم إنها احتالت له شيئا من دقيق شعير ثم خبزت منه خبيزة[2] ، فدخل عليه أسير فقال : إنى جائع فهل عندكم شيء تطعمونى ؟ فقال : يا فاطمة . هل عندك شيء تطعمين هذا الأسير ؟ قالت : هذه خبيزة خبزتها لك وقد حضر المساء . فقال : هاتها . فأخذها وأطعمها [الأسير] ثم قال عند المغرب أما من شيء يافاطمة ؟ قالت: لا والله ما عندنا شيء . قال على : يا فاطمة . ما تقولين فى عشاء الملائكة؟ الذكر يأكلون والنور يشربون ، وعلى الدوام منزهون . تعالى حتى نذكر الله ونسبحه . ففعل ذلك حتى دهمنى النوم فأنزل الله تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » فالهاء إشارة إلى الله تعالى يعنى على حبهم لله ، وقيل على حبهم للطعام . إلى قوله لانريد منكم جزاء ولاشكورا ولا حسن ثناء بالقول .

قال أبو بكر بن يزدانيار رحمة الله عليه فى معنى الآية: إن القوم لم ينطقوا بذلك[3] نطقا . وإنما اطلع الله على قلوبهم، فعلم ذلك من نياتهم فأخبرنا ذلك، وأثنى عليهم ومدحهم .

وأما الأخبار المستدل بها . فما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: نية

---

(١) الحريرة . طعام يصنع من عسل وعجوة وحلبة .

(٢) تصغير خبزة . وهى خبز غليظ يدفن فى الملة حتى ينضج .

(٣) أى بقولهم (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . . الآية) .

المؤمن خير من عمله، ونية للفاسق شر من عمله . واختلاف العلماء فى معنى هذا الخبر وحكى عنهم أوجه .

قال أبو طالب المكى فى معناه : لأن النية سر . وأعمال السر تضاعف على أعمال العلانية بسبعين ضعفا ، ويقال إن العبد إذا ذكر ربه فى نفسه، كتب الله ذلك بيده فى صحيفته، فإذا عارض عمله مع الملائكة ، يزيد ذكر العبد إياه بقلبه ، فيقول الملائكة : ربنا. عمل هذا العبد كله [1] قد أحصيناه. وهذا لا نعرفه . فيقول الله : ملائكتى . إن هذا العبد ذكرنى فى نفسه فكتبته [2] فى صحيفته . فإذا كان يوم القيامة لم يكن لهذا الذكر جزاء دون النظر إلى وجه المذكور . فهذا أجل الوجوه فى معنى الخبر . وقيل معناه لأن النية غيب لا يطلع عليه إلا الله ، وسائر الأعمال مشتركة بين رؤية الله ورؤية الخلق ، كما قيل: إن الملائكة تصعد بصحيفة العبد إلى الله، فإذا بنداء من قبل الله عز وجل، ملائكتى : اكتبوا لهذا العبد كذا. اكتبوا له كذا. فيقول الملائكة: الهنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك . فيقول الله : بل إنه نواه. فهذا يدلك على أن النية لا يطلع عليها أحد إلا الله . وقيل معناه أن الله عز وجل ذكره، يهب النية للعبد خالصة لا يشوبها شيء ، ولا تدخلها آفة ، والأعمال يهب مع التخليط والشوب ، ومالا خلط فيه فهو أخير وأفضل مما فيه الخلط [3] .

وكان مطرف بن الشخير يقول . صلاح العمل بصلاح القلب ، وصلاح القلب بصلاح النية ، ومن صفا صُفى له ، ومن خلط خُلّط عليه ، وقيل

---

(١) فى الأصل (كلها) .

(٢) فى الأصل (فأبلته فى صحيفتى) .

(٣) هذا كله فى تفسير الشطر الأول من الخبر (نية المؤمن خير من عمله) أما الشطر الثانى (ونية الفاسق شر من عمله) فالمراد : أن الفاسق ينوى بعمله الازدياد من الدنيا ، أو نفاق الناس ، أو الاستعانة بظاهر العبادة على الخلق والإضرار بهم ؛ أو غش الناس بعمله : فهذا كله شر من العمل المقترن به .

معناه : أن النية من شروط صحة العمل، ولا يصح إلا بها، فالا تصلح الأعمال إلا به، هو خير من العمل . وقال قائلون معناه أن العبد إذا عمل عملا صالحا ذكر به، ومدح وأثنى عليه، وإذا نوى بقلبه، ولم يمكنه القيام لاستعمال ما نوى، ثم ذكر ذلك لم يثن عليه ولا مدح بما نوى، وما نوى أكثر فى الفوز، وأعظم فى الأجر، مما يعمل ظاهرا، فذلك معناه . وهذا لحديث أبى ضمضم لما جاءت النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة من الصدقة جاء كل واحد بما تيسر. ونوى أبو ضمضم بقلبه صدقة عرضه . فلما أصبح، غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال النبي عليه السلام : من المتصدق بعرضه البارحة ؟ ألا إن الله قد قبل صدقته . ثم جعل النبي عليه السلام [يقول] معظما لفعله، ومقللا لفعل الصحابة : يعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم . فى هذه آية للسائلين، ومثله ما روى فى خبر أن رجلا مر على تل من الرمل، فى زمن مجاعة وقحط ، فتمنى بقلبه، أن لو كان دقيقا فتصدق به ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له قد قبلنا صدقتك ، وشكرنا حسن نيتك ، وأجزينا لك من الفضل أن لو كان دقيقا فتصدقت به . وهذا العبد لو كان هذا المقدار من الرمل دقيقا ملكه، ثم تصدق به، لخاف على نفسه العلة والآفة فى صدقته من مدح وثناء . وذلك نقصان فى قرباته ، ولما نوى ذلك من غير مباشرة منه لذلك بجوارحه، حصل له الأجر العظيم ، والثواب الجسيم ، مع التخلص من الآفة . فهذا معناه[1] . وقال قائلون معناه نية المؤمن للعمل الصالح قبل أن يعمله خير من العمل الصالح إذا لم تتقدم النية . وهذا كرجل صلى ركعتين، ونوى إن عاش ألف سنة أن يفعل ذلك كل يوم ثم يموت . فربنا تعالى أعطى الأجر بنيته ذلك، وإن لم يتصدق [و] ذلك بحسن نيته .

وقال أبو طالب رحمه الله . النية خلد[ت] أهل الجنة [فى] الجنة وخلد[ت] أهل الشرك [فى] النار، لدوام ثبات الموحدين على التوحيد مدى الأبد ،

---

(١) ومن نوى أن يعمل سوءا فلم يعمله لم يكتب عليه وزره . للحديث «ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه سيئة» .

ودوام نية الملحدين ما بقي الدهر ، فصار ذلك من معظم أعمال الفريقين . فاستوجبرا الخلدين . وفى الخبر معنى غير هذا بأن يكون الكلام يتحلى بالتقديم والتأخير أى نية المؤمن هى من عمله خير ، كأنه قال بعض أعمال الخير . وهذا كقوله: يسألونك كأنك حفي [٢] عنها، فأخر قوله عنها ، ومعناه التقديم .

قال أبو طالب بالنية امتاز المنافقون من جملة المؤمنين لأن المنافقين مؤمنون فى الظاهر ، ومحكوم لهم وعليهم بحكم الإيمان فى المؤمنين ، إلا أنهم كانوا يراءون الناس ولا يذكرون الله بقلوبهم ، إلا أنهم يذكرونه بالألسنة وذكر اللسان وإن كثر قليل ، وليس شيء من ذكر القلب بقليل، فهذا ما جاء فى تفسير معنى الخبر مستقصى فيه .

والخبر الثانى :

قال أنس بن مالك رضى الله عنه . لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال . إن بالمدينة أقواما . ما قطعنا واديا ، ولا وطئنا موطئا [٣] يغيظ الكفار ، ولا أنفقنا نفقة، ولا نصبنا نصبا ، ولا أصابتنا مخمصة ، إلا يشركو[نا] فى ذلك وهم فى المدينة، قالوا وكيف يا رسول الله وليسوا معنا ؟ قال : حبسهم العذر فاشتركوا بالنية. فانظر كيف حصل لهؤلاء القوم أجر صدقة المتصدقين ؟ واجتهاد المجتهدين ؟ وقطع مفاوز المسافرين ؟ حصل لهم هذه الأنواع من الطاعات وهم فى بيوتهم ، وعلى أعمالهم وأولادهم وأهاليهم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله يختص برحمته من يشاء ، ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم . أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش . ولرب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته .

الخبر الثالث :

قال أبو طالب المكى رحمه الله : لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم

---

(٢) فى الأصل « حفيا » .

(٣) فى الأصل « موطىء » .

إلى المدينة جعل المؤمنون يهاجرون إليه من مكة،مع نيات مختلفة . فقوم نياتهم دينا يصيبونها من رسول الله صلى عليه وسلم ، وآخرون نياتهم أن يعيشوا فى جملة الفقراء من الصحابة ، وآخرون ينوون التزويج من نساء الأنصار،لما بلغهم من حسنهن وجمالهن ومواساتهن للأزواج ، وآخرون يحبون المرأة من المهاجرات،فيهاجرون رغبة فى تزويجها ، وآخرون يستطيبون أرض المدينة وهواءها ولذة العيش فيها ،فيخرجون تضجرا منهم . والمرأة تبغض زوجها فتخرج مهاجرة ، وآخرون يخرجون التماس رضاء الله . ورضا رسوله ، فكانوا يخرجون إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع اختلاف هذه النيات ، فيخفى ذلك على الصادقين من المهاجرين والأنصار ، ويدخلون فى جملة اسم الهجرة . ويسمون المهاجرين . فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله . إنما الأعمال بالنيات . معناها لا عمل متقبل برضاه [الله] ويرفعه ويحبه،إلا بالنية الصالحة الخالصة .

ثم قال للجملة من المخلصين الصادقين،ومن المخلصين الكاذبين(١) [ألا] ولكل امرىء مانوى ، فوكلهم فى حكم سرائرهم إلى الوكيل ، إذ لم يرسله الله وكيلا ، ولا حفيظا ولا مسيطرا ، بل بعثه مبلغا. ثم فسر القول وفصل الحكم،فقال . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، أى نصرة لدين الله ، لا مهاجرا ومجاهدا مع رسول الله ، فهجرته إلى الله ورسوله . أى فله ما نواه . ردا على قوله : ألا ولكل امرىء مانوى من الخير . ثم قال فى نية الشر ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه أى فله ما نواه عطفا أيضا على محمل قوله . لكل امرىء ما نوى من الشر . قال ابن مسعود رضى الله عنه . هاجر رجل منا فتزوج امرأة تسمى أم قيس وكان يسمى مهاجر أم قيس .

وكذلك مثل هذا فى الخبر الآخر.أن رجلا من المسلمين خرج فى غزاة

---

(١) أى المخلصين ظاهرا الكاذبين فى نياتهم كالذين هاجروا لزواج أو ضجرا من مكة .

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآى رجلا من المشركين ، على حمار قد خرج للمبارزة، فطمع الرجل المسلم فى حماره، فخرج إليه فقتله الكافر،[١] فكان يسمى شهيد الحمار بنيته ، ومما يدل على أن نية الشر يؤاخذ الله العبد بها،ماجاء عن ابن مسعود ، فى تفسير قوله : ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم . قال:إن الله تعالى يعاقب العبد على إرادة الشر من غير عمل . لأن الله علق العذاب بالإرادة ، وهكذا قال غيره فى همة الشر . إن الله يؤاخذ بها [و] اعتل بقوله : وهموا بما لم ينالوا ثم قال بعده: فإن يتوبوا يك خيرا لهم فأدخل لهم فى الذنوب و [أ] عقبها بالتوبة [وطلبها] .

وقيل للثورى أيؤاخذ الله العبد بالهمة؟ يعنى إذا كانت عما أخذ، يعنى إذا عقد فتوى فعلها فهو العزيمة . وهو الذى أخبر الله جل ثناؤه،أن فى آدم عليه السلام لم يجر ذلك،بقوله ولم نجد له عزما ، وفى حديث ابن أبى كبشة عن النبي صلى الله عليه وسلم : رجل آتاه الله مالا ،ولم يؤته علما فتخبط فى ماله بغير علم ، فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه لعملت فيه ، كما يعمل فهما فى الوزر سواء .

قال أبو طالب: فالقلب أضعف شىء وأهونه،وإنما قوته بقوة النية ، فإن قويت نيته فى الخير قوى القلب بها ، وإن ضعفت نيته ، ازداد القلب ضعفا بضعفها[٢] . وقال أبو طالب: وقد أغفل الناس علم النية ، وتركوا السؤال عنها، كإغفالهم السؤال عن سيرة المتقدمين كيف كانت فى كل شىء ، وكتركهم التفقد لها ، وكحاجتهم إلى علم التوبة وأحكامها ،والنية هى فرض الفرض،

---

(١) فى الأصل « فى سبيل الله » ولا معنى له إلا بتعسف يأباه الشرع .

(٢) فى حديث آخر « ومن هم بسيئة ولم يعملها لم يكتب عليه سيئة » وفى كلام أبى طالب وجه للجمع بين الرأيين ، والتوفيق بينهما . فالعبد لا يؤاخذ على الهم بالذنب مؤاخذة فاعل الذنب ، وإنما يؤاخذ لتسببه فى إضعاف قلبه ، بضعف نيته وبكثرة الهم بالذنب ؛ يمكن أن يقع العبد فيه، فيؤاخذ حينئذ بالذنب ونواياه السابقة لأنها سبب فى وقوعه فى الذنب بعد ذلك .

وأصول الأصول ، وقد كان العلماء إذا سئلوا عن علم شيء أوسعوا فى أمر ، [قالوا] إن رزقنا الله نية فعلنا ذلك . قال أبو طالب المكى رحمه الله: وعلى العبد ألا يترك العمل الصالح خشية دخول الآفة عليه إن كان داخلا فيه، لما يتغير به من العوارض والوساوس ، ولا يترك العمل لأجل الناس حياء منهم ، ولا يترك العمل كراهية اعتقاد الناس فضله ، فإن فعل شيئا من ذلك أدرك العدو بغيته منه . ووافق محبة عدوه ، وذلك لأن العمل لأجل الناس رياء ، وترك العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل خشية دخول الآفة فيه خبل ، وفعله مع دخول العلة عليه وهم وقصور علم ، وترك العمل خشية اعتقاد الناس فضله عجز ، وما خلق الله تعالى داء إلا جعل له دواء . وقال صلى الله عليه وسلم . لا يستكمل العبد إيمانه حتى يكون الناس عنده كالأبعرة ثم يرجع إلى نفسه ، فيراها أحقر حاقر .

وقال بعضهم : الخلق عند الطاعة والمعصية على ست طبقات . رجل يستحي عند المعصية من الله ومن خلق الله ، فهذا مقام المؤمنين ، وآخر يستحي من خلق الله ولا يستحي من الله ، فهذا مقام الظالمين ، وآخر لا يستحي من الله ولا من خلق الله ، فهذا مقام الفاسقين ، وآخر عند الطاعة يستحي من الله ، ولا يستحي من خلق الله ، فهذا مقام العارفين من المخلصين ، وآخر يستحي عند الطاعة من خلق الله فيترك الطاعة ، فهذا مقام المنافقين ، وآخر عند الطاعة لا يستحي من الله ، فنودى [ب] ما يجب عليه فى ذلك ، ولا هو يستحي من خلق الله . بل يعمل على الغفلة . فهذا مقام عموم المؤمنين من أصحاب اليمين .

وقال أبو طالب المكى : ويدخل المطيعون فى الطاعات على ست مقامات .

[ال] رجل [الأول] دخل فى العمل لله ، وخرج منه لله ، وخلط بين الدخول والخروج ، فهذا لا يضره ما بين ذلك ، [فقد] سلم طرفـ [ا] العمل ، وفى بعض الكتب : عبدى اذكرنى قبل غروب الشمس ساعة ، وقبل طلوعها

ساعة، أكفك ما بينهما . و [ال] رجل [الثانى] . دخل فى العمل لله ، وخرج من العمل لله ، وخلط بين ذلك . ثم بعد الخروج ، أحدث العلة ، فهذا يبطل عمله ويضل[١] سعيه ، وعلة هذا العامل من وجوه أربعة أحدها . يظهر فيصير علانية ، بعد أن كان سرا فيخسر خسرانا عظيما ، وهو سبعون ضعفا من الجزاء . [العلة الثانية] يذكره ثم يغيب[٢] عنه ، فيصير سمعة ورياء .

وقد قال أبو سليمان الدارانى إن لإبليس شيطانا يقال له المناقض . يعمل الإنسان الطاعة . فلا يزال يطالبه بالتحدث بها[٣] ، حتى يتحدث العامل بها[٤] بعد عشرين سنة ، فيأخذ منه نصيبه ، [العلة الثالثة] مثل أن يتظاهر به ويفتخر فيصير معجبا بعمله مدلا على ربه . والمدل والمعجب لا يرفع لهما[٥] عمل . (العلة الرابعة) أن يتكثر بعمله ويزرى على غيره ، فيحبط تكثره عمله قال أبو طالب : وهذه المعانى هى[٦] من سوء الخاتمة فى العمل . إذ حسن الخاتمة يحتاج إليه فى كل عمل وفى كل ساعة .

والرجل الثالث : يدخل فى الطاعة لله ، وبعد التلبس[٢] دخلـ[ـت] عليه العلة فى وسط العمل ، فخرج من العمل مع مساكنة العلة ، فهذا بطل عمله بسوء خاتمته[٧] .

والرجل الرابع : دخل فى العمل بآفة ، وخرج بالصحة ، فهذا سلم له عمله وميز بإجراء عمله لأنه توبة من الله ، وهو الفرق بينه وبين العامل قبله ، لأن هذا ختم عمله بالتوبة ، وذاك ختم عمله بالإصرار .

---

(١) فى الأصل (ويظل) .
(٢) فى الأصل (غاب) .
(٣) فى الأصل (به) .
(٤) فى الأصل (له) .
(٥) فى الأصل (هو) .
(٦) فى الأصل (التلبيس) .
(٧) فى الأصل (خاتمتها) .

والرجل الخامس : يدخل فى العمل لله،ويخرج منه لله،ولم تعتوره بين ذلك علة ،فهذا فاضل[١] جملة العمال،قد شاهد فى عمله حرمة ذى الجلال .

الرجل السادس : وهو أعلى فى الفضيلة من هذا . وهو الذى يدخل فى الأعمال بالله ، ويثبت فيها مع الله ، ويخرج منها لله ، وهذا مقام الموحدين وحال المشاهدين من الموقنين ، فالأول درجة عموم المؤمنين ، والثانى درجة أهل الإصرار من المنافقين ، والثالث درجة أهل الخذلان من الظالمين والرابع درجة المقتصدين ، الخامس درجة خصوص المؤمنين ، والسادس درجة خصوص المخلصين من العارفين . ويؤت كل ذى فضل فضله . ولو شاء لهداكم أجمعين .

وقال يحي بن معاذ : جسمى معيوب ، وقلبى معيوب ، وخلقى معيوب ، ودارى معيوب ، أفتطالبنى أن أخرج من بين هؤلاء المعيوبين عملا لاعيب فيه ؟ وعزتك لا أقدر على ذلك ألا بعزتك فأعنّ .

وقال أبو طالب المكى: أفضل ما يأتى العبد فى عمله ، ألا يريد بعمله إلا وجه الله وحده ، حبا لوصف الإلهية ، وتعظيما لحق الربوبية ، إلزاما للنفس بوصف العبودية . فإن حجب العبد عن شهادة هذا المقام ، لغيبة ذى الجلال والإكرام عنه ، فيعمل بمشاهدة ما رُغب فيه . وشُوق إليه ، من مقام الرجاء . وخوفا مما حُذر منه وخُوف به [من] العذاب الأليم من[٢] مقام الخوف[٣] .

قال أبو طالب:وفرض على العامل أن يعرف النية من الأمنية،ويطلب

---

(١) فى الأصل (فاصل وجلة العمال) .

(٢) فى الأصل (عن) .

(٣) قال بعضهم : العمل على الرجاء أعلى من العمل على الخوف . ونرى أن ذلك يناسب حال صغار المريدين ؛ أما فى الوسط . فيجب أن يستوى الخوف والرجاء ؛ لأن الإفراط فى الخوف قنوط ؛ والإفراط فى الرجاء إدلال وكلاهما مذموم . وفى النهايات ؛ يغلب الخوف على كبار العارفين .

علم ذلك عند العلماء بالله، فالنية هى مباينة الهوى فيما أراد به العابد القربة إلى الله مما أمر به وندب إليه ، أو أبيح له ، فى ترك ما نهى عنه، مما يتعلق بشأن الآخرة، فهذه هى النية وهى التى يحتاج إليها المؤمن فى عمله . فأما الأمنية فهى على ضربين . منها ما يكتب للعبد بها حسنة ، وهو ما تمناه من القربات وغبط به الصالحين[1] من الخيرات ، كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا حسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، فهذا إن تمنيت مكانته كتب لك مثل فضله . والرجل الثانى: رجل آتاه الله حكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس . وفى خبر آخر رجل آتاه الله القرآن فهو يعمل به آناء الليل والنهار، فهذا هو التمنى المحمود والضرب الثانى من الأمنية، وهو ما يكتب به للعبد السيئات، وذلك كتمنيه أسباب الدنيا ، وما فضل به أبناؤها من الهوى والشهوات ، وتتمنى المرأه أنها رجل ويتمنى السوقى أنه[2] ملك ويتمنى الوزير أنه أمير ، والوضيع أنه شريف ، ويتمنى الأعمى أنه بصير ، ويتمنى المملوك أنه حر ، ويتمنى الفقير أنه غنى ، أو يتمنى الرئاسة فى الدنيا، وحسن سياسته للناس ، ويتمنى رفعة الدنيا وفخرها ، وذكر أهلها فيها . فهذه كلها ملحقه بالدنيا وهى مذمومة ، وقد نهى الله تعالى عن ذلك فى قوله ، ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض يعنى من أرزاق الدنيا، وأسباب الهوى، وهذا لا يعرفه إلا أهل المعرفة بالله . وقال صلى الله عليه

وهناك فرق بين الرجاء والتمنى . فإن كان السالك قد حصلت له بعض أسباب العمل سمى : رجاء وإن كانت الأسباب محرمة أو مضادة سمى غرورا . وإن كانت مجهولة . سمى تمنيا . فالرجاء . ارتياح القلب لانتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت الاختيار كرجاء الغلة بعد تسبب الفلاحة (روضة التعريف . لسان الدين ابن الخطيب) . مخطوط مصور بالجامعة العربية ١٤٣ تصوف . قلم .

(١) فى الأصل (الصالحون) .

(٢) فى الأصل (أنها) .

وسلم إذا تمنى أحدكم فلينظر ما تمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته . منها ما يكتب به الحسنات، ومنها ما يكتب به السيئات .

واعلم أن الأصل [فى] الأعمال ثلاثة :مفروض . ومندوب إليه . ومباح . فمفروض فعله ومفروض تركه . والعمال ثلاثة :

عامل يعمل لإرادة وجه الله بغير نية الآخرة ، ولا تقربا إلى الله . فذلك يوضع يوم القيامة فى ميزان السيئات .

وعامل يعمل غفلا وسهوا بحركة الجبلة ، وطبع الفطرة ، وإجراء العادة، من غير نية الآخرة ولا [رعاية] لدينه فهذا أحسن أحواله أن يسلم منه كفافا لا له ولا عليه وأسوأ أحواله أن يسأل[1] عن أعماله التى هى بهذا الوصف، ويوبخ ويقرع[2] . فيقال له : ويحك ! أذهب[ت] وقتك غفلة ، وأفنيت يومك سهوا ، لا جعلته [لله] فتربح ولا نويت به الآخرة فتعطى منها ثوابا . وقد قال فى محكم خطابه « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » قيل فى [معناه] مجازفة وسهوا . فهذا العمل . هو الذى ترتفع منه العبرة عند الميزان ، كما جاء فى قوله تعالى « فجعلناه هباء منثورا » .

والعامل الثالث . هو الذى يخلص عمله فيعمل لله حياء وإجلالا ، أو رغبة أو رهبة ، أو لأجل ما أمر به ، فينوى أداء ما افترض عليه . أو لما ندب إليه ، فينوى المسارعة إلى الخير ، أو فيما أبيح لك فتكون نيته صلاح قلبه ، وإسكان نفسه ، واستقامة حاله ، وذلك كله لأجل الدين قال يحي بن معاذ . يموت التقى [بداء] لا يبرئه إلا العبور على جسر جهنم، ويموت الزاهد بداء لا يبرئه إلا التلذذ بنعيم الجنة . ويموت الخائف بداء لا يبرئه إلا استماع البشارة من الله بلا واسطة . ويموت المحب بداء لا يبرئه

---

(١) فى الأصل (سأل) .

(٢) فى الأصل (وتقريع) .

إلا النظر إلى وجه الله ، ويموت العارف بداء لا يبرئه إلا المجالسة مع الله والمسامرة مع الله ، فى مقعد صدق .

وقال أبو طالب المكى . وعلى العامل أن يعرف تلبيساته الفرائض بالنوافل ، والفضائل بالنواقص ، والسنن بالبدع ، حتى لا يقع فيما يكون فيه هلاكه ،وهو لا يدرى . وقد تلتبس العبادة بالعادة ،مثل أن يكون للعبد نية فى علم أو عمل ، أوصدقة أو حضور مجلس ، ثم تعزب نيته فيبقى[1] على عادته ،فرب حاله التى قدعرته ، لا يحب [معها] أن يخرج من عرف الناس له فيعمل لا ستدامة الحال على التكلف لتلك الأعمال فتذهب النية ، وتبقى العادة ،فيخرج بذلك من إرادة الآخرة والسعى لها ، فيدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات ،على جريان العادة لها ، فمن هنا آفة العباد والعلماء . فاعرف الفرق بين الحالين تنج من التوبيخ فى الدارين .

قال أبو طالب رحمه الله . وقد يتلبس إظهار الأعمال ، وكشف ما كتم من الأحوال ، لأجل التأديب به ، ولإرادة الاتباع له[2] ، ولإظهار قدرة الله وآياته لمزيد السامع من المعرفة به ، يفعل مثل ذلك للتزين والفخر ،والمدح به ، وطلب الذكر[3] ،وقد جاء فى مثل ذلك حكاية عن السلف الصالح . يجب

---

(١) فى الأصل (فيبق) .

(٢) فى الأصل (عليه) .

(٣) على هذا الخطأ يسير كثير من مريدى طريق التصوف ؛ يواجه بعضهم بعضا ببعض أنواع الكشف ، فربما قطعه عن الطريق . لعدم درايته بما يكشف عنه ومالا يكشف عنه ؛ وعلامة من يفعل ذلك للتزين ؛ أن يغضب إذا نفيت عنه ذلك ؛ أو جردته من وصف المعرفة .

وقد يواجه مريدوا طريق التصوف بعضهم بعضا بمواجيدهم فى الذكر ابتغاء التعليم فى الظاهر وإرضاء لآفة خفية كامنة فى النفس ، وعلامة كذب هذا النوع فى رواية الكرامات ، فإن أحدهم يجعل لنفسه قسطا فى رواية الكرامة عن غيره ، أوفى نقل أحوال من لقيهم من العارفين .

═

على العاقل العارف أن يميز بين الحالين، كقول الأحنف بن قيس وكان أحد العقلاء، مدحه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ووصفه بالعلم والبيان . قال يوما لابن أخيه وقد اشتكى ضرسه فجعل[1] يكثر التشكى ويظهر التأوه، فقال: كم تقول لقد ذهبت عيني من أربعين سنة بنيه التأديب . ولقى سفيان الثورى جعفر الصادق . وعلى جعفر جبة خز فقال ما هذا يا ابن رسول الله، فأخذ بيده فأدخلها فى جبته فإذا تحتها عباءة، فقال هذا لله . وهذا للناس، فقد أظهر عمله الخفى لأجل نفى التهمة عن قلب أخيه المؤمن، ومثل هذا ما جاء فى الأثر أن مالك بن دينار والحسن البصرى التقيا . وعلى مالك ابن دينار، صوف وبرنس، وعلى الحسن حلة حمراء، فقال الحسن لمالك . يا رويهب . فقال: نشدتك الله يا أبا سعيد. لو اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . أكان يرضى لباسى أم لباسك ؟ فرفع الحسن ذيل جبته، فإذا تحتها[2] قميص شعر ثم قال: وما أردناكم به أظهرناه، وما أردنا الله به أخفيناه ؛ وقد أظهر عمله بعد ما كان كتمه، ليخرج الأفكار من قلبه . وكان بعض الصالحين إذا أصبح يقول صليت الليلة كذا وكذا، ركعت وقرأت كذا وكذا آية ؛ فيقول له أصحابه : أتتحدث بعملك ؟ فقرأ . وأما بنعمة ربك فحدث . فهذا الإمام المشهور أظهر عمله كى يقتدى به أصحابه، وينبسطوا لمثله، ويقال . اعتل الجنيد والثورى فعادهما[3] جماعة من الفقراء . فأما الثورى، فلم يشك ولم يظهر علته، وأما الجنيد فأظهر علته، فقيل له فى

= وشيوخ الطريق هنا أحد نوعين، إما جهلاء لا دراية لهم بالطريق وأعلامه ورسومه وقواطعه . وهؤلاء يزاحمون مريديهم على هذا الخطأ، وهم أشر الشر على التصوف منذ ظهر إلى الآن ؛ وإما علماء أجلاء ؛ وهؤلاء يفضلون التربية الإيحائية عن بعد . لا عن تصريح وتوضيح بالتصريح .

(١) فى الأصل (يجعل) .

(٢) فى الأصل (تحته) .

(٣) فى الأصل (فعاداهما) .

ذلك ، فقال : أردنا أن نكشف آثار قدرة الله فينا ، فلهذا أظهر علته وشكى ألمه ، ومع ذلك كان فاضلا فى فعله لما استعمل من حسن النية فيه .

وقال ابن [أبى] الحوارى : سئل الدارانى عن الرجل يعمل الطاعة ، ثم يخبر بذلك . فقال : إذا كان إماما يقتدى[1] به فنعم . فهذا مختلف باختلاف العمال . وقال أبو طالب . وقد يعقد الجاهل على عقد يلتمس به الفضل ، وذلك العقد نقص اغترارا بظاهر الأمر مثل ما روى أن رجلين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تآخيا على العبادة ، واعتزلا الناس ، فقال أحدهما لصاحبه . هلم اليوم فلننفرد عن الناس ونلزم الصمت . ولا نكلم من كلمنا ، فإنه أبلغ فيما نريد من القربة إلى الله تعالى ، فاعتزلا فى خلوة وصمتا . فمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهما . فلم يردا عليه السلام . فسمعناه حين جاوز بنا يقول : هلك المتعمقون هلك المتنطعون . فاعتذرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابا إلى الله من ذلك . وكان رجل يختلف إلى مجلس ابن عون ، وترك ذلك أياما وجلس فى البيت ، فرأى ذات ليلة فى المنام [قائلا يقول] : انقطعت عن المجلس ، لقد غفر الله للقوم[2] سبعين مرة بعد تخلفك عنهم ، وحرمت[3] ذلك . وقيل لبعض العلماء [أ] يتخلف الرجل عن الجماعة إذا خاف الفتنة فى دينه ؟ قال نعم : يصلى فى منزله ، قيل له يتخلف عن طلب العلم ؟ [قال] هو الوقوع فى خوف الفتنة[4] .

---

(١) أى يصلح للاقتداء به ؛ وإلا فكثير ممن صدروا أنفسهم لمشيخة الطريق ؛ دون شهادة حال ؛ أو صدق ؛ أو أجازة عارف ، يقتدى بهم مريدوهم ؛ وليسوا من أهل لاقتداء ؛ ولمن يصلح للاقتداء من الشيوخ شروط عرضت لها كتب التصوف فى أبواب مستقلة .

(٢) فى الأصل « القوم » .

(٣) فى الأصل « أحرمت » .

(٤) أى التخلف عن طلب العلم لخوف الوقوع فى الفتنة هو الوقوع فى وزر خوف الفتنة فعلا حيث قعد عن طلب العلم الذى به قوام العقيدة والعبادة ، وفرق =

قال أبو طالب رحمه الله : وقد تلتبس الإرادة بالمحبة . والإرادة أن يريد وقوع الأمر . وقد لا يحب كونه ، أو يريد أيضا وجود ضده . والمحبة ماقهر العقل ، وغلب الوجد ، وخلا في مجامع القلب ، وكُره وقوع غيره ، ولم يُرد فقده .

قال يحيي بن معاذ : معاشر المريدين . لا تطلبوا الدنيا . فإن [كان] لا بد فاطلبوها ولا تريدوها ، [كان] فإن كان لا بد ، فأريدوها ولا تحبوها . فإن كان لا بد ، فأحبوها ولا تسكنوا إليها ، فإن الزاد منها ، والمقيل في غيرها . وقيل أراد الخالق خلق إبليس ولم يحب ذلك ، وأراد أن يخلق آدم وأحب ، والسعيد من اجتمع فيه الإرادة والمحبة . وحكى عن مالك بن دينار ، وهو مما يليق بهذا الفصل قال : خرجت من البصرة أريد الحج إلى بيت الله الحرام ، فلما بلغت مكة استحليت الطواف ذات ليلة ، فبينما أنا أطوف بالكعبة . وأنا متلذذ بحلاوة الخلوة . فلما دنا قرب الفجر رأيت جارية تطوف أمامي وهي تقول . سيدى ومولاى بسكرى البارحة وخمّارى الساعة إلا غفرت لى ، فقلت : يا جارية . ما هذا الكلام في مثل هذا المقام ؟ فقالت : يا مالك ما قلت إلا ما يليق بحالى . وهذه كلمة تصلح لى ولا تصلح لك ، فقلت واعجباه ! كانت المسألة واحدة فصارت اثنتين ، أخبرينى كيف عرفت [أنى] أنا مالك بن دينار ؟ وكيف صلحت الكلمة ، تصلح لك ولم تصلح لى ؟ فقالت : أما معرفتى بك ، فإن روحى وروحك التقيا تحت عرش الجبار ، فشم روحى روحك ، فعرفتك حين رأيتك وأما قولى إن هذه كلمة تصلح لى ولا تصلح لك ، فذاك لأنى أحب الله . وأنت تريد الله ، فما أبعد ما بينهما . ف[أما] يعجبك من قولى ، فوالله ما قلت كذبا . شربت بكأس المحبة مسرورة[١] ، فأصبحت في ميدان الشوق مخمورة[١] ، ثم ولت وهى تقول :

= بين خوف الفتنة ، وهو الوقوع في خوف الفتنة فملا .

(١) في الأصل « مسرورا » و « مخمورا » .

أسقيتني كأسا فأسكرتني فمنك سكرى لا من الكأس
قطعتني عن كل مستوحش أفديك بالعين وبالرأس

قال أبو طالب المكي . وقد تلتبس الحاجة بالشهوة ، فالحاجة ما اضطررت [إليه م] ما لم يكن منه بد ، ولا تستغنى بغيره عنه . روى [أن] ابرهيم الخليل عليه السلام ، قصد إلى باب صديق له في حاجة الدنيا ، ولم يقضها(١) له ، فجلس متفكرا حزينا ، فأوحى الله تعالى إليه : أن يا إبرهيم لو بخليلك بخا أنزلت حاجتك ، لقضاها(٢) لك . فقال : إلهى علمت أنك الحاجة تبغض للدنيا ، فكرهت أن أعارضك بذلك ، فقيل له : يا إبرهيم . أو ما علمت أن الحاجة ليست من الدنيا(٣) والشهوة مزيد لذة واستدعاء فضل فاقة ، واجتلاب تقدم عادة ، ولقد أوحى الخبير إلى من كان يخلط الرماد بالشعير : يا داود . حرام على قلب محب للشهوات أن أجعله إماما للمتقين .

قال أبو طالب المكى رحمه الله . وقد يتطوع العبد بعمل يضيع به فرضا أو واجبا ، وإحكام الفرض يحوز السلامة التى هى الفضل ، وروى فى مثل هذا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، تعسس ذات ليلة فاطلع من خلل باب ، فإذا شيخ بين يديه زق خمر وقينة تغنيه ، فتسور عليه . فقال : ما عندى نفسه(٤) ما أقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذا الحال . فقام إليه . فقال يا أمير المؤمنين . أنشدك الله إلا أنصفتنى ، أتكلم ؟ فقال له قل . قال إن كنت عصيت الله فى واحدة فقد عصيته أنت فى ثلاث : قال وماهى ؟ قال قد تجسست وقد نهاك [الله] عن ذلك ، وقد تسورت وقد قال الله تعالى : وأتوا البيوت من أبوابها ، وقد دخلت بغير إذن ، وقد قال الله تعالى ، « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » . فقال

---

(١) فى الأصل « يقض »
(٢) فى الأصل « لقضاء » .
(٣) أى ليست معدودة من أمارات حب الدنيا ، لأنه لابد منها لتقويم الحياة .
(٤) هكذا فى الأصل .

عمر : صدقت ، فهل أنت غافر لي ذلك ؟ فقال غفر الله لك فخرج عمر وهو يبكي [وقد] علا ضجيجه ، وهو يقول ويل لعمر إن لم يغفر الله له هذا الذنب ، أرى الرجل قد كان يختفي بهذا عن ولده وجاره وصبي منزله ، والآن يقول اطلع على أمير المؤمنين ورآني . ويل لعمر وويل أمه ، إن لم يغفر الله له . ومثل هذا مما هو حال العبد وأولى به من حال غيره . ماروى أبو نصر التمار ، أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث . وقال : عزمت على الحج . فتأمر بشيء ؟ فقال بشر : كم أعددت النفقة ؟ قال : ألفي درهم . قال : وأي شيء تبتغي بحجك ؟ نزهة أو تجارة أو اشتياقا إلى البيت ، أو هربا من عيالك ، أو استراحة من شوقك؟ فعد عليه شهوات النفس ، أو تطلب به رضى الله ؟ قال : بل رضى الله [قال] فإن أصبت رضى الله وأنت في منزلك وعلى معاشك ، وتكون على يقين [من] مرضاة الله ، أتفعل ؟ قال : اذكر لي . قال : اذهب فأصدقها في فقير لسد فاقته ، أو في أرملة تغنيها ، أو في يتيم تفرحه ، أو في مديون تقضي دينه ، وإن قوي قلبك أن تعطيها لواحد من فقراء إخوانك فافعل ، فإن إدخال السرور على قلب امرىء مسلم أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام . قم فأخرجها كما أمرنا ، وإلا قل لنا ما في نفسك . فقال : سفري فيه قوي لنفسي . فتبسم بشر وقال : المال إذا جمع [من] وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطرا تستريح إليه . وقد قال الله تعالى « إنما يتقبل[1] الله من المتقين » .

قال أبو طالب . ينبغي للعامل أن يكون له معرفة الفرق بين عملين يشبه بعضهما بعضا . أحدهما طاعة مأجور عليها ، والآخر معصية معاقب على فعلها[2] ، كالمداراة والمداهنة ، والعتاب والتوبيخ ، والغبطة والحسد ، والفراسة وسوء الظن ، والنصيحة والفضيحة . وشرح ذلك ، أن ما أردت به وجه الله والدار الآخرة ودافعت به عن دين[ه] ، وقصدت به سلامة

---

(١) في الأصل (يقبل) .
(٢) في الأصل (فعله) .

أخيك من التأثم بك ، وسلامتك منه ، فهذا هو المداراة . وذلك يحسب للعبد[1] فى جملة صدقاته - كما قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم « مداراة الناس صدقة[2] » وأما المداهنة ، فما جلبت به دنيا وأردت به نيل حظ نفسك من التحبب إليهم ، وطلب الجاه عندهم . والعتاب ما كان فى الخلوة . والتوبيخ لا يكون إلا فى جماعة . ولذلك يعاتب الله أولياءه يوم القيامة فيلقى عليهم [م] كنفه . والغبطة أن تحب لنفسك ما رأيته من أخيك ، ولا تحب زواله عنه ، بل تفرح له به ، وتريد تبقيته عليه ، والمزيد له منه . والحسد ما أردت أن يكون مثل ذلك لك ، وأحببت زواله عنه وكرهت تبقيته عليه ، فهذا مكروه[3] فإن سعيت [إلى] ذلك بقول أو بفعل فهو[4] بغى ، يزيد على[5] الحسد ، وهو من كبائر المعاصى ، والفراسة[6] ما توسمته من أخيك بدليل يظهر

---

(١) فى الأصل يحسب العبد .

(٢) ومن المداراة قوله صلى الله عليه وسلم . إنا لنبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم . بعد أن قال فيمن طرق عليه الباب بئس أخو العشيرة . فلما دخل فرش له رداءه صلى الله عليه وسلم ، وقد فسرها ابن مفلح فى كتابه (الآداب الشرعية) بأنها إظهار ما ليس فى الباطن لدفع الشر ، كما سبق بيانه .

(٣) بل حرام من الكبائر .

(٤) فى الأصل فهى : وعدهم الراغب الأصفهانى فى «الذريعة» من الذين يسعون فى الأرض فسادا وجعل حدهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .

(٥) فى الأصل يزيد عليه الحسد .

(٦) هناك فراسة الفلاسفة ، وفراسة الكشف عند الصوفية . ولا يعترض بظهور صدق فراسة الفلسفة فيقال . لا فضل للتصوف أو إنه مقتبس منها . فالحقيقية معروضة على الجميع ليفقه منها من يريد كما يريد وهى بجملتها محجوبة عن غير الصوفى لانه يعمل جاهدا على إزاحة الحجب عن روحه حتى يصدق جذبها للحقائق . أما وجود أجزاء منها عند غير الصوفى فجائز من باب الرياضات والتأملات العميقة =

لك أو شاهد يبدو منه ، أو علانية تشهدها منه ، فتتفرس ذلك فيه ، ولا تنطق به إن كان سوءا ولا تظهره ، ولا تحكم عليه ولا تقطع به ، فتأثم . وسوء الظن ما تظنه من[1] سوء رأيك فيه ، أو لأجل حقد ، فى نفسك عليه ، أو لسوء نية تكون منك وحسد ، كان من أخبث حال فيك، تعرفها من نفسك ، فتحمل حال أخيك عليها[2] ، أو تصديق بلاغة جاهل، أو حاسد ، والنصيحة ما كان بين العبد وبين أخيه فى السر ، والفضيحة ما كان فى الجماعة والملأ ، كما قيل لمسعر بن كدام ، تحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال . إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم ، وإن فضحنى فى الملأ فلا .

باب تصريف العقائد والأعمال
وتحصيل نيات كثيرة فى محل واحد

قوله جل ذكره « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » قال ابن أبى حبيب فى معنى الآية : هؤلاء أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاما يلتمسون به تسمنا، ولا يلبسون ثوبا يلتمسون به خيلاء[3] ، ولا ينفقون نفقة يلتمسون بها[4] حمدا وثناء ، وكانت قلوبهم على قلب رجل واحد . وفى الخبر من أعطى الله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، ونكح لله ، فقد تم له ولاية الله .

وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، كل لله والبس لله ، وانكح لله

=(راجع ، شرح المشاهد . لعجم نيت النفيسى . مخطوط بدار الكتب . والتدبيرات الإلهية للشيخ الاكبر . ليدن) .

(١) فى الأصل (فى) .

(٢) قد يستغل بعض المنافقين لانفسهم هذا التعليل فيرمون به كل من نقدهم أووجه إليهم لوما فى عمل من الاعمال .

(٣) فى الاصل (خيالا) .

(٤) فى الاصل (به) .

ونم لله ، ولا يضرك(١) . وفى خبر معاذ بن جبل رضى الله عنه قال له النبى صلى الله عليه وسلم ، يامعاذ . إن العبد ليسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعيه ، وعن لمس ثوب أخيه ، ما أردت بذلك ؟ وقوله عليه السلام : إن الله ليسأل العبد يوم القيامة عن جميع عمله حتى يسأله عن اللقمة أكلها ، فوجد لذتها . وملبسه ، ومنكحه ، ونومه ، ويقظته ، وسكوته ، ونطقه ، وحركته ، وسكونه ، من حيث كان كل ذلك من أعماله التى يسأل عنها ، ويحاسب عليها . بدليل قول النبى صلى الله عليه وسلم ، ليسأل العبد عن فتات الطينة لأ [ى] شىء فعلت ذلك ؟ وعن لمس الرجل ثوب أخيه لماذا فعله(٢) ؟ فسبحان الله ماأعظم الخطر وأقل الحذر وأكثر الغافلين ، وأقل المتيقظين . إن هذا لهو البلاء المبين . وقال بعض السلف تفقدوا النيات فى أعمالكم . فكم من عمل كبير قدصفر [ت] ه النية. وأنا أشرح لك بعد هذا إن شاء الله ، مبدأ دخول العبدفى العمل ، ومعرفة افتقاد بيان اعتقاد النية ، وتصريف العقود فى العمل الواحد ، ليحصل له

---

(١) الأكل لله يكون بنية القوة على العبادة وتربية النسل . واللبس لله يكون بنية إظهار نعمة الله والتحدث بها وإنعاش الروح لتصفو العبادة من الأكدار ، والنكاح لله يكون بنية العفة والإعفاف . والنوم لله يكون بنية استعادة النشاط والقوةللقوة على العبادة ، وطلب العلم والسعى فى الخير ، فإذا استعملت هذه الأشياء فى ضد هذه المعانى ، كالقوة على الايذاء ، والخيلاء ، والشهوة ، والراحة . كانت إثما . فكل عمل عادى مباح . يمكن تحويله إلى عبادة ، ويمكن تحويله إلى عصيان ويمكن ألا تكون منه فائدة إذا عمل بغير نية وهذا من تعليم أستاذنا سيدى مصطفى الشبراوى المؤكدة .

(٢) فتات الطينة بين الأصابع إن كان إهمالا فى النظافة فهو نقص فى الايمان، وإن كان للعمل فى الحصول على العيش ولتربية الأولاد أو لنفع الناس ، أو لاستغراق الوقت بالعمل . فهو عمل مثاب عليه .

ولمس ثوب أخيك ، إن كان للتجسس على نوع ملبسه أو حسدا له . فهو وزر وإن كان لادخال السرور عليه فهو عمل مثاب عليه .

أنواع من الثواب ، وأكشف لك من ذلك طرقات ، ليستفيد الناظر فيه ، ويكتفى به العارف المخلص فيه ، ولا قوة إلا بالله .

باب نية الاختلاف فى المساجد

والاختلاف إلى المساجد هو من فواضل أعمال المتقين ، وبه أظهر الله إيمان المؤمنين . وينبغى للعبد المؤمن ، إذا خرج من منزله يريد أن يدخل المسجد أن يحصل له ثمان نيات مستحبات ، ليكتب له بذلك الفضل العظيم وينال به غدا من الثواب الجسيم ، فإن الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى ، ويؤت كل ذى فضل فضله .

أولها[1] . ينوى زيارة الجليل جل جلاله فى بيته ، لأن المسجد بيت الله وأنت عبد الله ، وإذا أراد العبد صاحب البيت ليلتقى معه قصده إلى بيته . وطلبه هناك ، وقد أخبرك الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل ذلك ، فقال فى حديث سلمان : ما من مسلم توضأ فأحسن وضوءه ، ثم أتى مسجدا من مساجد الله ، إلا كان زئرا الله ، وحق على المزور أن يكرم الزائر ، ولو أن عبدا مثلك عاملته بالقبيح من فعلك ، ثم قصدته إلى بيته ، معتذرا إليه لأكرمك وقربك ، وعفا عنك ، ولم يرض لك [الجفاء] عند ذلك ، فكيف بالله العظيم ، وهو أكرم الأكرمين[2] !! وينبغى [أن] يتعين[3] أن مضيه إلى بيت ربه هو بتوفيق الله وعنايته ، ولولا أن الله يريد بهذا العبد الكرامة والألفة ، لما كان يوفقه لزيارته فى بيته . وقد جاء عن الموفق الزاهد ، حكاية لطيفة فى معنى هذا قال : لما تم لى ستون حجة ، قعدت بحذاء الميزاب فى المسجد الحرام ، [و] جعلت أتفكر وأقول : إلى كم أتردد إلى هذا البيت؟ فغلبت عيناى ، فإذا قائل يقول : يا موفق . لو كان لك بيت تجمع فيه أضيافك ، هل كنت تدعو إلا من كنت تحبه ، ويحبك؟ فسرى عنى ما كنت أجده . وعن ابن عمر رضى

(١) فى الأصل (أوله) .
(٢) فى الأصل (الأكريمين) .
(٣) فى الأصل (تفنن) .

الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسلم المسجد فقال بسم الله وبالله والصلاة والسلام على رسول الله وعليه السلام ورحمة الله . قال له ملكاه : وأنت فصلى الله عليك . قد جئت بأحسن الكلام بعد لا إله إلا الله .

النية الثانية :

ينوى أن يحصل له بفعله ذلك عند ربه عهد ، فيكون [من] أهل الإكرام والشفاعة [عند الله تعالى][1] كما قيل فى معنى قوله « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا » . قال الصلاة فى الجماعة ، وقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن سبعة ، فقال : هل تريدون ما قال ربكم ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : فإن ربكم يقول . من تطهر فى بيته ، ثم مشى إلى صلاة تعظيما لحقها ، ورغبة فيها ، وإيثارا لها على غيرها ، فله عندى عهد ألا أعذبه أبدا .

النية الثالثة :

ينوى [الـ] ازدياد فيما يتحسر أهل الجنة [عليه] فى المعاد ، كما روى فى الأثر ، أنه قيل لابن عباس رضى الله عنه ، هل يتحسر أهل الجنة إذا دخلوها على شىء ؟ قال : لا يتحسرون إلا على الغدو والرواح إلى المسجد ، ليت أنهم ازدادوا من ذلك لأنهم بذلك كسبوا دخول الجنة ، والنعيم المقيم . فيا أيها العامل تقدم قبل أن تندم فلا ينفعك الندم . ماذا تظن بسعى أقوام يتحسر أهل الجنان على فوت ذلك [منهم] ، انقطاعهم عنه . مع ما [هم] فيه من النعيم والكرامة ، فى جوار الملك العظيم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : من غدا أو راح إلى المساجد ، أعد الله له فى الجنة منزلا ، كلما غدا أو راح . وكان بعض الصالحين إذا راح بعد صلاة العشاء إلى منزله ، كثيرا ما يقول .

نروح ونغدو كل يوم وليلة   فعما قريب لا نروح ولا نغدو

وقال الله تعالى ليلة المعراج للرسول صلى الله عليه وسلم هل تدرى فيماذا

---

(١) فى الأصل (فيكون أهل الاكرام والشفاعة عبدا) .

يختصم الملأ الأعلى ؟ [قال لا] قال : فى الكفارات والدرجات . قيل فما هى[1] قال : أما الكفارات : فمكث إسباغ الوضوء بالماء البارد . عند السبرات[2] ، ونقل الأقدام إلى المساجد للجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة[3] . وقيل : إذا خرج العبد من بيته يريد المسجد ، جعل الله مواضع أقدامه من الأرض إلى [ال] تخوم السفلى فى كفة حسناته يوم القيامة[4] .

النية الرابعة :

ينوى المسابقة إلى بيت المولى ، وسرعة الإجابة للنداء ، والمبادرة إلى إقامة العبودية ، ليحصل له عظيم الأجر والمثوبة ، إذ ليس من أتى زائرا قبل الدعوة[5] .

وقيل فى معنى قوله « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » يعنى سابقوا إلى المساجد ، فإن فيها تنالون مغفرة ربكم . ويقال لا تكونن كالعبد السوء لا يأتى مولاه إلا إذا دعاه ، ولكن ايتوا الصلاة قبل الدعوة ، وشرار أمتى الذين ينتظرون الإقامة ، وخيار أمتى الذين يأتون الصلاة قبل النداء .

---

(١) فى الأصل (هو)

(٢) السبرات جمع سبرة وهى الضحوة الباردة .

(٣) ليس هذا تعطيلا لأعمال العمران كما يدعى بعض النقاد ، فالمراد بهذا العمل من لا عمل له ، أو الإنسان وقت فراغه من العمل ، ولهذا لم يوجب الإسلام نية بذاتها فجعل لكل نوع من الناس مجالا للاختيار .

(٤) وهل الأعمال أجساد مادية توزن كما توزن الأثقال فى الدنيا ؟ وكيف يوضع جزء من الأرض فى ميزان الله تعالى ، والمراد المعنى الرمزى التصويرى . لعظم الثواب .

(٥) قد يسارع العبد إلى المسجد لابنية إجابة دعوة الله . بل بنية أداء الفرض على سبيل العادة والفرق بينهما أن نية أداء الفرض قد يصحبها التثاقل ، أو المكث بمقدار الصلاة ، ونية إجابة الدعوة تكون بالعكس .

وقالت عائشة رضى الله عنها . كان النبى صلى الله عليه وسلم يتحدث معنا ، ويعمل فى البيت كأحدنا ، فإذا سمع الأذان قام كأنه لم يعرفنا قط ، اشتغالا بحرمة[1] الصلاة .

وقال على رضى الله عنه : من سمع النداء . حى على الصلاة فلم يجبه . من غير عذر لم تقبل صلاته[2] ، ويقال : إذا كان يوم القيامة ، أمر بطبقات المصلين إلى الجنة زمرا . فتأتى الزمرة الأولى ، وجوههم كالكواكب الدر[يه] ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : من أنتم؟ فيقولون : نحن المصلون. فيقولون : وما كانت صلاتكم ؟ فيقولون : كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة ، لا يشغلنا غيرها ، فيقول الملائكة يحق لكم ذلك ، ثم تأتى الزمرة الثانية . فوق أولئك فى الحسن والجمال كأن وجوههم القمر ليلة البدر . فيقول الملائكة ما أنتم ؟ فيقولون : نحن المصلون ، فيقولون : وما كانت صلاتكم ؟ فيقولون : كنا نتوضأ للصلاة قبل دخول الوقت ، فيقول الملائكة يحق لكم ذلك . ثم تأتى الزمرة الثالثة . فوق هؤلاء فى المنزلة من الحسن والجمال ، وجوههم كالشمس الضاحية فيقول الملائكة : أنتم أحسن وجوها ، وأعلى مقاما ، وأعظم أنوارا ، فما أنتم ؟ فيقولون : نحن المصلون . فيقولون : وما كانت صلاتكم ؟ فيقولون . كنا نسمع الأذان ونحن فى المسجد ، فيقول الملائكة يحق لكم ذلك .

وقال أبو أمامة : إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ، معهم رايات ، فيركزونها على أبواب المساجد ، ويكتبون الناس على قدر منازلهم فى التقدم والتأخر .

النية الخامسة :

ينوى أداء الأمانة إلى الله فيما افترض الله عليه، وأخذ عليه ، الميثاق يوم

---

(١) فى الأصل (إشغالا لحرمة الصلاة) .

(٢) هى صلاة لا يسأل العبد بعدها . لم لم يؤد الصلاة ؟ ولكن لا مثوبة عليها ولا أثر لها فى النهى عن الفحشاء والمنكر ولا عمل لها فى ترقية الروح بالمناجاة .

الذر ، وأشهد عليه ، فيؤدى إليه الفرض فى أحب البقاع إليه ، وذلك المساجد وقال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله جل ثناؤه : لا ينجو منى عبدى إلا بأداء ما افترضته عليه . وفى الحديث الآخر يقول الله تعالى : ما تقرب المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا سمع النداء بالصلاة تغير لونه ، وتقلقل فى موضعه ، فيقال له فى ذلك . فيقول : حضر[1] وقت أداء الأمانة العظيمة ، التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا ، بقدر الأمانة . فلا ندرى هل نقوم بأداء ذلك أم لا ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : ما حضر وقت صلاة قط ، إلا نادت الملائكة : معاشر المؤمنين . قوموا إلى ناركم التى أشعلتموها على أنفسكم[2] فأطفئوا ما عليكم بالصلاة . وقيل إذا أذن المؤذن ، أصغت الدواب وذوات الأجنحة بأسماعها إلى ذلك ، وخشع لذلك كل شىء ، إلا الإنس والجن[3] . وكان على رضى الله عنه إذا دخل فى الصلاة وقع عليه الرعدة والخوف ، فيقال له فى ذلك فيقول[4] فريضة من فرائض الله تعالى ، لا أدرى [أ] يتقبلها منى ، أم يضرب بها وجهى .

النية السادسة :

ينوى عمارة المسجد بصلاته[5] ، ليكون ممن شهد الله له بالإيمان ،

---

(١) فى الأصل « حضرت » .

(٢) إنما أشعلوا النار على أنفسهم بتكرار مخالفتهم بين الصلوات ، واقترافهم للصغائر والمكروهات أو بتصديهم لتحمل الأمانة .

(٣) لا مانع مطلقا من أن يكون للحيوان حواس أشد حساسية من حواس الإنسان ، كالشم فى القطط والإحساس بالزلازل قبل وقوعها فى الكلاب والخيل . فلا مانع من شعورها برهبة النداء للصلاة ، من باب الإلهام وارتباط الحواس الظاهرة بالباطنة .

(٤) فى الأصل (قال) .

(٥) فى الأصل (بصلاة) .

وبما أوعد ووعد ، فيصير من خواصه وأهله . كما قال الرسول عليه السلام : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد ، فاشهدوا له بالإيمان ، لأن الله تعالى يقول « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » وقال صلى الله عليه وسلم « إن عمار بيوت الله هم أهل الله » وعن عبد الله بن عمر قال : ينادى المنادى يوم القيامة أين دعاة الشمس ؟ [ف] يؤتى بالمؤذنين ، ثم ينادى . أين جيرانى ؟ فيقول الملائكة : ومن ينبغى له أن يكون جارا . فيقول : أين عمار مساجدى ؟ فيغشون النور ويجلسون على منابر من النور . عن أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إن الله تبارك وتعالى يقول : إنى لأهم بعذاب خلقى ، فإذا نظرت إلى عمار بيوتى ، والمتحابين فى ، والمستغفرين بالأسحار ، أصرف عنهم العذاب ، وفى رواية ، إذا نظرت إلى عمار المساجد بذكرى ، وجلساء القرآن ، وولدان الإسلام ، سكن عند ذلك غضبى . وفى رواية : فإذا نظرت إلى أهـــل الجوع والعطش من أجلى صرفت عنهم العذاب .

والنية السابعة :

ينوى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليكون من خواص عباد الله ، الذين باعوا أنفسهم لطلب مرضاة الله ، فتأتيه البشارة غدا من عند الله ، كما قال . « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون ، لحدود الله ، وبشر المؤمنين » فإذا أمر العبد إخوانه من أهل المسجد بتسوية صفوف ، وبإتمام ركوع وسجود ، وبالتقدم إلى الصف الأول ، وبخلع النعال عند باب المسجد ، وبوضع[1] اليمين على الشمال ، ونحو هذا ، ونهاهم عن الالتفات فى الصلاة ، ورفع الصوت بالقراءة ، وترك الخشوع ، والتخطى لرقاب الناس ، وعن إنشاد الضالة فى المسجد ، والتحدث بأحاديث الدنيا ، والضحك والهزل والمزاح والسخرية والشراء والبيع والخصومة ، ونحو هذا ، فإذا

(١) فى الأصل (ويضع) .

استعمل هذا ، فقد أخذ بحظ وافر من حظوظ الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر[1] .

وعن أبي أمامة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : جنبوا مساجدكم الصبيان ، ومجانينكم ، وخصوماتكم ، ورفع أصواتكم ، وسل سيوفكم ، وإقامة حدودكم فى الجمع[2] . ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إنشاد الضالة فى المسجد ، وقول الشعر فيه ، وأمر بأن[3] يرد على منشد الضالة « لا رد الله ضالتك » وعلى قائل الشعر « فض الله فاك[4] » وأتى عيسى بن مريم على قوم يتبايعون فى المسجد ، فجعل رداءه لفا ، ثم جعل يسعى عليهم ضربا ، وهو يقول: ياأبناء[5] الأفاعى اتخذتم مساجد الله أسواقا . هى سوق الآخرة .

وقال صلى الله عليه وسلم « لايتق هذه المساجد إلا من رضى الله عنه ، ومن رضى الله عنه ، فله الجنة . وسيأتى على الناس زمان يتخلفون و مساجدهم ليست لهم همة إلا ذكر الدنيا . فإذا كان ذلك الزمان فلا تجالسوهم[6] فإنه ليس لله فيهم حاجة » وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قوما يذكرون

---

(١) وليس من هؤلاء من يذهبون للمساجد ، بغية الظهور على غيرهم ، والتصدر للإمامة . والوعظ على سبيل التعالى عن الناس .

(٢) أى داخل المساجد فى صلاة الجمعة . أما عقب الصلاة خارج المسجد وبين جميع المصلين لارهاب من تسول له نفسه العبث بقانون الشريعه فلا شىء فيه .

(٣) فى الأصل (بألا) .

(٤) أى خلا فمك من الأسنان حتى تصبح مشوه النطق . بغيض المنطق .

(٥) فى الأصل (يابن) .

(٦) عدم مجالستهم . إما لعدم تشجيعهم . أو الخوف من استحقاق آلام الفتنة . قال تعالى « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أو خوف العدوى منهم .

تجارتهم فى المسجد ، فقال : إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله . فإذا ذكرتم تجارتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع .

النية الثامنة :

ينوى الهرب من الدنيا إلى الآخرة ، ومن تجارة الهوى إلى تجارة التقى ، ومن سوق الخسران إلى سوق الرضوان ، ومن أبناء الدنيا إلى إخوانه من أبناء العقبى ، قال الله تعالى « ففروا إلى الله » وقال بعضهم فى معنى قوله « ومن دخله كان آمنا » قال هى المساجد ، وقيل هى مكة والحرم ، وقيل هى الجنة . ولا ينجو العبد من المخاطرة ، ولا يتخلص من الهلكة ، إلا إذا حصل بقدميه فى الجنة ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير البقاع المساجد ، وخير الناس أهلها ، وخير أهلها أولهم دخولا . وآخرهم خروجا » .

وقال بعضهم فى معنى قوله : ومن دخله كان آمنا . قيل المساجد من دخلها فهو آمن من فتنة إبليس وجنوده ، لا يستطيع أن يوقعه فى المعصية [ف]يهلك بها[1] . [و] ليس للعين بعد حصول العبد فى المسجد ، إلا الوسوسة من بعد ، فإذا دفع العبد ذلك كله . وبكر . حصل له الفوز العظيم .

وقيل حصون المؤمن من إبليس أربعة : المساجد ، وقراءة القرآن بالتفكر فيه ، والصلاة ، والنظر إلى وجه العالم الزاهد ، وخيرهن النظر يقع عند الوسوسة[2] . وفى القراءة لا يكاد ينجو من[3] [ذلك[4]] ، وقال بعض الحكماء : إذا خرج العبد من المسجد ووضع رجله على بساط الباطل ، انتشر[ت] حلاوة الدنيا فى ثلاثمائة وستين عرقا من جسده ، ذات سم من لدغ فى جسد الملدوغ ، لا يشهد لك إلا أهل المعرفة بالله تعالى[5] .

---

(١) فى الأصل « به » .

(٢) فى الأصل « عن » .

(٣) أى من الوسوسة .

(٤) النظر إلى الزاهد عند الوسوسة يبرىء من هذا المرض اللعين ، والعالم الزاهد يتخذ وجهه سمتا هادئا جازما يجمع شتات الانسان .

باب النية في جلوس
العبد في المساجد والقعود فيها

والقعود في المساجد من أفضل شأن الدين . وفضائل أعمال المتقين ، ورفيع درجات المحسنين ، ولا يدوم على ذلك إلا أهل الإخلاص من المؤمنين ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « المساجد بساتين المؤمنين والمنافق في المسجد كالطير في القفص[٦] » وكما قال الحكيم ، الصبر في الخلوة من خصال المخلصين ، وهو علامة وجود الطريق ، وينبغي للمؤمن إذا قعد في المسجد ، ان ينوي بقعوده اثني عشرة نية . مستحبة ، ليكتب له بكل نية جزاء وافرا ، ويعطى ثوابا عظيما ، ويفوز به فوزا كبيرا ، فان الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، وأنا أشرح لك ذلك[٧] .

النية الأولى :

ينوي الصلاة في الجماعة . والمحافظة عليها ، يحصل تضعيف الأجر والثواب ، كما جاء في الخبر ، عن الناطق بالصواب رسول الملك الوهاب ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته وحده [٤] سبعة وعشرين صلاة ، فينوي بجلوسه طلب المزيد .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٥) يغلب أن يميل الناس عقب الخروج من المساجد إلى الدعة والفراغ ، فيجتمعون في المحال العامة المجاورة للمساجد . ولا يتحدثون عن الصلاة بمقدار مايتحدثون عن هذه الندوات . وهذا تعبير ظاهري للشعور بحلاوة الدنيا أما السلوك الحق ، فالخلوة مع النفس والتأمل . وتفقد صحة شروط العمل ونيته . وغير ذلك من أبواب محاسبة النفس .

(٦) والعلة واضحة ؛ لأنه لا غاية له إلا أن يراه الناس في المسجد . فوجوده بعد ذلك في المسجد حرج شديد يجعله في صورة الطائر الحبيس .

(٧) في الأصل « أشرح لك ذلك . هي » .

على المنبر وكانت آخر خطبة خطبها فقال : يا أيها الناس. من صلى الصلوات الخمس فى الجماعة حيث ما كان فى أوقاتها ، جاز على الصراط كالبرق اللامع، فى أول زمرة مع السابقين ، وجاء يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر ، وكان له بكل يوم حافظ عليها [فيه] أجر قتيل فى سبيل الله ، وقال كعب: إنا لنجد[1] فى التوراة أن صلاة العبد لتضعّف فى الجماعة كعدد من يشهدها، إن كانوا ألفا فألف درجة[2] وقال الشعبي . فى الجماعة أربع خصال : اتباع السنة ، وتضعيف الثواب ، والخروج من السهو ، والبراءة من الرياء .

النية الثانية :

ينوى موافقة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال إن الله قد سن لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى ، ولو صليتم فى بيوتكم كما صلى هذا المتخلف إذا لتركتم سنة نبيكم ، ولضللتم ، وقال عليه السلام « من أحيي سنة من سنتى فأنا شفيعه يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم : ينادى كل يوم ملك من المدينة، من ترك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حرم الله عليه شفاعته يوم القيامة .

النية الثالثة :

ينوى مكاثرة جمع[3] المسلمين ، ليحصل له الفضل العظيم ، فيصير من جملتهم . وإن كان عند نفسه من المخلصين . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم «من كثر سواد قوم فهو منهم » وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالسواد الأعظم، فإن الذئب يأخذ القاصية والشاردة » على معنى الحديث . وفى خبر مجالس الذكر فى المساجد يقول الله تعالى . ملائكتى هم القوم لا يشق جليسهم .

(١) فى الأصل « إنا لنجدى » .
(٢) إذا كان فى نيته مع ذلك تكثير عدد المسلمين .
(٣) فى الاصل « بجيع » ، وهو تحريف .

النية الرابعة :

ينوى المرابطة بانتظار الصلاة بعد الصلاة . كما قيل فى تفسير قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا . يعنى المرابطة فى المساجد ، بانتظار الصلاة بعد الصلاة .وقال صلى الله عليه وسلم [أ]لا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ، قالوا : بلى يا رسول الله . قال : كثرة الخطى إلى المساجد ، وإسباغ الوضوء فى المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ،فذلكم الرباط فذلكم الرباط . وقال صلى الله عليه وسلم: منتظر الصلاة بعد الصلاة كفارس يشد به فرسه فى سبيل الله على كشحه[1] صلى الله عليه وملائكة السماوات ما لم يحدث[2] . أو يقوم فى الرباط الأكبر .

النية الخامسة :

ينوى به كف سمعه وبصره ولسانه وجوارحه عن النهى . وترهبه بالجلوس فى المسجد، كما جاء فى الخبر أن عثمان بن مظعون ،رضى الله عنه جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:يا رسول الله . إن الأرض قد ضاقت بى إلى ما تدعونى إليه نفسى وتأمرنى [به] قال :وماذا تأمرك به نفسك ؟ قال: يارسول الله . إنها تأمرنى بالترهب . قال . فهلا ياعثمان . فإن الترهب فى أمتى انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وفى رواية أخرى . أنه توفى لعثمان ابن مظعون ابن،فجلس فى البيت . فنصب محرابا وترك المسجد [فـ]تفقد[ه] النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعاه فقال : يا عثمان . أو علمت أن الله قد حرم على أمتى الرهبانية ؟ وأن رهبانية أمتى الجلوس فى المساجد ؟ . وقال أنس ابن مالك رضى الله عنه . يا رسول الله ترك الغيبة أحب إليك أم صلاة ألف ركعة ؟ قال:ترك الغيبة أفضل من صلاة ألف ركعة .

---

(١) الكاشح الذى الذى يضمر لك العداوة ويقال كشح له بالعداوة وكاشحه بمعنى .

(٢) لأن الحدث نقض لشرط الاعتكاف .

النية السادسة :

ينوى الاعتكاف فى المسجد إلى حين خروجه منه . وقال أنس بن مالك : إن من الأعمال أعمالا لا يحصى ثوابها[1] وإنها الاعتكاف ، وكان صلى الله عليه وسلم يعتكف فى العشر الأول من شهر رمضان ، ودخل بعض المساجد فرآى فيها[2] بعض الصالحين من الفقراء معتكفا ، فقال له: ماجلوسك هذه الساعة ؟ قال : عصيت صاحب البيت ، فلزمت[3] الجلوس فى بيته وآليت ألا أخرج حتى يغفر لى . ودخل رجل آخر إلى بعض المساجد، فرأى فقيرا معتكفا، فقال : مالك جالسا هاهنا؟قال:دعانى إلى بابه فأجبته فأنا أنتظر الإذن بالدخول .

النية السابعة :

ينوى استماع العلم ان اتفق له ذلك ، والجلوس فى حلق الذكر، كى يحصل له الثواب العظيم . كما جاء فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم . أنه قال . من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكّر به، كان كالمجاهد فى سبيل الله . وقال صلى الله عليه وسلم . كن عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك . وقال صلى الله عليه وسلم . جلوس ساعة عند العالم، أحب إلى الله من عبادة سنة ، لا يعصى الله فيها[4] طرفة عين . وقال صلى الله عليه وسلم . من أدرك مجلسى عالم فكأنما أدرك مجلس . ومن أدرك مجلسى ، فليس عليه يوم القيامة شدة عذاب .

النية الثامنة :

ينوى لعله يصادف أخا فى الله فيستفيد أخاه ، لينفعه أيام حياته ، ويشفع له إلى الله بعد وفاته . وعن أبى هريرة رضى الله عنه . يقول الله

(١) فى الأصل (ثوابه) .
(٢) الأصل (فيه) .
(٣) فى الأصل (ألزمت) .
(٤) فى الأصل (فيه) .

تعالى يوم القيامة، أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى ، حيث لا ظل إلا ظلى . وقال أبو طالب رحمه الله . معنى بجلالى أى إجلالا لى وتعظيما . أى تعاونوا على طاعتى، وتألفوا على محبتى، وتحابوا من أجلى ، وإنما ذلك لأنى أحب ذلك ، وقد عظمت وأجللت فعله ، وقال صلى الله عليه وسلم: تحابوا فى الله وكونوا عباد الله إخوانا . فإن من آخى أخا فى الله ، رفعه الله درجة لا ينالها شىء من عمله . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ما أعطى عبد بعد الإسلام خيرا من أخ صالح . وقال صلى الله عليه وسلم . من أراد الله به خيرا رزقه[1] خليلا صالحا، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه . وقال ثابت البنانى . رضى الله عنه . ونحن وقوف بجبال عرفة ، إذ أقبل شابان عليهما العباء القطوانى، فقال أحدهما للآخر : يا حبيب . فأجابه الآخر . لبيك يا محب . قال . ألا ترى[2] الذى تحاببنا فيه وتواددنا له يعذبنا[3] فسمعت صوتا وهو يقول : نعم ليس يفعل ذلك .

النية التاسعة :

ينوى انتظار نزول الرحمة من عند الله، فيحصل فى جملة من يغشاهم ذلك، وقال صلى الله عليه وسلم . ما جلس قوم يذكرون الله إلا غشيتهم الرحمة وحفت[هم] الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده، وناداهم مناد . اقدموا مغفورا لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات . وقال صلى الله عليه وسلم « المساجد بيوت هيمو نه ميمون أهلها، محفوظة محفوظ أهلها، مزينة مزين أهلها، هم فى صلاتهم والله فى حوائجهم . هم فى مساجدهم والله من ورائهم » وقال صلى الله عليه وسلم . إن أحدكم تصلى عليه الملائكة مادام فى [مصلاه] التى صلى فيها .

---

(١) فى الأصل (من أراد به خيرا رزقه الله)

(٢) فى الأصل (لا) والاستفهام المنفى يجاب عنه (بنعم) أو (بلى) والجواب بنعم إقرار للنفى أى ليس يعذبنا والاجابة ببلى نفى للنفى أى يعذبنا .

(٣) أى يعذبنا يوم القيامة .

وتنزل عليه الرحمة . ويقول الملائكة اللهم ارحمه . ما لم يحدث فيها ، فإذا أحدث لم تقبل صلاته حتى يتوضأ .

النية العاشرة .

ينوى لعله يترك الذنوب حياء من الإخوان،وخشية من مقتهم ، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم . استحى من الله كما تستحى من الرجل الصالح من قومك ، وقال عيسى عليه السلام: جالسوا من تذكركم الله رؤيته ، ويزيد فى عملكم منطقه ، ويرغبكم فى الآخرة عمله ، وقال حاتم الأصم رحمه الله . عليك بمجالسة من إذا رأيته وقع على باطنك هيبته ، وأنساك الأهل والولد رؤيته . ولا تعصى مولاك ما دمت قريبا منه . وقال بعض أهل المعرفة . إنى لأستحي من الرجل الصالح، كما أستحي من الله . قال : ولما دخل عثمان بن عفان على النبي صلى الله عليه وسلم غطى،النبى فخذه، وكانت مكشوفة ،وعنده أبو بكر وعمر فقيل له فى ذلك . فقال: أفلا أستحي ممن تستحي منه الملائكة ؟

النية الحادية[1] عشرة :

ينوى المخلص من عذاب الله أن ينزل ، فيكون مقصراً فى أمله زاهداً فى عمارة وقته الدنياوى ، فاضلا فى حاله ، وقال مالك بن دينار . لو نزل من السماء عذاب عوفى من ذلك أهل المساجد ، وقيل الصواعق لا تصيب ذاكر الله .

النية الثانية[2] عشرة :

ينوى ملاقاة الأخ لله ، فزيارته لله ، والنظر إليه فى بيت الله ، فيحصل له ثواب الله . كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى رزين العقيلى « أشعرت أن الرجل إذا خرج من بيته زائراً أخاه فى الله ، شيعه سبعون ألف

---

(١) فى الأصل (الحادى عشرة) .

(٢) فى الأصل (الثانى عشرة) .

ملك ، ويصلون عليه ويقولون: ربنا إنه وصل فيك فصله. فإن استطعت أن تستعمل جسدك فى ذلك فافعل . فهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بزيارة الأخ فى الله . وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى حقت محبتى للمتزاورين فى والمتحابين فى ، والمتباذلين فى . وحكى فى الأثر . امش ميلا وصل خلف إمام تقى ، وامش ميلين وعد مريضاً ، وأمش ثلاثة[1] اميال وشيع جنازة رجل صالح ، وامش أربعة أميال لحضور مجلس عالم يذكر الله، وامش خمسة أميال وأصلح بين اثنين متقاطعين ، وامش ستة أميال وزر أخاً فى الله[2] » فهذه النيات كلها تجتمع للعبد فى عمل واحد ، إذا كان عالماً عارفاً[3] يعطى بكل نية أجراً عظيما، وثواباً جسيما، فشتان بين من يحصل له فى عمل[4] واحد أجور كثيرة لما يحصل فى ذلك من النيات الحسنة [و] عامل لا يحصل له أجر واحد فى أعمال كثيرة، لسهوه عن إصلاح النية[5] ، لقد خاب سعى هذا وبط عمله، إلا أن يتداركه الله برحمته، ولا قوة إلا بالله .

النيـــة فى التجوع لله

والجوع من أجل خصال المؤمن وأكثرها تعباً ، إذا صح له فيه النية لله ، وفيه ست نيات مستحبات، تبلغ العبد إلى رفيع الدرجات .

أولها[6] : ينوى بجوعته تذليل النفس وتكسيرها ، وإيثار مخالفتها ،

---

(١) فى الأصل (ثلاث) أميال .

(٢) زيارة الاخوان فى الله أفضل النوافل ، لأنها تعاون على البر والتقوى ، واعتصام بحبل الله وقوة لرابطة المسلمين ، وترحيب لمن تحدثهم أنفسهم بالمعصية ، وفيها دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب . وفيها استفادة علم أو حال إن وجد .

(٣) أى عالما بهذه النيات عارفا بجمعها كلها فى قلبه عند الشروع فى العمل .

(٤) فى الأصل (فى عمله) .

(٥) أو لأداء العمل دون نية ، وقد يعاقب العبد على نفس الفعل إن اقترن بنية سوء

(٦) فى الأصل (أوله) .

لكى يدخل تحت الطاعات ، ويستجيب لأداء أمر جبار السماوات ، فينال به من الله الرضا ، ورفيع الدرجات . كما قال تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » وقال يحيى ابن معاذ ، لو تشفعت بملائكة[1] سبع سماوات وبمائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبى[2] وبكل كتاب وحكمة وولى ، على أن تصالحك النفس فى ترك الدنيا والدخول تحت الطاعة لم تجبك . ولو تشفعت إليها بالجوع لأجابتك وانقادت لك[3] . وقال سهل بن عبد الله . والله الذى لا إله إلا هو . ما تحول المتحولون عما يكره الله إلى ما يحب الله . إلا بالجوع . وما صار الصديقون الصديقين إلا بالجوع . وقال الحجاج بن غرافصة أتيت طائفة من السياحين بمكة ، فقلت لهم : أخبرونى لماذا أمر الله أولياءه بتجويع النفوس ؟ قالوا أما رأيت الدابة الصعبة أو البعير الصعب يشرد على أهله ، وأنهم لا يقدرون عليه إلا أن يجيعوه[4] إلا أن العبد إذا أجاع نفسه وأعطشها باهى الله به الملائكة ، وما من عبد باهى الله به فى موضع إلا وضع على رأسه غدا تاجا من نور ، وبعث الله ملائكة من نور ، مع نجائب قد حليت بالياقوت . الأحمر والأصفر ، وأزمتها اللؤلؤ المنظوم ، ورحالها الزبرجد الأخضر ، يقودها المخلدون حتى يوقفوها بحذاء قبور أهل الجوع والعطش فى الدنيا ، فيركبون من قبورهم إلى الله[5] .

---

(١) فى الأصل (تشفعت إلى ملائكة سبع سماوات) .

(٢) لا أدرى سر دقة العدد هكذا من عالم جليل كيحيى الرازى . وليس وراء مثل ذلك تأويلات مما يجرى على ألسن المريدين من مسائل علم الحرف . وحساب الجمل .

(٣) فى الأصل (لأجابك وانقاد لك) وإنما كان الجوع فاعلا فى النفس هكذا لأنه يضعف شهواتها التى تقودها إلى الشر . وإن كانت تقوى به فى أول سلوكها فيه .

(٤) فى الأصل (يجيعوها) .

(٥) وأين الله حتى يركب الذاهب إليه دابة ؟ ! . وأينما تولوا فثم وجه الله . والفرار إلى الله فرار باطنى لا ظاهرى حتى يقاس عليه ما فى هذه القصة العجيبة

وعن إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه قال : بلغني أن إبليس رأى عيسى عليه السلام ذات ليلة وذات يوم وهو يتلوى قال : مالى أراك تتلوى ، قال أفلا آتيك طعاماً ؟ قال عيسى إنك تعلم أني لو قلت لهذه الجبال والأودية كوني طعاماً بإذن الله لكانت . ولكن أنت عدوي والنفس جاسوسك معى فأنا أجوع الجاسوس وأضعفه، حتى لا تكون له قوة توصل خبرى إليك[1] . إن جوعي يغيظك ويذيبك ولا أريد من الدنيا غير ذلك وأنشد فى الجوع :

رأيت الجوع يغلبه رغيف وملء القعب من ماء الفرات

رأيت الجوع عونا للمصلى رأيت الشبع عونا للسبات

= وأمثالها ؛ وورود مثل هذه القصص فى كتب التصوف إما لتشويق المريدين الضعفاء الذين لا زالوا تحت تأثير الدنيا ، وإما وردت تحت تأثير حسن نية رواتها.

(١) النفس جاسوسة الشيطان . تنقل إليه ما يتجاوب فيها من شهواتها . فيسول لها أن تشبع مما تريد ، فتستلهمه العون على تيسير ذلك لها فيسوس لمن يعينها على ذلك ، والجوع يسد عليها كل شهوة فلا تجد شيئا تبلغه إلى الشيطان وتصبح بعد ذلك روحانية ترد عليها الواردات وتحل فيها العلوم ، فتتجسس كذلك فى هذه الحالة فيحاول الشيطان أن يفسد عليها هذا السلوك ، برؤية العمل ، والوقوف عند المشاهد ، وإقناعها بالولاية، وبالكشف وبالخواطر الشيطانيه، وإتماما للفائدة نبين أنواع الخواطر ليكون الطلاب من شر بعضها على حذر .

فالخاطر الرحمانى : يتصل بالإرادة القديمة . وهو إما هبة مزعجة لا يتمالك معها المريد نفسه ، وتحرك للخير وإما هبة باسطة حين تتقدمها خلوة أو انفصال من غيبة . أو سماع كلام فى حقيقة . وإما هبة قابضة وهذه إما أن ترفع المريد وإما أن تخذله.

والخاطر الملكى : وهو يتعلق بالرحمانى . وكل خاطر رحمانى فيه غاية الملكى ولا عكس ، وهو يرشد إلى السلوك القديم عند البداية أو النهاية إذ التوسط بينهما منازل الجمهور . =

النية الثانية[1] :

ينوى موافقة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى حاله وحالهم ليكون رغداً فى زمرتهم، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : من تشبه بقوم فهو منهم. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: دخلت [على] رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته قد انكب على وجهه وتحته حصير وهو يتلوى من الجوع وهو يقول : بجوعى وعطشى هب لى ذنوب أمتى. وقالت [عائشة] رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجوعون من عوز وقال أبو هريرة : لقد رأيتنى وأنا أصرخ من الجوع بين القبر والمنبر ، حتى يقول الناس إنه لمجنون وما بى من جنون إلا الجوع . وكان صلى الله عليه وسلم ربما يصلى فيتساقط أصحابه من القيام إلى الأرض لما بهم من الجوع. فإذا فرغ من صلاته ، التفت إليهم وقال : لو تعلمون مالكم عند الله لازددتم وعن ابن عباس رضى الله عنه قال . عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأنصار فقال هل تشتهى شيئاً ؟ قال نعم خبز بر قال: من كان عنده فليأت به فقام رجل فجاء بكسرة خبز فأطعمه . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر أقل الطعام والكلام، تكن معى فى الجنة كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى. وقال صلى الله عليه وسلم . إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من طال جوعه

والخاطر النفسانى : متعلق بالشيطانى ومتصل بالجسم ولواحقه وهو يميل بالمريد إلى الشهوات البدنية وإن كانت مباحة ويحض على الجاه والصيت والتعظيم ويزين لصاحبه الحصول على مرتبة التبرك ، ويحمله على الورع اليابس الذى ربما رمى فى بدعة أو أيأس من الرحمة ويزين التعطيل والشبه القاتلة ويعين على التأويل .

والخاطر الشيطانى : وهو يجذب إلى النقص ويمنع الكمال الإنسانى ويتعلق بالهوى ويزين المحرم الظاهر وينسى العلم النافع وهذا الخاطر هو السبب فى انتكاس السالكين [راجع روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب مصور بالجامعة العربية ١٤٣ تصرف]

(١) فى الأصل «السادسة»

وعطشه وحزنه فى الدنيا . ودخل أبو هريرة رضى الله عنه وابن مسعود فى خمسة من الصحابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد مسهم الجوع . فقالوا : أيا رسول الله هل من خبز ؟ فإنا جائعون . فلم يجد لهم إلا سويق شعير فأكلوه . فلم يقع لهم موقعاً . فقالوا أيا رسول الله. حتى متى نحن فى المجاعة ؟ فقال لن تزكوا فيها[1] ولكن اتقوا الله وأحدثوا الشكر، فإنى لم أجد قوما يدخلون الجنة بغير حساب إلا الصابرين .

النية الثالثة :

ينوى بجوعه قلة التزود من عرض الدنيا، فيكون بمعنى ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم . يأتى على الناس زمان أفضل درعهم الجوع ، وأفضل علومهم الصمت، وأفضل عبادتهم النوم . وبمعنى ما قيل : من رضى من الله بالقليل من الرزق ، رضى الله منه بالقليل من العمل . وقال حاتم الأصم : دع الشهوات تنج[2] من خدمة أهل الدنيا ، ودع اللذات تنج من الإثم . ودع الطمع تنج من الغم ، وذلك العبد يسعى فى طلب الدنيا بقدر إرسال بطنه فى أكل الشهوات، فيحسب بترك أكلة وبتجويعه نفسه متقللا من الدنيا ، وقيل لبعض العارفين ما الدنيا ؟ قال : الدنيا بطنك. فبقدر زهد بطنك كذلك زهدك فى الدنيا .

النية الرابعة :

ينوى بجوعه وجود الراحة فى عرصة القيامة غدا فى ذلك اليوم الذى مقداره خمسون ألف سنة . لا يوجد فيها طعام[3] ولا شراب ولا راحة ولا سكون . وقال صلى الله عليه وسلم: الناس يحشرون يوم القيامة جياعا عطاشا وإن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة . وقال النبى صلى

---

(١) أى ليس الجوع نفسه يزكيكم بل إن توابع الجوع من الصبر والتقوى هى التى تزكى النفس وتطهرها .

(٢) فى الأصل « تنجو »

(٣) فى الأصل « طعاماً » .

الله عليه وسلم . إن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع ، وكبدك عطشان ، فافعل . فإنك تنال بذلك أشرف المنازل ، وتحل مع النبيين ، وتفرح الملائكة بقدوم روحك عليهم ، وقال صلى الله غليه وسلم : أخوف ما أخاف عليكم شهوات ما التي فى بطونكم[1] وفروجكم .

النية الخامسة :

ينوى بجوعه تقليل الإختلاف إلى الخلاء إذا كان صائماً جائعاً ، فيحصل له بذلك درجة أهل الصدق والحياء ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه استحيوا من الله حق الحياء . قالوا يا رسول الله [كيف] نستحى من الله ؟ قال : من استحى من الله حق الحياء ، فليحفظ البطن وما وعى ، والرأس وما حوى ، وليذكر الموت والبلى . فأخبر صلى الله عليه وسلم أن حقيقة الحياء هذه الثلاث خصال ، إحداهن حفظ البطن ، وذلك هو التجويع لله . ليقل دخله وخرجه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله : لقد استحييت من ربى من كثرة ما اختلفت إلى الخلاء . حتى تمنيت ليت أن الله جعل رزقى حصاة فكنت أمصها[2] حتى يأتينى الموت ، وقال الحسن فى وصف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ان كان أحدهم ليأكل الأكلة فيتمنى أن لو بقي[ت] فى جوفه كما تبقى الآجرة فى الماء فتكون[3] زاده من الدنيا .

النية السادسة :

التخلص من مقت الله والتباعد من بغضه ، وقال صلى الله عليه وسلم . ما شيء أبغض إلى الله من بطن ملىء ولو من حلال ، وما خلق الله حلالا أبغض إليه من الطلاق ، وفى الخبر أن الأرض لتضج إلى الله من ثلاث . من الشيخ الزانى . والفقير المختال ، الذين بطونهم مثل الخوابى . ملاء بالطعام . والشراب قال أبو طالب المكى رحمه الله . من شبع شبعة بين جوعين فقد

---

(١) فى الأصل « بطونك » .

(٢) فى الأصل « أمصه »

(٣) فى الأصل « فيكون »

أخذ بسيرة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . . وهذا إذا صام العبد دهره فيفطر بالليل، ويصوم يوماً قبله ويوماً بعده ، فهذا شبع بين جوعين ، فجوع هذا أكثر من شبعه .

النية السابعة :

يخدع نفسه كي يكون ذاكراً لما ينال أهل الجوع من الآلم والضر . ويقال لما ملك يوسف بن يعقوب عليهما السلام خزائن مصر، ما كان يشبع من الطعام نفسه ، فقيل له فى ذلك . فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . وقيل خمسة أشياء لا يعرف مقدارها[٥] إلا خمسة أنفس : لا يعرف نعمة العافية إلا المرضى، ولا قيمة العمر إلا أهل المقابر ، ولا قيمة الشبع إلا أهل الجوع ، ولا لذة نعمة النوم إلا من به ألم ، ولا نعمة الضوء إلا من هو فى الظلمة ، ويقال إن حاتم الطائى كان لهو الد كثير المال وكان ينهى حاتماً عن[١] كثرة العطاء فلا ينتهى فقيل لوالده لو حجزت عنه عطاياك لعله يترك ما فيه؟ فحبسه وقطع عنه العطاء، فلما مر عليه شهر أطلق عنه ، وظن أن قد نفعه ما فعل به ، فلما خرج بعث إليه أبوه بمائتى ناقة ، فلما حصلا[ت] عنده نادى فى الحى، كل من أخذ من هذه النوق بزمام[٢] فهو له، فأخذوا كل ذلك، فأخبر أبوه بذلك، فسأل حاتما عن فعله، فقال لقد أصابنى من ألم الجوع والعدم ما إذا ذكرت لا أبخل بموجود عندى .

النية فى زيارة الإخوان

وزيارة الإخوان فى الله من فواضل أعمال المؤمنين، فينبغى للعبد أن يخلص نيته، وفيها ست نيات فاضلات، وخمس نيات مذمومات، وعلى العارف أن يعرف المذموم من المحمود ، ليجتنب المذموم ، ويتبع المحمود ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ويقال نظر بعض الصوفية إلى بعض تلاميذه فقال

(٥) فى الأصل « مقداره » .

(١) فى الأصل « من » .

(٢) فى الأصل « بزمامه » .

إلى أين عزمت ؟ فقال أزور فلانا قال وتعرف آفة الزيارة ؟قال لا . قال اعلم أن من زار أخاه لقبل خمسة أشياء فلبس لله فى زيارته رضى .

أولها : يزور أخاه لقبل الأكل والنهمة . وقال صلى الله عليه وسلم «بئس العبد عبداً طمع يقوده ، بئس العبد عبداً هدى يضله» وقال سهل . يخرج فى آخر الزمان قوم يكون معبودهم بطونهم ودينهم لباسهم، وحليتهم كلامهم[1] ، وزار بعض الفقراء أخاله فى الله فلما جلس وعرض عليه ،الطعام وألح عليه أبى[2] وقال . إنما زرتك لشهوة الروح لا لشهوة الهوى والبطن ، فلم يأكل . وزار بعض المريدين أستاذاً له يسأل عنه[3] المعرفة فلما جلس المريد قدم إليه الطعام . فقال يا أستاذ : أنا على غير هذا أحوج منى إلى هذا ، وأنت على غير هذا أوجب عليك من هذا ، زرناك لأجل النكتة ولم نزرك لأجل اللقمة . لو أردنا هذا لوجدناه عند غيرك، وإنما جئناك نطلب عندك شيئاً لانجده عند غيرك . هذه قوت النفس عهدنا به من الليلة ، وقد انقطع عنا قوت الروح منذ أربعين يوماً . وقوت الروح أعز علينا من قوت النفس فابدأ بالإعزار أعزك الله . فإنى سمعت منك تحكى عن مشايخك عن النبى صلى الله عليه وسلم . أنه قال « المؤمن هو الذى يؤثر دينه على هواه » فقال الأستاذ مجيباً له . كل حتى أروى لك فى فضيلة الأكل . وأجابه الإخوان [ب]أربعة عشر حديثاً . فقال: أيا أستاذ إذا كان فى فضيلة الأكل أربعة عشر حديثا فينبغى أن يكون فى فضيلة ترك الأكل أربعة وعشرون حديثاً ، فترك ولم يأكل . وقصد جماعة من الفقراء بعض أهل العلم . فلما حصلوا فى منزله ، أمر أن يقدم إليهم الطعام ، من قبل أن يحضر معهم ، فلما قدم إليهم الطعام قام

---

(١) أى كلامهم فى الطريق وسلوكه وحقائقه ، يتخذون ذلك وسيلة للتردد على بيوت الناس رجاء الهداية بهم وهذا النوع كثير بين طلاب الطريق ، وهم أشر من الشر على الطريق .

(٢) فى الأصل « فأبى » .

(٣) فى الأصل « عنه » .

من بينهم رجل،فقيل له إلى أين ؟.قال إنما حاجتى مع صاحب الطعام . قالوا أجلس.فإذا فرغنا جمعنا بينك وبينه ، قال حاشا :أن أجعل بطني وليجة لديني.

الآفة الثانية :

يزوره لقبل الرفقة والعز والسمعة والمباهاة . حكى أن فضيل بن عياض وسفيان الثورى ،اجتمعا ،فوعظ أحدهما صاحبه فبكى هذا وبكى هذا، فقال الثورى . لأنى أرجو أنا لم نجلس مجلساً أكثر فتنة من هذا . قال الفضيل ـ ألست عمدت إلى أحسن ماعندك فحدثتني به ؟ وعمدت أنا إلى أحسن ماعندى فحدثتك به ؟فصرنا مرائيين؟.

الآفة الثالثة :

يزوره لقبل المعرفة والمنزلة حتى يكرمه ويعظمه . وقيل إن جماعة من الصوفية دخلوا على «أبى على الروزبارى»وفيهم شاب لم يعرفه أبو على، فقال للقوم، من أين الشاب فإنى لا أعرفه ؟ . فقال الشاب وما أنا زرتك لأعرفك إنما زرتك إجلالا عن تقدم[ت] معرفتى معه منذ ثلاثين سنة . قال فما الاسم؟ قال: معرفتك باسمى أخاف أن تبطل على ثواب كذا . فقدم إليه ماحضر عنده [من] طعام فقام الشاب ، وقال نهينا أن نخلط الخبيث بالطيب . ولا تبدلوا الخبيث بالطيب .

الآفة الرابعة :

يزور لقبل محمدة الناس . وقيل الصادق هو الذى يخفى حسناته كما يخفى غيره سيئاته ، ويكون خوفه على حسناته ألا تقبل منه،أشد من خوفه على سيئاته ألا تغفر له .

الآفة الخامسة :

يزوره لقبل الأخذ . يقال إن الفقراء من أصحاب الشبلى، كانوا إذا اتسع وقتهم معه لم يفارقوه . وإذا ضاق الوقت تفرقوا عنه ، وتركوه : فقال يوما

انظروا إلى هؤلاء السفلة، أنا أريدهم لله وهم يريدوننى[1] للدنيا والنفس . فبينا هو جالس، إذ دخل عليه قريب له مصرى ومعه مائتا دينار فوضعها[2] بين يديه ، وسمع الفقراء بذلك فبادروا إليه . فلما دخلوا عليه . فطن لهم فقام وأخذ الدنانير وجعل يخرج من سكة إلى سكة ، حتى قام على شط الدجلة ، ثم رفعها[3] على كفه وقال « انظر[4] إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » ثم قال . من يريدنى فليتبعنى ، ومن يريد الدنانير فليتبع الدنانير . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله احذر من مودته على قدر حاجته إليك، فإذا اقتصرت حاجته انقضت [مودته]. وينبغى للمؤمن أن يزور أخاه لسبعة أشياء حتى يحصل له جزيل الثواب والجزاء .

أولها : يزور أخاه لحرمته ولجلالة قدره، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى الكعبة فقال . لقد شرفك الله وعظمك وحرمك ، والمؤمن أعظم حرمة منك . وقال صلى الله عليه وسلم من أكرم عالماً[5] فكأنما أكرم سبعين نبياً ، ومن أكرم متعلماً فكأنما أكرم سبعين شهيداً ، ومن

---

(١) فى الأصل « وهو لا يريدنى » .

(٢) فى الأصل « فوضعه » .

(٣) فى الأصل « رفع » .

(٤) فى الأصل « أنظر » .

(٥) ظهرت بعض الطوائف الدينية تدعو إلى اعتبار العلماء كالعامة . وقد نقل ابن مفلح عن ابن عقيل فى « الفنون من آداب الإمام أحمد » أنه كان مستنداً وذكر عنده ابن طهمان . فأزال ظهره عن الاستناد وقال : لا ينبغى أن يجرى ذكر الصالحين ونحن مستندون ، وذكر هذا الحافظ ابن الأخضر فيمن روى عن أحمد فى ترجمة أبى زرعة الرازى . قال . سمعت أحمد بن حنبل وقد ذكر عنده إبراهيم بن طهمان وكان متكئا من علة فاستوى جالساً وقال لا ينبغى أن يذكر الصالحون فنتكىء . وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه . لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح .

آذى مؤمناً فقد آذى الأنبياء ،ومن آذى الأنبياء، فقد آذى الله،ومن آذى الله، فهو ملعون فى التوراة والإنجيل والفرقان . وقال صلى الله عليه وسلم . من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله، وعن جعفر الصادق رضى الله عنه . امش ميلا وشيع جنازة رجل صالح ، وامش ستة أميال وزر أخاً فى الله . ويقال: لما أخذ الذئب الذى كذبوا عليه فى أكل يوسف بن يعقوب وأوقفوه بين يدى نبى الله يعقوب عليهما السلام [فـ]ـأله عما أراد منه ، فأخبره خبر صدق ثم قال فى آخره . من أين جئت ؟ قال من مصر . قال فأين عزمك ؟ قال إلى جرجان. قال فما حاجتك ؟ قال أزور أخا فى الله،لأنى سمعت آبائى يحدثون عن أجدادى عنكم معاشر الأنبياء . أن من زار أخا فى الله كتب الله له ألفى ألف حسنة ومحى عنه ألفى ألف سيئة،ورفع له ألفى ألف درجة[1] . وقال ابن المبارك رحمه الله خمسة أشياء لا تصعد من الأرض إلى السماء إلا بالتمام. حرمة المؤمن، وشكر نعمة الرب، وحق الوالدين، وإكرام العالم الزاهد وعبادة الجبار . وحكى أن أخوين فى الله التقيا فقال أحدهما للآخر . من أين أقبلت؟ قال حججت بيت الله الحرام وزرت قبر الرسول عليه السلام . فأنت من أين أقبلت ؟ قال . من زيارة أخ أحبه فى الله . قال فهل:تهب لى فضل زيارتك حتى أهب لك فضل حجى ؟ فأطرق الآخر مليا. فإذا بهاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول:زيارة أخ فى الله أفضل عند الله من مائة حجة سوى حجة الإسلام .

الثانى : ينوى بزيارته تألفه وإبدال قلبه له كى يتولد بينهما المحبة، والله تعالى يقول. لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . ولكن الله ألف بينهم قال ابن مسعود رضى الله عنه نزلت هذه الآية فى المتحابين فى الله. وقيل . أربع خصال تؤكد مودة الأخ مع أخيه . الزيارة . والسلام .

=وكان ابن عباس يذهب إلى الرجل من الصحابة ليسأله عن الحديث فى حر الظهيرة فيتوسد رداءه على بابه تسفى عليه الريح من التراب .

(١) لا عبرة بتفاصيل مثل هذه الأخبار بل العبرة بدلالتها فحسب .

والمصافحة . والهدية ، ولو لم يكن الآن إلا أن يحصل له بهذه الزيارة إدخال السرور على قلب المؤمن . وقال بعضهم . فضل الأخوة الألفة والملازمة ، والمحبة الدائمة . وقال الرشيد لعلى بن الجهم . أنشدنى قولك فى القربة قال نعم يا أمير المؤمنين :

ألفت التوحيد والقربة وفى كل يوم أرى تربة
فيوم مطيل على نعمة ويوم مقيم على نكبة
ومما يطيب عين الحبيب حبيب تطيب به الصحبة

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما أعطى عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح . فإذا رأى أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به .

وقال صلى الله عليه وسلم «ما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما خيراً» وإن مثل المؤمن ، كمثل الكفين تغسل إحداهما الأخرى . لابد لها منها .

النية الثالثة .

يزور أخاه لقبل سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستحبابه لذلك ، كما روى عن الحسن قال [قال] النبى صلى الله عليه وسلم . يا أبا رزين أشعرت أن الرجل إذا خرج من بيته زائراً أخاه فى الله ، شيعه سبعون ألف ملك يصلون عليه يقولون ، ربنا إنه وصل فيك فصله ، فإن استطعت أن تعمل جسدك فى ذلك فافعل . قال أبو طالب المكى رحمه الله :

فهذا أمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفضيل زيارة الإخوان وقال أنس بن مالك . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غاب الرجل عن المسجد ثلاثا ، سأل عنه ، فإن كان مريضاً عاده ، وإن كان مسافراً دعا له ، وإن كان حاضراً زاره . وفى الخبر . إذا تصافح الأخوان فى قسمت بينهما مائة رحمة ، تسعة وتسعون [منها] لأنسهما بصاحبه ، وفى رواية فضحك أحدهما فى وجه صاحبه تساقطت ذنوبهما بينهما ، وقال مجاهد ، إن المتحابين فى الله والمتزاورين فى الله . إذا قاموا غداً من قبورهم ، بعث الله جل جلاله إليهم نجائب وقد خلقت من نور ، وسرجت من نور ، وألجمت من نور ، رحائلها من نور يقودها

المخلدون ، فيخرجون من القبور ، وهم يلبون الجليل جل جلاله ، فيؤتون بكاسات من ياقوت أحمر وأصفر ، فيها من ماء الكافور ، والشراب والتسنيم ، والرحيق المختوم ، وقد ضربت بالرضا والرحمة والرضوان ، فيسقون بحضرة الملك القدوس ، فيركبون النجائب ويتحلون الحلى تحليا[1] حتى يأتون إلى كراس لهم قد وضعت ، وينظرون إلى ربهم بعين البقاء وهم مسرورون ، وقال عمرو بن العلاء : يستحب للرجل أن يزور أخاه فى الله كل يوم مرتين . قال أبو طالب رحمه الله : كأنه تأول قول الجليل فى أهل الجنة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » فقد أدخل فيه الزيارة وغيره ، وأنشد فى ذلك .

إذا غبت يوما عن صديق وليلة ولم أرنى[2] أهلا لبعث رسول
فقد ضل عقلى إن طلبت إخاءه وإن كان ذامال وإن كان ذاحال

وفى الخبر . مازار رجل أخاه شوقا إليه ، ورغبة فى لقائه ، إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة . قال له أبو طالب : وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه رأى ابن عمر يتلفت يمينا وشمالا ، فسأله فقال : يارسول الله . أحببت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه ، فقال : ياعبدالله . إذا أحببت أحداً فاسأله عن اسمه وعن اسم أبيه ، وعن منزله ، فإن كان غائباً زرته ، وإن كان مريضاً عدته ، وإن كان مشغولا أعنته .

النية الرابعة :

ينوى بزيارته كفارة الذنوب وتحطيط الخطايا عنه ، كما جاء فى الخبر إذا زار الأخ أخاه فى الله ثم تصافحا ، فضحك أحدهما فى وجه صاحبه تساقطت ذنوبهما بينهما . وعن أبى أمامه رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر المؤمن إلى المؤمن ، ففرح بعضهم ببعض ، ناداهم ملك من بطنان العرش : استأنفا العمل فقد غفر الله لكما ما تقدم من ذنبكما . فإن ماتوا من يومهم أو ليلتهم ماتوا موت الصديقين ، وقال صلى الله عليه وسلم . من

---

(١) فى الأصل « تحليلا » .
(٢) فى فى الأصل « ولم أر » .

أخذ بيد مؤمن فصافحه فى الله، أعطاه الله من الثواب مثل ما يعطى إبراهيم الخليل ، وكتب له بكل إصبع عبادة سنة، ولا يفترقا حتى يغفر الله لهما .

النية الخامسة :

ينوى بزيارته نيله بركات النظر إلى أخيه وفائدته للتقرب منه ، فيداوى بذلك قلبه. كما جاء فى الخبر . أن الله جل ثناؤه ليحاسب العبد يوم القيامة، فيوقع عليه الحجة فيؤمر به إلى النار . فيبقى العبد، حيران فيقول الله عز وجل: هل رأيت ولياً فى دار الدنيا ؟ فأحببته لى ؟ أو زرته من أجلى ؟ أو أحبك ولى من أوليائى فأهبك اليوم له ؟ . وقيل لما دنت[1] وفاة الحسن البصرى، قيل له هل تشتهى شهوة؟ قال نعم . نظرة إلى وجه يوسف بن أسباط . وقال جعفر ابن سليمان. كنت إذا وجدت فى نفسى فترة نظرت إلى محمد بن واسع نظرة . فاعمل على ذلك . وقال موسى بن عقبة كنت ألقى الأخ من إخوانى مرة فأقيم عاملا بلقائه أياما ، وقال بن عباس رضى الله عنه . سبعة أشياء النظر إليها عبادة نظر الأخ إلى أخيه فى الله عبادة ، والنظر فى المصحف ، والنظر إلى الكعبة ، وإلى وجه الوالدين ، وإلى العالم ، وفى كتاب العلم ، وقال الفضيل. النظر إلى وجه الأخ فى الله على الشوق والمحبة عبادة . وقال الحسن البصرى. لقاء إخواننا فى الله أحب إلى من لقاء أهلينا وأولادنا. لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا. وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

النية السادسة :

يزور ليعرض حاله على أخيه. ويستنصحه فى دينه، وقال بلال بن سعد: أخ لك فى الله كلما لقيك وعظك بالله، خير لك من أخ لك كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً . قال أبو طالب المكى رحمه الله [كان] الإخوان فى الله من السلف يلتقيان فيقول أحدهما لصاحبه: كيف أنت وكيف حالك ؟ يقول كيف أنت مع نفسك وهواك ؟ هل تطاوعك إلى ما تدعوها [إليه] من الخير أم لا ؟

(١) فى الأصل « دنا »

وكيف حال قلبك مع [الله] فى الإقبال والإدبار عنه ؟ وقال بعضهم ما كان أكثر مواجيدنا إلا لقاء الإخوان.كنا نلتقى فيعرض أحوالنا بعضنا على بعض،ونأخذ المزيد بعضنا من بعض ، وفى حكمة آل داود : وينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات.ساعة يناجى فيها ربه . [وساعة] يحاسب فيهانفسه ، وساعة يجلس مع إخوانه الذين يذكرونه عيوب نفسه ويرغبونه فى الآخرة ، وساعة يخلى بين نفسه وبين حظوظها من لذات الدنيا[1] . فإن فىهذه الساعة عونا لتلك الساعات وإجمام [آ] [ا] لنفوس . وفضد[ا] تلقاه . وقال بعضهم : سمعت الدارانى يقول : إنى أجىء من دارنا أطلب قلبي عندكم ، ليس فى دارنا أحد يسألنى عن شىء ، وبعض أهل المحبة قال : غلب على حال،فخرجت من منزلى أطلب إنسانا أتنفس معه وأعرض عليه حالى،فلقينى الثورى،فتفرس فىّ وقال مالك ؟ قلت . معى متاع أريد من يبايعنى . فقال متاع الدنيا أم متاع الآخرة ؟ قلت بل متاع الآخرة . فأخذ بيدى فأخرجنى إلى المقابر فلما وقفنا على القبور قال . قد نقل من كان يحسن المعاملة بمتاع الآخرة إلى هذه البقعة . منذ دهر ، فإن كان معك صدق فاعرض عليهم متاعك . وإلا فاحفظه معك إلى يوم الجمع[2] .

النية السابعة .

ينوى بزيارته إلتماس محبة الله ،وتصديق وعد الله الذي وعد للزائر العبد من عبيده ، من فرط محبته له . أن ذلك يكون كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى،فأرسل الله فى مدرجته ملكا،فقال أين تريد ؟ قال أردت أخا لى فى هذه القرية . قال هل بينك وبينه رحم تصلها أوله عليك نعمة تربها ؟ قال : لا . إلا أنى أحببته

(١) المراد اللذات المباحة وإن كان الورع عنها أفضل لمن يستطيع .

(٢) وكان المحاسبي يخرج الجنيد من خلوته إلى مكان ناء بعيد فيقول له سلنى ، فيقول الجنيد ليس عندى ما أسألك عنه فيقول سلنى عما يرد عليك فيسأله عن كل ما يرد عليه فيجيبه ثم يذهب إلى منزله فيعلها كتبا وهذا هو التنفس بين الإخوان

فى الله قال فإنى رسول الله إليك، إنه يحبك كما أحببته فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله جل ذكره، حقت محبتى للمتحابين فى، ومعناه حقيقة الاستغفار.

يقال إن عبد الواحد بن زيد سمع رجلا يستغفر الله فقال : أيها الرجل، هل تدرى ما معنى الاستغفار؟ قال لا أعلم . قال : اعلم أن الاستغفار توبة والتوبة اسم واقع لمعان ست . أولها الندم على الماضى، والثانى ترك العود فى الباقى، والثالث أداء كل فرض ضيعته فيما بينك وبين الله . الرابع : أداء المظالم فى الأعراض[1] والأموال ، الخامس : إذابة كل لحم وشحم نبت من حرام حتى يعود العظم والجلد إلى مكانه[2] السادس إذاقة البدن ألم الطاعات ومرارتها كما ذاقت حلاوة المعاصى[3] ، فقال الرجل : من يستطيع هذا؟ قال : إن كان ثوبك جديداً فرقعه بالجديد ، وإن كان ثوبك خلقا فما ينفع ترقيع خلق بخلق ، والاستغفار هو كالرقعة[4] وقل مع الاستغفار : اللهم إنى استقيلك فأقلنى .

---

(١) فى الأصل «الأعواض» . وهذا إذا عجز عن رد المظالم فى الأموال : فشرط التوبه أن يرد التائب ما عليه من أموال إلى أصحابها فإذا لم يجد . استغفر لصاحب الحق . والله كفيل بإرضائه إن صدق استغفاره وتوبته أما فى الأعراض ، فلابد من طلب العفو من صاحب العرض . وقال بعضهم : يلزم ذلك تصريحا ، وقال بعضهم يلزم ذلك تلويحا لما فى التصريح من خطر . فإذا عجز عن معرفة صاحب العرض . استغفر له الله والله كفيل بإرضائه إن صدق استغفاره وتوبته .

(٢) ولا يكون ذلك إلا بعمق الندم ، والسهر والألم من المعاصى السابقة ، والحرمان .

(٣) ليس فى الاستغفار ألم ولا مرارة إلا إن قصد معناه الحقيق ، وهو القيام بحق الاستغفار من قيام وصيام وسياحة فى سبيل الله .

(٤) وجه هذه المقارنة بين الثوب والاستغفار : إذا كانت همتك ناهضة صادقة راغبة فى حقيقة التوبة والاستغفار فإن استغفارك سيكون ناهضاً صادقا كالرقعة الجديدة فى الثوب الجديد ، وإذا كانت همتك ضعيفة ، ونهوضك ثقيلا . فهى

وحقيقة التوبة الورع[١] ، وحقيقة الورع الزهد ، والزهد أن تزهد فى نفسك[٢] ، وحقيقة الزهد الرضا ، والرضا أن تحسن أحكامه عندك حتى تكون كالحجر[٣] ، وحقيقة الرضا المحبة ، وعلامة المحبة أن تؤثر الله على محبتك ، ولا تؤثر عليه شيئاً .

قال: أخبرنا الشيخ أبو على بن الحسين بن محمد الخشنامى رحمه الله ، قال قرأت عليه[٤] حديثا لعقبه . أبي[٥] موسى عيسى بن محمد بن عيسى ببسطام ، قال حدثنى جدى موسى بن عيسى ، قال حدثنى أبي عيسى بن آدم بن أخى يزيد طيفور بن عيسى بن سورشان ، عن أبي يزيد رحمه الله قال : طلقت الدنيا ثلاثا بتاتا لا رجعة فيه لله ، وصرت وحدى إلى ربى ، فناديته بالاستعانة : إلهى أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك . فلما أن علم صدق الدعاء من قلبي ، كان أول ما ورد على من إجابته ، أن أنسانى نفسى بالكلية ، ونصب الخلائق بين يدى مع إعراضى عنهم .

وبهذا الإسناد عن أبي يزيد قال إذا جاء حب الله يغلب كل شىء ،

= كالثوب الخلق وما ينتج عنها من استغفار وعبادة كالرقعة الخلقة ولن يصلح ترقيع خلق بخلق .

(١) لأن الورع يحفظ من الوقوع فى الشبهات ، فتصدق التوبة وتصح لذلك .

(٢) هذا تعريف دقيق للزهد ، والزهد الحقيقى أن يزهد الإنسان فى نفسه ومطالبها ومشاهداتها وارداتها وعلامة صحة الزهد أن يستوى وجود الشيء وعدم وجوده عندك . وليس من الزهد تعذيب النفس وحرمانها على كره منها ، فتلك مجاهدة فى طريق الزهد ، فالزاهد راض بما هو فيه . لا تضطرب نفسه .

(٣) أى لا تتأثر بأحكام الله عليك إن لم توافق نفسك تأثر اضطراب وقلق ، ولا تبالغ فى الفرح إن وافقت نفسك يشهد الراضى حكمة الله فى كل حكم ولا ينظر إلى أثر الحكم على نفسه ، يتعلم بالبلاء ، ويجد اللذة فى التضرع والدعاء .

(٤) فى الأصل : قرأت عليه قال .

(٥) فى الأصل : أبو موسى .

لا حلاوة الدنيا ، ولا حلاوة الآخرة ، فالحلاوة حلاوة الرحمن ، وبهذا الإسناد عن أبي يزيد أنه قال : رأيت رب العزة في المنام فقال لي : أي[1] شيء تريد ؟ فقلت : أريد ألا أريد غير ما تريد ، فقال : أنا لك كما أنت لي . وبهذا الإسناد أنه قال : غلطت في ابتداء أمري ، حسبت أني ذكرته فإذا هو ذكرني قبل ذكري له ، وحسبت أني أطلبه فإذا هو طلبني قبل طلبي له ، وحسبت أني أعرفه فإذا هو عرفني قبل معرفتي له ، وحسبت أني أحبه فإذا هو أحبني قبل محبتي له ، وحسبت أني أعبده فإذا هو جعل خلائق الأرض في خدمتي[2] .

وبهذا الإسناد عنه ، أنه دخل جماعة من أهل الشام على أبي يزيد ، فأخذ معهم في الكلام ، فقالوا : إنا سمعنا كلام ذي النون وغيره من المشايخ ، فلما سمعنا كلامك تركنا كلامهم ، فقال أبو يزيد : لأن القوم كانوا يتكلمون من بحر صفاء العمل ، وأنا أتكلم من بحر صفاء المنة[3] الناس يتكلمون ممزوجا وأنا أتكلم صرفا . كم بين [من] يقولون أنا وأنت وبين [من] يقولون أنت أنت[4] .

---

(١) في الأصل « إيش » .

(٢) ليس للعبد فعل إلا وقد سبق من الله للعبد قبل صدوره منه . فتاب عليهم ليتوبوا . يحبهم ويحبونه .

(٣) كيف ذلك ؟ ! ! راجع أقوال ذي النون في هذا الكتاب تدرك أنه يشهد المنة كما يشهدها أبو يزيد . رضي الله عنهما وذو النون صاحب مدرسة خاصة في التصوف في مصر ، هي مدرسة العمل الروحي ، وشهد له الكل بالكمال ، ولعله يقصد غير ذي النون بهذا القول .

(٤) الصوفي الكامل لا يقول : أنا . بل تعتبر « الأنا » عندهم شركا خفيا . [راجع خمرة الحان للنابلسي] ومعنى التكلم من بحر صفاء العمل . التكلم عن الأحوال والمقامات الناتجة من العمل ، مما يجده السالك في روحه ونفسه من هدوء ، وقبض وبسط ووجد وغلبة ، وعلم ومعرفة ، ومعنى التكلم من بحر صفاء المنة ، التكلم =

وبهذا الأسناد عنه . أنه سئل عن السنة والفريضة ، فقال ، السنة ترك الدنيا والفريضة صحبة المولى[1] . والسنة على ترك الدنيا . وبهذا الإسناد عنه أنه سئل عن الصوفى فقال : هو الذى يأخذ كتاب الله بيمينه ، وسنة رسوله بشماله ، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة ، وبالأخرى إلى النار[2] ، ويتزر بالدنيا ، ويرتدى بالآخرة[3] ، ويلبي من بينهما المولى ، لبيك اللهم لبيك

وبهذا الإسناد عنه أنه قال رأيت رب العزة فى المنام فقلت (يا بار خداى[4]) كيف الطريق إليك ؟ فقال : دع نفسك وتعالى ، وبهذا الإسناد

= بما يتلقاه السالك من ربه تعليما منه تعالى من أجل تقوى العبد ، فى الوقت الذى ينسى فيه العابد نفسه وعمله ، ويتوجه إلى الله طالبا منه الإنعام عليه ، معتقداً أنه ليس صاحب حق فى ذلك ، ومعنى الكلام الممزوج . العلم الممزوج بالنفس أو بظواهر الوجود ، أما الصرف ، فهو بالله وفى الله وإلى الله .

(١) لاصلة بين معنى السنة والفريضة عند أبى يزيد وتأويلهما على هذا الوجه . وبين تأويلات الباطنية . لأن الباطنية . يسقطون المعنى والعبارة ، ويحلون تأويلهم مكان اللفظ . كما قالوا فى الصلاة ، هى دوام الحضور مع الله ، وأسقطوا الصلاة الشرعية وأحلوا هذا التأويل محلها ، فكل حاضر مع ربه لاتجب عليه الصلاة عندهم ، ولكن الصوفى ، يبقى اللفظ والمعنى لغة وشرعا ، ويؤمن بوجوب مدلوله أو فرضيته أو ندبه ، ثم يلتمس للفظ إشارات أخرى ووجوها أخر من المعنى الإشارى .

(٢) أى يكون بين الخوف والرجاء لايغلب أحدهما الآخر لأن غلبة الخوف يأس وغلبة الرجاء إدلال وكلاهما مذموم .

(٣) ينظر إلى الدنيا ليرى آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس وينظر إلى الآخرة ليعمل ويجد فى العمل فالصوفى يقوم بعمران الدنيا والآخرة معا ولا يدعو إلى خراب أحدهما سيراً على شريعة الإسلام ، وفى هذا رد على من يتهم الصوفية بتخريب الدنيا وإيقاف التقدم والعمران هم لايقولون ذلك ، وإنما يقولون : اعمل فى العمران للدنيا ولا تجعل فى قلبك شيئاً من ذلك أى « أخرجوها من قلوبكم وضعوها فى أيديكم » .

(٤) عبارة فارسية معناها « يارب » .

أنه قال : الدنيا لأهل الدنيا غرور فى غرور ، والآخرة لأهل الآخرة سرور فى سرور ، ومحبة الله لأهل محبته نور على نور . والسرور من الدنيا سرور من غرور ، والسرور من الآخرة سرور من سرور ، والسرور من محبة الله سرور من نور .

وبهذا الإسناد ، أن ذا النون المصرى ، أهدى إليه مصلى فلم يقبله . وقال للرسول : قل لذى النون : إن هذا يصلح لمثلك لتصلى عليه . قال : فبعث ذو النون بوسادة كا[ت] أبلغ فى تجريده ، فلما جاءه الرسول قال: ارجع إليه . وقل له : من كان هو ووسادته فأى شىء يعمل بوسادتك .

وعن أبى يزيد مرسلا [1] أنه قال : إذا استولت على العبد حقائق الملك من الله عز وجل ، محقه من ذوق طعم الأشياء وهو فيها ، يغيب عنها وهو فيها ، ثم يغيب عن [2] فعله ، فيكون غائبا عن الذى حضر ، كما كان غائبا قبل أن يحضر وعن أبى يزيد أنه قال بالاسناد الذى تقدم . من اختار الدنيا على الآخرة ، يغلب [3] جهله علمه ، وفضله ذكره ، ومعصيته طاعته ، ومن اختار الآخرة على الدنيا ، يغلب [4] سكوته كلامه ، وفقره غناه ، وهمه سروره ، ومن اختار رضى المولى على الدارين ، تغلب نفسه الرحمة : وقلبه المحبة ، وسره القربة ، فتصير نفسه مقيدة [5] بقيد الخدمة ، وقلبه أسيراً بخوف الفرقة ، وسره مستأنسا بأنس الصحبة .

وروى عن أبى يزيد ، أنه سئل عن التوكل ، فقال : التوكل أن تجد كل ما هممت [6] به وبالإسناد عنه ، أنه سئل عن التواضع ، فقيل متى يكون الرجل

---

(١) فى الأصل « مرسل » .

(٢) فى الأصل « من فعله » .

(٣) فى الأصل « نقلب » .

(٤) فى الأصل « تقلب » وهو تحريف .

(٥) فى الأصل « مقيداً » .

(٦) هذه نتيجة التوكل وعلامة صدقه . والتوكل هو التخلص الكلى من أثر =

متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالة من شرها ورداءتها ، ولا يرى فى الناس لمثله مثلا ، وعنه بالإسناد الذى تقدم أنه قال : كان يعظ نفسه فيصيح عليها . يا مأوى كل سوء . المرأة إذا حاضت طهرت بثلاثة أيام ، وأكثره عشرة أيام ، وأنت يا نفسى قاعدة منى ثلاثين سنة بعد ما طهرت فمتى تطهرين[1] ؟ إن وقوفك بين يدى الطاهر ينبغى أن تكونى [لأجله] طاهرة .

وعن أبى يزيد بالإسناد المتقدم، أنه جاء رجل فقال: بلغنى: أن عندك اسم الله الأعظم ، فأحب أن تعلمنى . فقال له أبو يزيد : مه ، يا غافل ، اسم الله الأعظم ليس له حد محدود ولكن فرغ قلبك لوحدانيته فإذا كنت كذلك فارفع أى اسم شئت[2] ، وسئل مرة أخرى عن اسم الله الأعظم فقال تسألنى عن اسم الله الأعظم فخبرنى عن الأصغر . ثم هاج وقال ليس له اسم صغير أسماؤه كلها عظام ، ولكن يحتاج إلى سرٍّ صاف .

وعنه بالإسناد المتقدم، أن رجلا من خراسان جاء إلى عنده ، فقال : أريد الحج فأوصنى . فقال له : انظر إلى السماء . فنظر الرجل ، فقال له أبو

= الأسباب فى القلب فيعمل العامل كما أمره الله ، ولا يفكر بعد ذلك فى نتائج أعماله ، وهنا آفة دقيقة ، وهى أن يدخل العابد فى التوكل ليكفيه الله ما أهمه . وهو بذلك خارج من التوكل دون أن يشعر أما التجرد : فهو الخروج من كل سبب وهو مذهب قليل من الرواد فى التصرف .

(١) فى الأصل : تطهرى .

(٢) كثير من المريدين يتناقلون عن السادة المرشدين ، أنهم يعرفون اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وبعض الصوفية ممن لم يصلوا إلى درجة العظام ، ذكروا أسماء مفردة ، أو مركبة ، أو جملا ، وقالوا : إن فيها اسم الله الأعظم والحق ماقاله الإمام البسطامى ، من أنه ليس هناك اسم أعظم وأصغر ، وإنما الاسم الأعظم من يكون من حيث تفريغ القلب والتجرد لله بالكل ، وإحكام الجمعية على هذا التوجه ، فكل اسم حينئذ يدعو به الداعى ، يكون أعظم لأنه سيجاب به الدعاء بمجرد التوجه

يزيد : أتدرى من خلق هذا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال أبو يزيد : هذه السماء . وصيتى لك من هاهنا إلى حيث مضيت ، اعلم أن من خلقها مطلع عليك حيثما كنت ، وعليه حسابك ، يعلم ما فى قلبك .

وبهذا الإسناد عن أبي يزيد أنه سئل فقيل له : كيف عرفت الله ؟ فقال للسائل : لو عرفت الله لما كنت تسألنى عنه[١] . ومن لم يعرف الله فلا يعرف قول العارف[٢] . ومن عرف الله استغنى عن السؤال[٣] ، وعنه مرسلا أنه قال . قال الله للكافر : آمن ، وللمنافق أخلص ، وللعاصى ارجع ، وللمحب ارض بحكمى . وللعارف . أبصر تر .

وعنه أنه سئل ، بأى شيء يصل العبد إلى الله ؟ قال بالخرس والصمم والبكم والعمى . وعنه أنه قال أحببت الله حتى أبغضت نفسى ، وأبغضت الدنيا حتى أحببت الله ، وتركت الدنيا حتى وصلت إلى الله ، وخيرت الخالق على المخلوقين حتى أبغضت له .

---

(١) أى عن طريق معرفة الله .

(٢) لأن معرفة الله مرحلة من مراحل الإدراك خارجة عن حدود الوعى العقلى ، والعارف لا يعبر عن حقيقة مشاهداته الروحية ، وإنما يحاول تقريب المعنى بطريق الرمز والإيحاء الموسيقى للألفاظ ، فهم أول من ابتكر الآداب الرمزية . ابتكروا تعبيرات لا يفهم معناها ، ووقعها الإيحائى إلا هم : وكثير منهم لا يفهمون المشاهد إلا من هذا الطريق . طريق الإيحاء التوقيعى لآدابهم ، وكلما ارتفع العارف فى المقام ، دق فى أعين العوام : لعدم فهمهم لمعانى ما يقولون ، وينسبونهم إلى أشياء هم منها براء ، فلا يفهم كلام العارف إلا العارف .

(٣) لمعرفته بطريق الوصول إلى الله من جهة ، ومن جهة أخرى . هم لا يتركون مشهودهم ليسألوا عن طرق الوصول إليه التى لم يسلكوها ، أولم تصل إليها معارفهم .

ولمعرفة الله طرق : بعدد أنفاس الخلائق كما يقول أئمة التصوف ، وأمهات هذه الطرق . العلم ، وهو مذهب الشيخ الأكبر محي الدين بن عربى [راجع أوائل مواقع النجوم للشيخ الأكبر] ، والطريق الثانى ، طريق الصعود وهو ، طريق=

وعنه أنه قال . خرجت إلى الحج ، فرأيت فى الطريق أسود . فقال لى : ياأبا يزيد إلى أين ؟ فقلت : إلى مكة . فقال الذى تطلبه تركته ببسطام وأنت لا تدرى كيف تطلبه ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد[1] . روى عنه أنه سئل ، فقيل متى يصل العبد إلى الله ؟ فقال : يامسكين . وهل وصل إليه أحد ؟ ولو بدا للخلق منه ذرة ما بقى الكون ولا من هو فيه .

= «الخلوتية» وهم يبدأون سلوكهم من أول مراتب النفس اللاصقة بالمادة ، ويدعون المريد يتفهم أسرار السلوك بتوجيه إيحائى منهم ، فحينما يصعد السالك إلى مقام المعرفة العلية يكون قد فقه الكون وغرائبه ، فيعود من صعوده نازلا ، وقد أضفت عليه المعرفة الإلهية سلوكا جديداً نحو الكون ، والطريق الثالث ، طريق النزول ، وهو طريق الشاذلية . يبدأون المعرفة من فوق « ها أنت وربك » وحينما يتقن السالك هذا المقام ، ينزل إلى الكون درجة درجة ، ومرتبة مرتبة . والطريق الرابع ، طريق النقشبندية ، وليس للعقل فى طريقهم مجال . فهم يبدأون بالفناء والتعاون الروحى والتوجه ، وطرح الروح ، ويفتحون منافذ الروح ويغلقون منافذ الحس تماما ، ثم يصحون من مجالسهم هذه ، ليذكروا ما ألقى إلى الروح من المعارف فيدونوه أو يسكتوا عنه وقد وضع شيوخهم أسس التعاون الروحى بينهم ، لخدمة الدين وحاجة الدنيا . كما وضع شيوخ «الخلوتية» أسس التعاون المادى بين الإخوان ، ولم يبيحوا لهم التعاون الروحى ، إلا بعد إتمام السير الصعودى .

وعلى أى حال . فطرق السلوك الصوفى ، جديرة بالبحث والتصنيف ، فهى تفوق طرق التربية الحديثة وتسيطر عليها تماما .

(١) أى بعد حجة الإسلام ، يمكن للعارف أن يتوجه إلى أى مكان من الأماكن المقدسة ، وتوجه العارف يمثل له المشاهد كأنها واقعة أمامه تماما بل إنها أحياناً تكون حقيقة ماثلة ، وقد روى أن الجبال طأطأت إلى الأرض حينما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرسم القبلة فى المدينة حتى يرى الكعبة ويزن عليها المحراب ، أو سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، سارية بن حصن ، كما هو معروف وإذا خفت ذبذبات الروح اتصلت بما يشاكلها فى الخفة والذبذبه وشهدت مالا يشهده غيرها ، =

وعنه بالإسناد المتقدم أنه قال : من نظر إلى الناس بالعلم مقتهم ، ومن نظر إلى الناس بالحقيقة رحمهم[1] ، وعنه أنه سمع رجلا يقول : عجبت ممن عرف الله كيف يعبده[2] ، وعنه أنه قال له رجل : دلني على عمل أتقرب به إلى الله. فقال: أحب أولياء الله ليحبوك ، فإن الله عز وجل ينظر في قلوب

= ونقل الصورة في «التلفزيون» خطوة في سبيل تحقيق انتقال الجثة من مكان إلى مكان . وقد نبه الصوفية على ذلك بوجود الأبدال الذين يقومون برحلات روحية يصحبها الجسم ويتركون مثالا شبيها بهم في مكانهم إلى أن يعودوا . وسرعة تقدم العلم في العصر الحديث أمل أخير نرجو أن يكون قريباً ليطمئن الحيارى على ضخامة التراث الإسلامي فيعيدوا النظر فيه وللدلالة على ذلك . أن الإمام النابلسي : فصل نظرية النسبية من الناحية النظرية قبل أن يدركها « أينشتين » ، ولا شك في أنه نال في عصره من سخريه الساخرين الشيء الكثير [راجع خمرة الحان] .

(١) أي من وزن الناس وأعمالهم بالعلم ومقاييسه ، مقتهم واستصغرهم ، بل وربما احتقرهم . أما أهل الحقائق ، فينظرون إلى الناس من حيث الحقيقة ، ومن حيث أنهم لا شيء ، وأنهم مسيرون في صورة مخيرين . رحمهم ، وعطف عليهم ، لجريان المعصية عليهم ، ولذلك نرى كثيراً من أكابر الصوفية يعطفون على أهل الخطايا من هذه الناحية .

(٢) بعض القاصرين يفهمون هذه العبارات ، على أنها إسقاط للفرائض ، وإباحة للمحرمات بعد الوصول إلى الله كما يفعل الباطنية . ولكن المعنى الصوفي لهذه العبارة وأمثالها . أن هناك فرقا بين العابد والعارف ، فالعابد ، يلاحظ الاثنينية : عابد ومعبود ، طالب ومطلوب ، أجير ومؤجر ، ولكنها ليست اثنينية الشرك في حكم الشرع .

أما العارف ، فتكون حركات العبادة ملكة له وخلقا ، يغني عنها ، ولا يشعر بها ، لأنه في نعيم أعلى هو نعمة المعرفة ، فعبادة العارف ليست انتظاراً للأجر ، ولا رهبة من مخالفة الأمر ، وإنما هي لذة القرب ونعيم المؤانسة . وعجيب حقاً من ينزل من هذه المرتبة العالية ، إلى مرتبة الأجراء .

أوليائه كل يوم وليلة ، سبعين مرة ، فلعله ينظرك فى قلب وليه ، فيغفر لك .

وروى عنه أنه قال : بالله أتقدم ، وبنفسى أتأخر . إذا وجد نفسه كان متخيرا وإذا فقد نفسه كان مختاراً[١] ، قال أبو موسى ، [وكان] يقول : لله عباد لو بدت لهم الجنة بزينتها لضجوا منها كما يضج أهل النار فى النار ، وروى عنه ، أنه جاء إلى حلقة [قوم] يقولون : ما قولكم فى رجل مات وخلف من العقار كذا وكذا ، ومن الورثة كذا وكذا ؟ فقال أبو يزيد : ما تقولون فى رجل خلف الله تعالى ؟ فنظروا وبكوا[٢] ، وبهذا الإسناد أنه سئل أبو يزيد ، متى يكون الرجل عاملا على معنى العبودية ؟ فقال : إذا لم يكن له إرادة ، فقلت وكيف يكون ذلك ؟ قال : تكون إرادته وتمنيه وشهوته داخلة فى [إرادة] محبوبه ، ولا تتقدم له إرادة فى شىء أبداً ، حتى يعلم إرادة الله عز وجل ومحبته فيه .

وبهذا الإسناد أنه قال : كنت عند أبى يزيد فذكر عنده الجاه والنفس ، فقال : يا أبا موسى إن المؤمن له نفس[٣] ، ثم قرأ : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فمن بايع نفسه فكيف يكون له نفس .

---

(١) أى إن فقد هوى النفس اختاره الله لحبه وجواره

(٢) أى إن البسطامى وجد قوما مشغولين بمسائل الفرائض والمواريث ، فعرض عليهم طريق الله ، فبكوا ، وليس المراد كذلك ، أن الصوفى ينهى عن دراسة الشريعة كما يدعى ذلك بعض السطحيين من الدراسين ، بل إن مذهب الصوفية يفرض على مريديه أن يعلموا ما تصح به الأركان الخمسة ، وما يظهر ، الحلال من الحرام ، وبعد إحكام هذه الآلة ، يجب استعمالها فى الحال فى تصحيح الأعمال لله ثم يرقى بعد ذلك إلى مرتبة المعرفة ، وحيث علمنا الفرائض ، فلا جدوى من فرض مسائل للإجابة عنها .

(٣) يريد الإمام البسطامى رضى الله عنه . أن يقول إن من هو فى درجة الإيمان من الناس لا يزال مع نفسه لأن الشراء وقع على النفس التى هى مع المؤمنين ، فمن =

وعن أبى يزيد بالأسناد الذى تقدم أنه قال : من زهد فى الدنيا فقد نبه عن قدرها من قلبه[١] ، إنما تشغل القلوب لمولى القلوب فقط ، أى لا يشتغل بتكلف الزهد فيها ، فإنه لا شىء .

وروى عنه أنه قال : أول مقام التوحيد ، أن يصل العلم قائلا ومستمعا. قال أبو موسى : وحدثنى أبو[٢] محمد بن عيسى بهذا الإسناد عن أبى يزيد ، أنه سئل عن اسم الله الأعظم ، فقال فى قولك لا إله إلا هو ، وأنت لا تكون هناك[٣] . وقال مرة أخرى : لا إله إلا الله وكن أنت ثَمّ[٤] .

وروى عن أبى موسى الدؤلى ، أنه قال : سمعت أبا يزيد يقول : بك أدل عليك ، ومنك وإليك ، اللهم ما أطيب واقعات الإلهام[٥] منك ، على خطرات القلوب ، وأجل المشى إليك بالأوهام فى طرقات الغيوب[٦] ،

= أراد أن يبيع نفسه بثمنها الذى قرره المولى الكريم ، ترقى إلى درجة فوق الإيمان ، وهى الإحسان فإذا باع المؤمن نفسه ، وحظى بنعيم المشاهدة فكيف يكون له نفس بعد ذلك إلا إن كان من الأشقياء فى الأزل .

(١) لأنه أقام للدنيا وزنا يستحق الزهد فيه ، فالزاهد الحقيقى فى الدنيا ، هو الذى ينسى زهده ، حتى يصير له ملكة لا يشعر بها .

(٢) فى الأصل « أبى » .

(٣) أى بالفناء عن اللفظ والمعنى والحس كله واصطحاب الروح والسكون معها والعمق بها فى مناطق الاستلهام العليا .

(٤) أى هناك فى أقصى ما تصل إليه الروح من مجال الاستكشاف .

(٥) واقعات الإلهام ، ما يرد على القلوب من المعارف الإلهية ، والعلوم الربانية ، وفهم الأسرار الدقيقة ، والمعانى الرقيقة .

(٦) قد يحس السالك المؤمن بالغيب فى سلوكه ببعض المشاهد غير المنظورة ، وقد يسلك الله به فى معاشه ودنياه طريقا غير التى عهدها ، والبسطامى . يستعيد جلال هذا الطريق وعظمته ، أو المقصود ، نعيم الخواطر والواردات .

اللهم ما أحسن مالا يمكن للخلق كشفه ، ولا للألسنة[1] وصفه من حيث لا تدركه العقول والأفهام[2] .

وروى عن أبي يزيد أنه سمع رجلا يقول : الله أكبر . فقال : الله أكبر من كل شيء سواه . فقال : ويحك حددته . أو كان معه شيء فيكون أكبر منه ؟ فقال له الرجل : ما معنى الله أكبر ؟ فقال أبو يزيد : أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو تدركه الحواس .

قال أبو موسى : حدثني بهذا الإسناد : أنه سئل عن طلب العلم فقال : إنما حسن طلب العلم وأخبار الرسول ، لمن يطلب المخبر به ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، أو المخبر عنه[3] . فأما من طلبه لتتزين [به] نفسه عند الخلق ، فإنه يزداد بعدا من الله ورسوله .

وروى عن أبي يزيد أنه سئل من تأمرنا [أن] نصحب ؟ فقال : من إذا مرضت عادك ، وإذا أذنبت [فيه] تاب [عليك] وبهذا الإسناد عن أبي يزيد أنه قال : أليس الله يعطي العباد الجنة برضاه ؟ فإن أعطى عبداً من عبيده رضاه ما يرجو بقصور الجنة ؟ ثم قال وزن ذرة من حلاوته ما [ذا] يرجو [بعدها] بقصور الجنة[4] ؟ !! وروى أبو جعفر النيسابوري ، عن أبي موسى الدؤلي ، عن أبي يزيد . قال جاء رجل إلى أبي يزيد فقال : أريد أن أجلس معك في مسجدك الذي أنت فيه . فقال : لا تطيق ذلك . فقال : إذا رأيت أن توسع في ذلك . فأذن له . فجلس يوما فلم يطعم وصبر ، فلما كان في اليوم الثاني ، قال : يا أستاذ نريد القوت ؟ قال : يا غلام . القوت عندنا الله . قال : يا أستاذ . لابد مما لابد منه . قال : ياغلام . فلا

(١) في الأصل « بالسنة » .

(٢) يقصد غيب الذات الذي يعجز عن دركه كل من الكون .

(٣) يعني ما تتضمنه السنة من الأحكام .

(٤) أي لو أوتي الإنسان وزن ذرة من حلاوة الرضا فماذا يرجو بعد ذلك من قصور الجنة والمقصود : الزهد فيها .

بد لنا من الله . قال : يا أستاذ . أريد شيئا يقيم جسمى فى طاعة الله . قال : يا غلام . إن الأجسام لا تقوم إلا بالله[1] .

وروى أبو جعفر ، عن أبى موسى الدؤلى ، أنه قال : كان مع أبى يزيد تلميذله عشرون سنة ، مامن يوم إلا يقول له: مااسمك ؟ فعظم ذلك على الغلام، فقال له فى بعض الأيام : ياأستاذ ، أنا معك منذ عشرين سنة ، مامنها يوم إلا سألتنى عن اسمى . فقال له : يا غلام . ما أهزأ بك . ولكن غيب عنى اسم الواحد القديم اسم[2] كل محدث معدوم .

قال : وحدثنى أبى بهذا الإسناد ، عن أبى موسى ، خادم أبى يزيد ، أنه خرج ذات ليلة إلى رباط[3] بقرب بسطام ، يحضر[4] فيه الصالحون كل ليلة جمعة[5] فلما جاء وجدهم على الطعام، فقالوا له : هلم إلى طعامنا . فقال : حتى أصعد إلى سور الرباط أولا . وأكبر تكبيرة واحدة . فقالوا له : إنك

---

(١) مشرب عجيب من مشارب كبار الصوفية ، له فى الكون وجود ، ولكنه قليل ، يصبر أهله على الجوع أياما متتالية . وقد أوضح الشيخ الأكبر : محي الدين ابن عربى فى كتابه « العبادلة » فى الحديث عن « عبدالله بن عبد الواسع بن معروف » مخطوط تحت الطبع لنا . قال : إنها وراثة نبوية ، لأن العارف يأكل فى نومه ، فالنبي يبيت جائعاويستيقظ من إطعام الله له ، وهو شبعان ، والولى يستيقظ وهو جيعان . فإذا صدقت رؤية الولى ، ووجد الشبع بعد اليقظة ، فذلك من أجزاء النبوة ، التى تكون للمؤمنين . لحديث الرسول عن الرؤيا الصادقة وأنها جزء من أجزاء النبوة ، وقوله « من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه » ثم قال الشيخ الأكبر . وقد رأينا هذا بأنفسنا .أكلنا وأصبحنا وعلينا رائحة أثر الطعام وشبعنا ، وهذه وراثة نبوية ، فهى للنبوة لاولى . [راجع أيضا . كتاب الخلوة ، للشيخ الأكبر ، مخطوط] .

(٢) فى الأصل « واسم »

(٣) الرباط مكان يسكنه الصوفية « وينقطعون فيه للجهاد والعمل

(٤) فى الأصل « حضر »

(٥) فى الأصل « الجمعة »

لاتعاشر الناس . فصعد السورويق إلى طلوع الفجرلم يكبر ، ثم كبر تكبيرة واحدة ، فقيل له فى ذلك فقال : لم يوافق القلب اللسان ، فلم أزل أضرب نفسى ، أكره أن أذكره باللسان ، والقلب غائب . فلما أن أصبحت . فارقنى الدم مكان البول[1] .

قال : وحدثنى أبى بهذا الإسناد عن أبى يزيد . أنه قال : طلبت عشر سنين [أن] أصلى ركعتين لا كون فيهما [ما] ، فمكثت بعد ذلك عشرين أطلبنى فلا أجدنى[2] .

وبهذا الإسناد عن أبى يزيد ، أنه قال : لم أذكر منذ أربعين سنة أنى استندت إلى حائط مسجد . فقيل له : لم لا تستند ؟ وفى ذلك رخصة ؟ فقال : سمعت الله يقول : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[3] .

---

(١) ليس هذا ببعيد ، فإنه تعرض للبرد مدة طويلة إن لم يكن ذلك من اضطراب الأجهزة الجسدية ، لقوة الجهد الذى يبذل فى ربط القلب باللسان . فليس ذلك سهلا كما يتوهم بعض البسطاء من السطحيين . حيث يرددون أنهم يستطيعون ذلك . وإنما هو تدريب طويل ، يقوم على النظام الدقيق الذى لا يقل دقة عن دقة العلاج النفسى الناجح إن لم يفقه بكثير .

(٢) وذلك لأنه بربه . فلم يستطع أن يعود إلى مألوف الخلق ، فالثابت فى التصرف ، ذوقا وسلوكا ، أن لذة المعرفة لا تعد لها لذة فى الوجود ، وأن تلك اللذة مما لا يستطاع التعبير عنه بدقة ، وكل ما قالوه فى وصفها « لو علم الملوك ما نحن عليه من لذة العلم ، لقاتلونا عليها بالسيوف ، فهى من المسائل التى تذاق من له ذوق صوفى بالذات ، ولا يمكن الحديث عنها لقصور اللغة .

(٣) وهو يخشى أن يكون استناده إلى جدار المسجد تعديا لحدود الله وسوء أدب فى بيته وحضرته

وحدثني بهذا الإسناد عن أبي يزيد أنه قال : غصت في بحور الأعمال أربعين سنة ، فصعدت ، فإذا أنا مرتبط بزنار[1] .

وعن أبي موسى ، عن أبي جعفر النيسابوري ، عن أبي يزيد أنه قال : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد من العلم . فقيل له : أليس بالعلم جاهدت ؟ فقال : نعم . ولكن كان يختلف على باختلاف العلماء . ثم قال : اختلاف العلماء بركة في كل مسألة إلا في التوحيد .

وقال . وحدثني أبو موسى ، قال : حدثني أبو حفص ، عن أبي يزيد ، قال . كنت أطوف حول بيت الله الحرام ، فلما أن وصلت إليه ، رأيت البيت يطوف حولي[2] ، وبهذه الرواية أنه قيل له : بلغناأنك تمشي على الماء . فقال : سمكة تباع بدانق تمشي على الماء . ابن آدم أكرم على الله من السمك . فقيل : بلغنا أنك تمشي في الهواء . فقال : عصفور يباع بدانق يطير في الهواء. والمؤمن أكرم على الله من العصفور . قيل له : بلغنا أنك تأتي مكة بين

---

(١) الزنار منطقة للنصارى ولا يقصد أنه صار نصرانيا ، وإنما يقصد أنه لم يحس بتقدم كبير . وهو تعبير شاعري معروف في الأدب ، والمعنى الدقيق لهذا التعبير : أن النصرانية دعت إلى التجرد حقيقة ، ولكن كان ذلك التجرد طلبا لنوال ، هو الدخول في ملكوت الله ، فصارت كل أعمالهم أعمال أجراء عند الله فمهما غاص العارف في بحور الأعمال ، فهو لا زال كأهل الزنار ، في الصعود الروحي ودوافعه لا في العقيدة والإيمان . وليس في ذلك نهى عن الأعمال كما يتبادر إلى أذهان المتسرعين ، بل فيه أمر بنسيان الأعمال الخيرية كلها وعدم التعويل على أي نفع يعود منها ، وأولى بالمتسرعين في الأحكام . أن يخيروا أحكامهم ويقرروا أن هذا النوع من الناس أصلح الخلق لبناء الحياة على الأرض حيث يتطلب العمل البشرى نسيان الذات ، والأعمال .

(٢) طوافه حول البيت قبل أن يصل إليه ، كان بروحه وتوجهه الكلى نحوه ، فلما قرب منه كرمه البيت وطاف حوله . وهو مشهد يراه هو ، ولا يراه غيره . ورؤيته له في مقام الوهم وهو مقام شريف .

الأذان والإقامة . قال : هذا فعل بعض الجن ، والمؤمن أكرم على الله [من الجن] . قيل له : يا أبا يزيد . فمن الرجل الذى خطه من الله هو[1] ؟

وبهذا الإسناد أنه قال : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا فضيلة نوع من الغرور ، وارتجاء الرحمة من غير طاعة حمق وجهالة ، وفى التوراة : يا ابن آدم . الغنى فى القناعة ، والسلامة فى العزلة ، والحرية فى رفض الشهوة ، والتمتع فى أيام طويلة يوجد فى الصبر ، على أيام قليلة .

وبهذا الإسناد عن أبى يزيد[2] . وقد وصلت ، اضرب بالدنيا وجه عشاقها ، وبالآخرة وجه طلابها ، واطلب من بينهم المولى ، وعنه بروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأرجو ألا[3] يضر مع الإيمان عمل ، كما لا ينفع مع الشرك عمل .

وأوحى الله إلى داود عليه السلام : إنى ما أنحت كنه معرفتى لخليلى ، ولا لروحى ، فلو قالا غير ذلك سُلِبا كل صالح مننت به عليهما . قال : وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : أن يا عيسى اجعل طعامك جوعا ، وشرابك ظمأ ، واسكن قلبك السماء ، اجعل كلامك للقلوب دواء ، قال : وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى « ما حملتنى سمواتى ولا أرضى ولا عرشى ولا كرسى ، وإنما احتملنى قلب عبدى المؤمن الوادع

---

(١) أى ما دمت تنفى عن نفسك كل هذا فحظك من الله « هو » ، ومن هذا الرجل ؟ فالاستفهام للتعظيم . وعلى هذا يكون الكلام قد انتهى . ويجوز أن يكون سؤالا سقطت الإجابة عنه من الأصل . وهذا يدل على زهد الصوفية فى الخوارق والكرامات ، وعدم اعتبارها فى السلوك ، لأنها قد تختلط ، فتظهر على يد غير المؤمن ، ولأنها ليست غاية السلوك عندهم .

(٢) فى الأصل هنا كلمة . عطفس وأمامها فى الهامش كلمة تنظر

(٣) فى الأصل لمن لا يضر

الخاشع ، لولا أنى أنظر إلى قلبه[1] فى كل يوم وليلة مائة مرة ، لا ضمحل وتلاشى[2] ، قال : وأنشدنى الشيخ ، الفاضل أبو على قال : وأنشدنى أبو الفتح البستى : —

تنازع الناس فى الصوف واختلفوا قدما وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى لقب الصوفى[3]

وسئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : من يعمل بما يعلم ، ورثه الله علم ما لم يعلم . قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله : من عمل بعلم الرواية[4] ، ورثه الله علم الدراية[5] ، وقال غيره : من عمل بما دعا إليه من الفرائض ، ورثه الله المعونة فى الزيادة ، يعنى النوافل . وقال غيره : من عمل بما دعى إليه ، ورثه الله الإخلاص والرضا واليقين فى القلب . وهو فعل الله تعالى .

وقال عمر بن عبد الله القرشى : قيمة كل إنسان همته ، فمن كا[ت] همته الدنيا ، فقيمته أقل من جناح بعوضة ، ومن كا[ت] همته الأحوال والدرجات والمقامات ، فقيمته القرب والدنو ، ومن كانت همته الله فيياه الله وشرفه ، [ف] ماله قيمة ، لأن الله عز وجل ليس له نهاية .

---

(١) فى الأصل « قلوبهم »

(٢) النظر الذى ينظر به الله تعالى إلى قلب عبده المؤمن هو نظر الرحمة والملاطفه ولولا هذا النظر لاضمحل القلب وتلاشى من تجليات الجلال والقهر ، ولا بد أن يموت العارف فى مشهد الجلال فهو مشهد من مات به ثبت على الإيمان ،

(٣) اعترض علماء اللغة على هذه التسمية . وقالوا : إذا نسب إلى أهل الصفاء . قيل : صفائى لا صوفى . كما اعترضوا على أن هذا الاسم نسبة إلى أهل الصفة وقالوا النسب إليها صفى . ولتحقيق هذه التسمية [راجع أول إيقاظ الهمم . لابن عجيبة الحسنى . .]

(٤) أى رواية الحديث

(٥) أى دراية المتون والرجال والمصطلح

وقال: أيها الحكيم قيمة كل إنسان همته ، إن كانت همته الدنيا (١) فقيمته لا شيء ، وعلامته إذا غضب يرضى بعرض الدنيا ، فيؤثر حظ نفسه وشهواته ، ومن كانت همته الآخرة فقيمته الجنة ، وعلامته أن يكون غضبه لحق الله ، ورضاه بحق الله ، لا للنفس ولا لدنيا ، ومن كانت همته الله ، فقيمته رضى الله ، وعلامته ألا يستأنسه ولا يوحشه ولا يؤنسه شيء .

وسئل يحيي بن معاذ عن معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » قال كريم القوم تقيهم . قال الله عز وجل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . على موافقة كتاب الله ، ماتأولت [من] أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن الفاسق لا يكون كريما على الله ولا على رسوله.

---

(١) يدخل فى هذا الباب . استعمال الذكر لصرف الهموم والديون ، والإعانة على الأسباب ، فهل يعتبر العامل بذلك من أصحاب همة الدنيا ؟ أحسن ما قيل فى هذا الموضوع قول سيدى أحمد زروق فى قواعد التصوف . القاعدة (١٢٣) وجاء فيها « استراق النفوس بما يلائمها طبعا ، لما فيه نفع دينى مشروع . فمن ثم رغب فى أذكار وعبادات لأمور دنيوية كقراءة سورة الواقعة لدفع الفاقة ، وبسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، لصرف البلايا المفاجئة وأعوذ بكلمات الله والتامات من شر ماخلق ، لصرف شر ذوات السموم والحفظ فى المنزل ، إلى غير ذلك من أذكار صرف الهموم والديون والإعانة على الأسباب كالغنى والعز ونحوه .

بيان ذلك : أنها إن أفادت عين ما قصدله ، كان ذلك داعيا لحبها ، وحبها داع لحب من جاء بها ، ومن نسبت له أصلا وفرعا . فهى مؤدية لحب الله . وإن لم تؤد ماقصدت له ، فاللطف موجود بها ، ولاأقل من أنس النفس بذكر الحق ، ودخول ذلك من حيث الطباع أمكن وأيسر ، ولهذا الأصل أسس الشيخ أبو العباس البونى ومن نحا نحوه فى ذكر الأسماء وخواصها وإلا فالأصل . ألا تجعل الأذكار والعبادات سببا فى الأغراض الدنيوية إجلالا لها والله أعلم .

فى الصوم

وسئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل ، كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . الجواب : أما ما ذكر عن الزهرى فيه [ف] قولان ، أن الله جل ذكره يؤدى إلى المظلوم من حسنات الظالم ، حتى لا يبقى من عمله شىء غير الصوم ، فيقول المظلوم يارب : قد بقى له الصوم ، فيقول الله عز وجل : الصوم لى خالص وأنا أجزى به عنه بأضعافه ، فيرضى الله الخصم بالصوم دون سائر الأعمال(١) .

وقال أبو سعيد الخراز : الصوم فى اللغة هو الإمساك عن الطعام والشراب دون غيرهما ، والله جل ثناؤه لا يطعم ولا ينبغى له أن يطعم ، فإذا أمسك الإنسان عن الطعام والشراب ، فقد صار موصوفا بضرب من الصمدية ، فقال جل وعز : الصوم لى . أى نعت من نعوتى ، وأنا أجزى به أكثر مما يأمله الصائمون منى .

[فى تأديب الأولاد]

عن عيسى بن أحمد . قال : أخبرنا يزيد بن هارون . قال : أخبرنا عامر ابن صالح . قال : حدثنا أيوب بن موسى . عن أبيه ، عن جده . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن » قال أبو بكر : وجاء رجل إلى باب عمر ، فدق به ، فقال عمر : من بالباب ؟

---

(١) يلاحظ أنه لم يذكر القول الثانى عن الزهرى : ولم يذكر نية الصوم اكتفاء بما ذكر عن النية فى التجوع لله . ويرى سيدى عبد العزيز الدباغ فى « الإبريز » أنه لما كان إنزال آدم من الجنة إلى الأرض بسبب الأكل من الشجرة كان الأكل هو سبب كل معصية . فهو يتخم الانسان فيقعده عن العبادة . ويثير النزعات الخبيثة ، ويدفع إلى السرقة والغش والخداع والنفاق ، ومع كثرته يكثر احتمال النجاسة فى الثوب والجسد لذلك جعل الله أعظم القربات الصوم ، لأنه ترك لأساس المعصية ، وسد لبابها ، ومن هنا كان الصوم خالصا لله تعالى ، فإذا أداه العبد بظاهره وباطنه ، استحق الجزاء الأوفى .

فقال : أنا فلان بن فلان الفلانى : فقال عمر : إن كنت نقيا من الحرام فأنت كريم ، وإن كنت حسن الخلق فأنت شريف ، وإن كنت عاقلا فسيد كبير ، وإلا [ف] أقل حمار خير منك . وعن محمد بن الفضل . قال : حدثنا على بن عبيد . قال : حدثنا الخاطبي قال : سمعت ابن عصير قال : أدب ابنك فإنك مسؤل عن ولدك ماذا أدبته ؟ وماذا علمته ؟ وهو مسؤل عن برك وطواعيته لك . وقال القائل :

كن ابن من شئت والتمس أدبا يغنيك محموده عن النسب

ليس يغنى النسيب نسبته بلا عقل يرى ولا أدب

قال أبو بكر . وقد أمرنا الله تعالى فى كتابه بتأديب رعيتنا حيث يقول : يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً(١) .

صفه علامة المؤمن

وصفة وصف النحل فى الطيران

وهى أربعون خصلة ، قوله تعالى : أوحى ربك إلى النحل [أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون] أثبت الله تعالى للنحل بهذه الآية شرفا ، ومهد له فى ملكه بنفسه مسكنا ، وأباح له ما كان حلالا طيبا ، وأحسن الثناء عليه فى صنيعه ، وحث العباد على التفكر فى عجائب

(١) والنية فى تأديب الأولاد : —

١ — أن يكون من دعاء الولد الصالح ما ينفع والديه عند الله ، لأن الولد من الأعمال التى لا تنقطع بموت الوالدين . وولد الانسان من سعيه .

٢ — أن يكون فى الولد الصالح عز للإسلام ، ومنعة الإيمان ، بالقدوة ، أو بنشر العلم ، أو غير ذلك من أنواع البر .

٣ — أن ينوى بتربية الأولاد أن يكونوا صلة لأرحامهم ، وعونا للمحتاجين من الأهل والعشيرة .

٤ — أن يكثر بالولد المسلمين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . فتقوى بذلك شوكة الإسلام .

٥ — أن يكون النسل كله طاهرا مهديا فتقل الآثام بين المسلمين .

أحواله ، وفى المؤمنين من وصفُه وصف النحل فى خلق الله ، وعيشه عيش النحل فى مملكة الله ، وحاله حال النحل مع الله ، والمؤمنون مع كرامتهم عند الله وشرفهم فى خلق الله ، وعزهم فى مملكة الله ، على طبقات متلونات فى معاملة الله[1] ، ومقامات متفاوتات عند الله .

والمؤمنين طرق بعدد نجوم السماء إلى الله ، ومقامات بعدد الأوراق متفاوتات عند الله ، مؤمن كامل ، ومؤمن ناقص ، ومؤمن قوى ، ومؤمن ضعيف ، ومؤمن بشاش هشاش ، ومؤمن منقبض هيوب فى قلوب الناس ، ومؤمن سهل ، ومؤمن مستعصى ، ومؤمن حبيب ، ومؤمن محبوب ، ومؤمن حاصل ، ومؤمن محصول ، ومؤمن مريد ، ومؤمن مراد ، ومؤمن طالب ، ومؤمن مطلوب ، ومؤمن واصل ، ومؤمن موصول ، ومؤمن لين فى الله ، ومؤمن شديد فى الله ، ومؤمن يجد المزيد مع الخلق ، ومؤمن يجد المزيد باعتزال الخلق ، ومؤمن لا يصير مع الخالق إلا فى الوقت[2] ،

---

(١) هذا باب جديد من الدراسة المقارنة :يجب أن تنتبه إليه أفهام الدارسين . فمثلا . نرى البأس مشتركا بين الحديد ، وقوة المؤمنين فى أكثر مواضع القرآن والبأس معنوى والحديد مادى ، ونرى التقوى فى القرآن صورت بالنور وكذلك العلم ، وألهم الله النمل ، والهدهد ، والدابة وتلك مواضع دراسة واسعة نرجو أن نوفق إليها فى القريب العاجل إن شاء الله .

وقد صور القرآن طوائف من غير المؤمنين بصور شتى . فجعل من الكفار قردة وخنازير وجعل عابد الهوى كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وجعل من الإنس شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . وجعل منهم من يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام ، وجعل منهم الصم البكم العمى وإن كان لهم عيون وآذان وألسنة .

(٢) يمكن تمييز كل نوع من هؤلاء من ظاهر الحال . فالأسرة دلائل على السريرة . قال تعالى : سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وقال الرجل الذى رأى النبي صلى الله عليه وسلم : فلما رأيته علمت أنه ليس بوجه كذاب ومعرفة

وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا للمؤمنين فى مقاماتهم ، اثنى عشر مثلا فى أحاديث متفرقة ، كل مثل هو وصف طائفة [من] المؤمنين .

المثل الأول :

روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل المؤمن كمثل النحلة ، أكلت طيبا وصنعت طيبا ، ووقعت على عود فلم تكسره » قال أبو طالب المكى رحمه الله. فهذه صفة المؤمن المطعم غيره الطيب ، المطعم بنفسه ، النافع للأمة المعطى ماله من غير مسألة ، الخفيف المؤنة ، الكاف الأذى عن الجلة ، يحضر فى محضر فلا يضر ، ويظن به الظن الحسن ، ويطمع فيه فيصدق ، ويعرف على هذه الصفة طائفة من المؤمنين .

= الرجل من ثلاثة وجوه : كلامه. وتصرفه . وطبعه . ويمكن التعرف عليها كلها من مغاضبته ، فإن لزم الحق وسامح الخلق فهو مؤمن عارف وإلا فلا .

ويرى الشيخ زروق فى قواعده أن التعرف على أحوال الرجال يستعان عليه بدراسة ما غلب على طباع بلادهم من الحق أو الباطل ، فإن أردت أن تعرف صالح بلد ، فانظر لباطل أهلها . هل هو برىء منه أولا فإن كان بريئا فهو ذاك وإلا فلا عبرة به . وضرب لذلك أمثلة . فقرر فى أهل المغرب الأقصى السخاء وحسن الخلق وكذلك أهل الأندلس . وفى أهل المشرق الغيرة لله وسلامة الصدر . وقد قرر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأصل وضرب له أمثلة فقال فى أهل نجد . الفتنة هاهنا . وقال عن الفرس : لو كان الإيمان بالثريا لأدركه رجال منهم وعن أهل اليمن . أنهم ذوو أفئدة . وعن أهل المدينة ، إلى غير ذلك .

[راجع ٥١ : ٥٢ . القواعد] .

ومعنى المؤمن الكامل فى أصح الآراء هو الذى يؤازر إيمانه بالعمل الصالح دائما ، ومعنى المؤمن الناقص الذى لا نصيب له من الزوائد وشبهوا نقص الإيمان وكماله ، بالشجرة الذابلة فإذا أرواها الماء أينعت . والفرق بين المؤمن الحاصل والمحصول كالفرق بين الفاعل والمفعول . فالحاصل ، حصل الإيمان واكتسبه ، والمحصول سبقت له الحسنى بالإيمان حصوله الله فى قلبه .

المثل الثاني :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ، ومرة هكذا ، والخامة من الزرع هو الرطب الأخضر الناعم . وهذه صفة المؤمن المبتلى المقصود بالمحن والمصائب في الدنيا ، يأتيه البلاء من كل مكان ، فيميل بالجزع والشكوى أحيانا ، ويرجع إلى الاستقامة فيستوى قائما بعد الميل والاعوجاج ، وهو الصابر في البلاء ، [ا] مستسلم للحكم والقضاء ، يجزع ثم يرجع إلى الصبر والتجلد سريعا ، ويشكو في الأحيان ثم يندم ويستغفر ، ويظهر حال ضره وبلائه . في الأوقات للناس ، ثم يستحي من الله ويعتذر ، ومع ذلك لا يزيده الابتلاء إلا قربة إلى الله تعالى ، وعلى هذه الصفة طائفة من المؤمنين

المثل الثالث :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كمثل السنبلة ، تقلبها الريح يمينا وشمالا : وهذه أيضا صفة المبتلى بالمصائب والمحن المقصود بالحسرات والأمراض ، غير أنه أشد مخاطرة من الأول ، وأقرب إلى الدمار والهلاك . لأن الخامة من الزرع مع ميلها يمينا وشمالا بهبوب الريح آمن من الكسر والقطع ، وربما تندس في الوحل عند شدة العصوف ولا تنكسر . والسنبلة على المخاطرة من الكسر ، والمؤمن الفقير يخرج صحيحا سليما من الابتلاء مع أجر وثواب وفضل ، لأنه خفيف من المال صاف لين في الحال ، كالخامة في لينها ولطافتها وخفتها[1] . والمؤمن الغنى ثقيل بالمال ، كدر في الحال ، كالسنبلة في المعنى ، يضر به البلاء مالا يضر [ب] الفقير[2] ، وكلاهما مراد بالخير والأجر ، لأن البلاء هدايا الرب

---

(١) في الأصل الضمير العائد على الخامة ، مذكر في الجملة كلها وهو خطأ .

(٢) من أجود ما كتب إن لم يكن أجوده على الإطلاق في الفرق بين المؤمن المتقلل من المال ، والمستكثر منه . الباب الثاني من كتاب « النصائح الدينية » للحارث ابن أسد المحاسبي ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤١٦ تصوف : والمعركة الفكرية

جل جلاله ، لا ينقده إلا من يحبه ، ويريد صلاحه وصفاه . عن أنس ابن مالك رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل المؤمن مثل السنبلة ، يميل أحيانا ، ويستقيم أحيانا ، ومثل أمتى كمثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره[٣] .

المثل الرابع :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كالنملة . تجمع فى صيفها لشتائها ، وهذه صفة المؤمن . الضعيف اليقين ، الكسوب الجموع خشية الحاجة والجوع ، يؤمن بالرزاق أنه لا يمنعه ما قدر وقسم ، ولكن لا يطمئن قلبه إلا بالحركة فى طلب المضمون ، ولا يتقوى بيقينه إلا بالجراب والكيس[٤] والكرز وهذا الشخص موصوف بحب الدنيا ، وشدة

= فى هذا الباب قديمة ، بدأت بوادرها فى عهد الخليفة الثانى رضى الله عنه ، وظهرت بوضوح فى عهد الخليفة الثالث رضى الله عنه ، وتبدو حدة المعركة من قصة أبى ذر الغفارى ، حينما بلغه أن كعب الأحبار رد على من خافوا على عبد الرحمن بن عوف فيما ترك ، بقوله : كسب طيبا وأنفق طيبا . ولما بلغ ذلك أبا ذر ، خرج مغضبا ، فوجد فى طريقه لحى عظم بعير فأخذه ، وقصد كعبا ليؤدبه ، فهرب كعب إلى دار عثمان ، واختبأ خلفه . ودخل عليه أبو ذر وشتمه ، وروى له حديثا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ينفر فيه من الاستكثار من المال .

(٣) هذا تبشير من النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين فى عصرنا فقد أبهم الخير بين أول الأمة وآخرها .

(٤) قال الله تعالى : إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون . وأكد الله ذلك للإنسان بحرف التوكيد والضمير وبالقسم . وإن واللام . ليطمئن إلى وعد الله وقال قبل ذلك ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فالإنسان شك فى المضمون له من الرزق وسعى فيه بنفسه ، ثم أهمل ما طولب به من العبادة . وعلى أى الحالين فوصف هؤلاء بالمؤمنين =

الشره ، وغلبة الحرص ، وقريب من الشح والبخل ، وعلى هذه الصفة طائفة من المؤمنين .

المثل الخامس :

روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كالفرس في آختيه[١] . يدور ويدور ؛ ثم يرجع إلى آخيته ؛ كذا المؤمن . يسهو ثم يرجع إلى إيمانه ودينه ؛ وهذه صفة المؤمن المتخلط في المعاصي والآثام ؛ والواقع في الشبهات والحرام ؛ بالسهو والغفلة ؛ وغلبة الهوى والشهوة لا بالتعمد والقصد ، المفتون[٢] التواب [صاحب] النفس[٣] اللوامة . تغلبه النفس عند الشهوة ، وتخدعه في[٤] الشهوة . ثم يرجع سريعا إلى الله بالتوبة . وهو الذي لا يصبر عن ملاقاة الناس . ولا يجد الأنس في العزلة عن الناس . يخالط الناس مرة ويعتزل عنهم مرة . إذا كان مع الخلق خلط وأفسد ومزق ، وإذا رجع إلى الحق صفا وأصلح[٥] ورقع . فهذه حالته حتى يأتيه مزيد العناية من ربه ، وعلى هذه الصفة طائفة من المؤمنين .

= خطأ . فشرط الإيمان ألا يجد الإنسان حرجا من قضاء الله وأن يسلم أمره تسليما وهذا النوع لم يسلم أمره لله ، بل وجد الحرج في نفسه من القضاء .

(١) قال ابن السكيت : هو أن يدفن طرفا الحبل في الأرض فيظهر منه مثل العروة تشد إليها الدابة

(٢) في الأصل : المفتن

(٣) في الأصل : والنفس اللوامة

(٤) في الأصل : وتخدعه عند الشهوة .

(٥) إنما يضطرب الصوفي هكذا ، لأن وجهته تختلف عن وجهات غيره من العلماء فقد يتغير قلبه إذا خالط الفقهاء . لأن الفقيه يعتبر ما يسقط الحرج - أما الصوفي فيعتبر ما يحصل به الكمال : وقد يتغير قلبه بمخالطة الأصوليين. لأن غاية الأصولي صحة المعتقد . وغاية الصوفي قوة اليقين .وقد يتغير قلبه بمخالطة المفسرين وأصحاب الحديث . لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى . والصوفي يطلب الإشارة =

المثل السادس :

روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب . وهذه صفة المؤمن العالم . العامل القارىء ، الهادى غيره ؛ المهتدى بنفسه ، الذاكر . هو المذكر للغافلين ؛ الصالح بنفسه المصلح للمفسدين ، فالأترج طيب ريحه . حسن لونه ؛ لذيذ طعمه ، غريب اسمه ، رفيع قيمته ، كذلك هو المؤمن المشبه به فى المثل . طيب ريحه ، يسمع بمناقبه وفضائله من بعيد ، حسنة مشاهدته وسيماه وسماته عند التلاقى من قريب . لذيذ مخبره ومعاشرته ومخالطته ومحادثته لمن وجد إليه الطريق غريب اسمه . لاجتماع الفضائل فيه ولنفسه .

فى الأحوال ، رفيع قيمته ، لأنه رحل لله على الإخلاص والصدق ، وعلى هذه الصفة طائفة من خواص المؤمنين .

المثل السابع :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها . وهذه صفة المؤمن التقى الصالح غير العالم بأمر الله ، ولا المعلم لعباد الله ، ولا الهادى[1] غيره ، ولا النافع سواه ، عالم بربه ، يخافه ويعرفه ، ويرجوه ويحبه ، غير عالم بدينه وأمره وأحكامه ، مستور فى حاله ، متورع فى دينه ، صالح فى نفسه ، لا تعدو منفعته إلى غيره ، وعلى هذه الصفة طائفة من المؤمنين .

= بعد إثبات ما أثبته المفسر والمحدث . أما إذا أخذ الاشارة دون إثبات ما أثبته المفسر والمحدث والفقيه والأصولى فهو باطنى خارج عن الشريعة . ولهؤلاء الباطنيه مسبشعات تدمى لها القلوب فإمامهم يسمى إلها لوله فى حب الله ، ويبيحون التزويج من بناتهم ومن الذكران ويسقطون الأركان ويؤولونها . والجنة عندهم إباحة المرأة [راجع : منشورات اسماعيلية : دمشق : نشر الدكتور عادل العوا . عقائد الباطنية لليمانى: نشر .عزت العطار ـ القاهرة . فضائح الباطنية للإمام الغزالى]

(١) فى الأصل « المهدى غيره »

المثل الثامن :

روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كالجمل الأنف، إذا قيد استقاد ، وإن استنيخ على الصخرة استناخ ، وهذه صفة المؤمن الهين اللين ، السهل القريب ، الجيب المحمر ل المتحمل ، ينخدع ولا يخدع ، فيوافق الإخوان ولا يخالف ، يتبع الحق ويدور معه ، كبيراً كان المتبوع أو صغيراً ، يداري ولا يداهن ، ولا يماري ، ويغتاظ من الأذى والجفا ، ولا يحقد ولا يكافىء ، كاظم الغيظ فى الأشياء ، كاف[1] الأذى لوجود الورع والتقى ، اللذان[2] هما للإنسان كالبرة[3] فى أنف الجمل ، تمنعه عن الحرد ، والإباق[4] والهرب ، كما قيل فى المثل : إن الخوف والتقى لم يتركا لذى غيظ غيظا .

المثل التاسع :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كالنخلة لا ينتثر ورقها ، ولا ينقطع ثمرها . صفة المؤمن القوى المكين ، الكامل الأمين ، ذو القلب الغنى والهيبة [ال] إلهية ، والإخلاص الخضرى ، والبهاء الربانى ، ليس يباهى ولا يلاهى ، ولا يفتر عن الخدمة ، ولا يبخل عن العبادة ، ولا يسأم من الذكر ، ولا يتغير عن الصلاح ، والاستقامة ، توحيده ومعرفته راسخه[5] ومشاهدته شامخة[6] لطيف الخلق والأصل ، عفيف النظر حصيف العقل . وعلى هذه الصفة طائفة من خصوص المؤمنين المقربين الذين هم

---

(١) فى الأصل : كافى الأذى .

(٢) فى الأصل « الذى » .

(٣) حلقة من صفر تجعل فى لحم أنف البعير ، وقال الأصمعى : تجعل فى إحدى جانبى المنخرين .

(٤) الحرر والاباق : الهرب .

(٥) فى الأصل « راسخ » .

(٦) فى الأصل « شامخ » .

فوق أصحاب اليمين ، وهم قليلون عزيزون ، فاضلون ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

المثل العاشر :

روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن من المؤمنين من هو أشد فى الله من الصخرة ، ومنهم من هو ألين فى الله من الحرير ، وهاتان[1] صفتان فاضلتان لشخصين مؤمنين فاضلين ، وحالان محمودان عن مقامين عاليين ، ووصفان صالحان من أوصاف أهل المعرفة والإيقان ، ووصفان جليان من من مناقب التقى والإيمان .

وشاهد هذا من العلم وصحته[2] فى الأصل . كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ألين فى الله من الحرير ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان أشد فى الله من الصخرة . وحسن الشدة والحذر والغضب فى الله ولله عند العلماء والفضلاء . بحسن[3] البر والحلم والسماحة ولكل مقام رجال ، ولكل عمل عمال ، ولكل طريق سلاك ، هم درجات عند الله .

وغضب أبى بكر وشدته فى دين الله يوم الردة كان أشد من غضب عمر وشدته[4] ، وإبراهيم الخليل عليه السلام كان ألين فى الله تعالى من الحرير ،

---

(١) فى الأصل « وهذه » .

(٢) فى الأصل « وصحبته » وهو تحريف

(٣) فى الأصل « بحسن » والمعنى . أن أنه كما يحسن البر والحلم مع الناس ، يحسن الغضب والشدة لله وفى الله .

(٤) كان الصديق يرى أن المسألة لا تخرج عن شيئين إما طاعة ، وإما رد إلى الطاعة بالقوة وكان الفاروق يرى أن هؤلاء ضعفاء الايمان فلا حاجة للمسلمين بهم . ويعلل الأستاذ العقاد هذه المسألة فى « عبقرية الصديق » تعليلا نفسيا . بأن الصديق كان صاحب مزاج عصبى وكان يعتصم بالوقار دائما وكان دقيق البنية نخشى أن يستهين الناس به بمجرد حملة الردة ونجح فى إقناع المرتدين بأن صاحب البنية الدقيقة أو « أبا الفصيل » كما كانوا يطلقون عليه هو أبو الفحول يستطيع ردهم =

وموسى الكليم عليه السلام كان أشد فى الله من الصخرة ، والمؤمن اللين فى الله ذو معرفة مشوبة بالخوف والتعظيم والغيرة ، وكان هرون عليه السلام أحب إلى بنى إسرائيل وأقرب إليهم من موسى عليه السلام ، لرفقه بهم وسماحته معهم ، ولينه لهم ، وحسن عبادته وترجمته للتوراة ، وكان موسى عليه السلام أحب إلى الله وأكرم عليه من هرون ، ذكره أبو بكر النقاش [فى] كتاب شفاء الصدور . المعنى له والعبارة لنا .

ومعرفة مراتب الرجال للمعاشرة شديدة ، لا يعرفها[1] إلا الرجال . ومشاهدة درجاتهم فى المقامات والأحوال عند ذى[2] الجلال أشد وأصعب ، لا يوجد إلا عند السادة الفضال ، والجبابرة الأبدل[3] .

المثل الحادى عشر :

روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل المؤمن كالنعجة ينتشر صوفها ، ويحلب درها ، ويمشش[4] عظمها ، وهذه صفة المؤمن السلامى السخى بماله بعد السؤال ، كالشاة لا ترسل لبنها[5] حتى يجلس تحتها[6] الحالب فيحلب . كذلك المؤمن المتواسع فى حال البر ، الوصول مع إخوانه ،

= ومصادرتهم . وكان الفاروق صاحب بسطة فى الجسم فهو على ثقة من أمره إن تعدى الأمر إلى خروج آخر عن الاسلام .

(١) فى الأصل : شديد لا يعرفه .

(٢) فى الأصل : ذوى الجلال .

(٣) فى تعريفات الجرجانى وتعريفات ابن عربى . أن الأبدال هم رجال يقومون برحلات روحية وجسدية إلى أماكن بعيدة ويتركون جثة شبيهة بهم مكانهم بحيث لا يدرك أحد فى أنهم فى مكانهم لم ينتقلوا منه وقد ألف السيوطى رسالة فى إثبات وجودهم .

(٤) أى يمضغ عظمها والمشاش رءوس العظام اللينة التى يمكن مضغها .

(٥) فى الأصل « لبنه »

(٦) فى الأصل « تحته »

لا يتحرك حتى يُحرك ، ولا يصيح حتى يتعرض ، و [لا] يسعى فى الفساد إذا حرك ، مستغن عن قائد وراع . وحافظ ، ليس مثله كالنحل لا حاجة لها إلى هذه الأسباب من غير جنسها ، ففكر[1] .

يحتمل عن الناس الأذى والضرر ، ويوصل إليهم النفع والخير كالنعجة تأكل الشوك والهشيم ، وتطعم اللبن والزبد والسمن واللحم ، وعلى هذه الصفة طائفة من المؤمنين ، فقدضرب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمثال للمؤمنين،وفى مثله فوائد كثيرة ، ولها معان غير قليلة ، وتحت أمثاله أبحر من العلوم والحكم ، وليس معنى المعنى المضروب للمؤمنين بهذه المخلوقات من المحبوبات مثل النحلة والنملة وغيرهما ، واقع على الخلقة والصورة . والجنس والجوهر[2] ، إنما هو واقع على الصنائع والسيرة ، والعمل والوصف ، ووجود المنافع .

بيـان ثانى عشر :

غير ما ذكرناه . فى تفسير مثل المؤمن المشبه بالنحل . فمثل المؤمن الموقن العارف المخلص فى جنس الناس ،كمثل النحلة فى جنس الطير ، ثم استخراج فوائد التمثيل يحتاج إلى مزيد فهم وفطنة وتذكير ، وقــد تفكرت فى معنى فائدة ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن بالنحلة، وتدبرت خطاب الله عز وجل فى وجه تفضيله النحلة بالوحى إليها من بين أجناس الطير ، وفى ذوات الأجنحة من يضارع النحلة بريح جناحه ، وبأكله بمنقاره ، ولم يوح الله إليهم ، كما أوحى إلى النحل ، فاستنبطت علم الكتاب، وفتشت فوائد الخطاب . واستخرجت منه ما وكله الرب إلى الفهوم والأفكار ، ورده إلى القلوب فأودعه غوامض الأسرار ، حيث قال فى

---

(١) أى إن النحلة تسعى وتصنع العسل من غير دافع لها من الخارج بخلاف النعجة فإنه لابد من دفعها لانزال اللبن . دفعا من الخارج والفرق بين المؤمن الشبيه بالنحلة والشبيه بالنعجة واضح بعد هذا التفسير

(٢) فى الأصل : والجوهرة

أجزاء وصف النحل وذكره إياه بالوحى وما يتعلق به . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .

فحث الرب عباده المخاطبين على التفكر فى حال النحل ، ونبهم على وجود العبر والآيات فيه ، وحرضهم على استخراج فوائد العلم والحكمة منه ، وقد وجدت فى النحل أربعين خصلة محمودة، حسنة ،فاضلة، صالحة،شريفة لطيفة ، وكل ذلك يوجد فى المؤمن ، وهو فائدة ضرب المثل ، ومقتضى أمر الرب بالتفكر ، وأنا أفرد كل خصلة من ذلك على حد الاختصار ، ليكون تذكرة للمؤمن الصبار ، وتبصرة للمحب ذى اللب والاعتبار . وهو من علم القرآن المستودع فى باطن الأمثال ، المردود إلى التفكر والاعتبار ، ولا قوة إلا بالله .

قال : بلغنى عن سفيان الثورى ، أنه قال : لقى رجل راهبا فقال له يا راهب . كيف رأيت دار نشاطك ؟ قال ما أتت على ساعة إلا وأنا فيها مصل وما كنت أحسب أن أحداً يسمع بذكر الجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يصلى فيها ، [قال] فكيف أملك ؟ قال: مارفعت خطوة ، ولا وضعت خطوة ، إلا وأنا أرى أن الموت سيأتى فيما بينهما ، فسأله عن حاله ، فقال : يا راهب . إنى لأسجد فأبكى فى سجودى حتى ينبت العشب والبقل من دموعى . قال له الرهب : إنك إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك ، خير لك من أن تبكى وأنت مدل بعملك[1] ، اعلم أن صلاة المدل لا ترفع ، فاتق الله

(١) إنما جاء هذا الاختلاف فى مشارب الصوفية لتعدد الطرق بما يناسب الميول والفطر والأفهام فمن ثم كان لكل فريق طريق من طرق التصوف فالمحاسبى يناسب عموم الصوفية وابن الحاج يناسب الفقهاء فى مدخله، والمحدثون والحكماء يناسبهم تصوف الشيخ الأكبر والعابدون يناسبهم ما كتبه الامام الغزالى والمرتاضين رسالة القشيرى وللنساك قوت القلوب والاحياء وللمناطقة كتب ابن سبعين وللطبائعيين كتب البونى وأسراره وللأصوليين تحقيقات الامام الشاذلى وللروحانيين كتب سيدى مصطفى البكرى وللعلماء عموما مجالس سيدى عبد القادر الجيلى . رضى الله عنهم .

وازهد فى الدنيا ولا تنافس أهلها فيها . وكن فيها كالنحلة إن أكلت أكلت طيبا ، وإن وضعت وضعت طيبا ، وإن وقعت على عود لم تكسره ، فمن كان مطعمه حلالا ، وكان ذا سخاوة بما أنعم عليه ذو الجلال ، كاف الأذى عن النساء والرجال ، مخلصا لله بالأعمال ، فهو المؤمن المضروب مثله بالنحلة .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : مثل المؤمن فى الناس كمثل النحلة فى الطير . كل أجناس الطير يستضعفها ، ولو علموا مافى بطنها [لبجلوها] . فكذلك يا أخى المؤمن . لو علم الناس مافى بطنه وقلبه وماهية فضله وكيفية مرتبته عند ربه ، للحسوه بألسنتهم وحملوه على أكفهم[1] ومهدوا له فى حجورهم ، واشتروا صحبته[2] بأموالهم وآثروه على نفوسهم ولكن خفى ذلك منه عليهم ، بإخفاء الله . حكمة منه غامضة . وحجة بالغة . ليقضى الله أمرا كان مفعولا . والمؤمن المجتمع فيه ما فى النحلة من لطائف الخصال يكون اسمه آدميا ، ووصفه روحانيا ، وخلقه ربانيا ، وطبعه نورانيا[3] ، وحواسه ملكوتية ، وأنفاسه جلالية ، ومواجيده وإشاراته عربية[4] والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إذا أردت شريف القوم كلهم ... فانظر إلى ملك فى زى مسكين
ذاك الذى كملت فى الناس سؤدده ... فصار يصلح للدنيا وللدين

ذكر تفصيل الخصال المجتمعات فى النحلة الموجود مثلها وشبهها[5] فى المؤمن

الأولى : من ذلك أن جميع أجناس الطير لو اجتمعوا ، فعاون بعضهم

(١) فى الأصل على أكفتهم
(٢) فى الأصل « صحبتهم »
(٣) فى الأصل « آدمى ، روحانى ، ربانى ، نورانى »
(٤) فى الأصل « حواسه ملكوتيا وأنفاسه جلالى ومواجيده وإشارته عربى »
(٥) فى الأصل . الموجودات مثله وشبهه

بعضا على أن يعملوا مثل عمل النحل ، ويهتدوا إلى صنع مثل لطيف صنعه في صنعته ، لم يقدروا عليه . كذلك لو اجتمع جميع الخلائق غير المؤمنين[1] على أن يعملوا عملا يشبه عمل المؤمن في الجودة ، وجلالة القدر والقيمة ، ما قدروا عليه .

الثانية : النحل يخاف من أذى الطير وظلمهم ، وهو كاف الأذى عنهم ، كذلك المؤمن . يصل إليه أذى الخلائق ولا يصل أذاه إلى الخلق .

الثالثة : النحل يستصغره جميع الطير ويحتقره ، ولو علموا ما في جوفه ، وذاقوا طعم ما معه لأكرموه وبجلوه[2] ، وكذلك المؤمن من الناس ، يستصغره الجاهل ، ويحتقره السفلة والرذال ، ويذمه الأنذال ، ولو علموا ما في قلبه من حسن ودائع الرب وعجائب الغيب ، لصاروا ترابا تحت قدمه وحملوه على الرءوس .

الرابعة : كل أجناس الطير يعيشون لأنفسهم ، ويسعون في طلب الأشياء لشهوتهم ومرادهم ، والنحل يعيش لصاحبه ، ويسعى أبدا في حاجة مالكه ، كذلك المؤمن كل الناس يتحركون في الأسباب باختيارهم ولراحة نفوسهم . غير المؤمن فإنه يعيش في الدنيا لله تعالى . ويريد حياته لطاعته ، ويسعى في الأسباب لحظ غيره . ولحق أوجبه عليه حكم ربه .

الخامسة : جميع الطير إذا جن عليهم الليل يبيتون[3] في أوكارهم ، وتستريحون بالنوم في أعشاشهم . ويسكتون عن السعي والحركة لمعاشهم ، غير النحل . فإنها تعمل بالليل أكثر مما تعمل بالنهار . كذلك حال المؤمن من أجناس الناس ، إذا جن عليهم الليل احتشوا في البيت ، واضطجعوا على فرش الغفلة . غير المؤمن [فإنه] ينصب قدميه . ويقوم في محرابه بين يدي مولاه . يناجيه في فكاك رقبته . ويشكو إليه بلواه .

---

(١) في الأصل . « المؤمن »

(٢) في الأصل « يكرموه ويجلبوه »

(٣) في الأصل « إلى »

السادسة : حرم الله تعالى قتل النحل[١] وأذاه . وأحل منفعته وأجلّ قبله . والنافع من غير النحل . كذلك مثل المؤمن . حرم الله تعالى قتله وعرضه وماله وأهله . وأحل للمستحقين منفعته . ومن ليس بمؤمن أحل [الله فيه] الأمرين .

السابعة : عمل النحل يكون فى السر والخلوة ، وإنما يظهر للناظرين وقت الفراغ ؛ كذلك المؤمن ؛ يخفى عمله بالإخلاص عن جميع الناس ، وإنما يظهر ذلك للناظرين فى عرصة القيامة .

الثامنة : النحل [يأخذ] ما يحتاج إليه[٢] من عين الشيء ، ولا يضر بالأصل . ولا يؤثر فيه بالنقص ، كذلك المؤمن ، يأخذ كفايته من مرافق دنياه ؛ وقوام نفسه ، وصلاح دينه وقلبه ، ويتزود منها زاد آخرته ، ولا يضر بالأصل ، ولا يفسد فى المملكة ولا يسرف .

التاسعة : النحل لا يتحرك ولا يخرج من بيته ولا يسعى فى حاجته فى يوم غيم وظلمة ومطر وريح ، ورعد وبرق ووحل . بل يلزم مكانه حتى يصحو يومه ، كذلك المؤمن كيس وقاف . إذ كثر الظلم ، وفشا الحرام ، وأعل[ت] المناكر ، وظهرت الفتن ، ووقع الهرج والمرج فى الناس . ولا يكثر التصرف فى طلب المعاش ، بل يلزم بيته ، ويحفظ لسانه ويده ، ويخفى مكانه ، ويقبل على شأنه ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، لأنه من كونه[٣] .

العاشرة :[٤] النحل يتنزه ويتنظف عن التلطخ بالأنجاس ، والتلوث بالأقذار ، وكذلك المؤمن يتورع عن الحرام والمعاصى ، وكل قبيح وفاحش وخبيث .

---

(١) فى الأصل النحلة .
(٢) فى الأصل « إليها »
(٣) أى لأن المؤمن من كون الله الذى تجرى عليه أحكامه ولاراد لقضائه فيه .
(٤) فى الأصل « العاشر »

الحادية عشرة :[1] للنحل عشرة أنواع من الآفة . فيهن هلاكها ، وفساد حالها ، وانقطاعها عن عملها . الدخان . والبرد . والحر . والغيم . والنار . والماء . والريح . والظلمة . والوحل . والغوغاء من الجنس والعدو والخارجي .

كذلك المؤمن ، له عشر آفات . فيهن خراب قلبه ، وفساد دينه ، وفتوره عن عمله ، دخان القسوة والغفلة . وبرودة الإصرار والبعد . وحرارة الهوى . وغيم الشك . ونيران الشرك . وطوفان حب الدنيا . وطامة الجهل . ورياح البلاء والفتن . ونتن الحرام . ووحل الفساد والظلم والمنكر . ونوع غوغاء من مثله وعلى اسمه [وهو] المبتدع والمنافق . وخارجي من ضده وهو الكافر . نعوذ بالله من هذه الآفات .

الثانية عشرة : النحل لا يختلط ولا يجتمع مع من ليس من جنسه ، وإن كان يبعض الأوصاف يشبهه . كذلك المؤمن لا يخالط ولا يعاشر ولا يألف من ليس له من أهله ، وإن وافقه بالاسم والرسم على المجاز .

الثالثة عشرة : النحل يخرج من بطونها شراب مختلف الألوان ، [في] كل لون منه منفعة غريبة[2] ، كذلك المؤمن الفاضل ، يخرج من قلبه أشربة مختلفة الألوان ، متفاوتة المنافع . فيجري ذلك على لسانه ، مثل العلم والحكمة ، والوجد والإشارة ، والفراسة . والشوق ، والمحبة والصدق والنصيحة . ونحو ذلك .

الرابعة عشرة : النحل يضع الحدث من دبره ، وما كان من العسل يتقيأ من فمه ، كذلك المؤمن يخرج شهادة التوحيد ، وغرائب العلم ، وتلاوة القرآن والذكر والطيب [من القول] والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، من فمه على لسانه ، وما كان من القاذورات والأحداث يخرج من دبره وقبله .

(١) في الأصل « الحادي عشر »

(٢) راجع [تذكرة داود حرف النون]

الخامسة عشرة : النحل يأكل الطيب ويضع الطيب . ويطعم غيره الشهى [1] الطيب . كذلك المؤمن طعمته طيب [ة] وعلمه طيب .

السادسة عشرة : النحل إذا وقعت على عود وشجرة لم تكسره ، وإذا حملت حاجتها [2] من المالم تكدره ، وإذا أخذ كفيلته من الورد لم يفسده ، كذلك المؤمن . يعامل الناس فى الأشياء بالنصفة والعدل ، والشفقة والنصيحة ، يخالط ليعلم فلا يؤلم ولا يظلم ، ويعتزل ويفارق ليسلم .

السابعة عشرة : من عادى النحل وعرض [3] له بالمكروه ، وأكثر الحركة والجلبة [4] واللجاجة معه لسعته وأوجعته ، ومن سالمه ولزم الثبوت ، لم يتعرض له ، كذلك المؤمن . طبعه وخلقه وسيرته . من أخفى المنكر عنه ، وكتم النفاق دونه ، وستر قبائح الأعمال عن رؤيته ، لم يتجسس أثره ، ولم يطلب عثراته ، ومن أظهر ذلك أنكر عليه باللسان ، وتناوله باليد .

الثامنة عشرة : النحل تراه أبدا يدور حول رياض الزهر ، ويجول فى مروج الرياحين ، وعلى شطوط الأنهار ، وعلى أبواب دكاكين الحلوانيين ، وذلك وقت فتوره . كذلك المؤمن تراه أبدا يدور حول مجالس العلم والذكر ، وعلى أبواب العلماء والحكماء والعارفين المتفردين المتزهدين

التاسعة عشرة : النحل إذا هجم على روضة زهر [5] وورد وريحان ، لم ينقطع عن الاختلاف إليها والنقل [6] عنها ، حتى يفنى الشىء أو يتلف [7] هو فى طلبه .

---

(١) فى الأصل « الشى »

(٢) فى الأصل « حاجته »

(٣) فى الأصل « ويعرض »

(٤) فى الأصل : الجبلة

(٥) فى الأصل « زهرة »

(٦) فى الأصل « والعقل » والتصحيح على الهامش

(٧) فى الأصل : ويتلف

كذلك المؤمن إذا تنسم روح نسيم القرب من ربه، أو وجد حكيما صادقا، وعالما ناصحا ينصحه فى دينه ، أو عارفا روحانيا يخبره عن ربه ، أو فتح له باب عمل صالح ، دام عليه وثبت ، حتى يحول الموت بينه وبين ذلك ، «وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا».

العشرون : النحل إذا كان زمان الربيع والصيف ، نقل [زاده] من الخارج إلى الداخل ، وعمر بيته ، وإذا أقبل الشتاء ، وتغير الهواء ، دخل البيت فعكف فيه ، وأقبل على إصلاح مرمات عمله ، كذلك المؤمن . يدور فى الربيع والصيف فى طلب قوته ، وكفاية عياله ، مما لا بد منه ، فإذا أقبل الشتاء . جلس مجالس الذكر والعلم ، ولزم ركب العلماء والحكماء ، وعكف فى المساجد ، وأقبل على العبادة ، ونظر فى حاله ، وسوى مرمات عمله .

الحادية والعشرون : النحل يأكل من كد يده ، ويطعم غيره من كسبه ، ولا يتعرض لشىء غيره ، ولا يمد عينيه إلى ما ليس له ، كذلك المؤمن [يأكل] من كد يده ، ويواسى غيره ، ولا يلح فى المسألة إذا احتاج .

الثانية والعشرون : النحل إذا لم يكن فى بيته شىء يأكله : لم يدخل بيت بنى جنسه فيأكل شيئهم ، ولكن إن وضع بين يديه فى بيته من ذلك الشىء أكل . وإلا فلا . كذلك المؤمن . لا يدخل بيوت الناس عند الضرورة والحاجة للطعمة[1] ، ولا يأكل شىء الناس بالكره والغلبة ، ولكن إن وضع بين يديه شىء بلا تعرض ولا تكلف منه أخذ . وإلا فلا .

الثالثة والعشرون : النحل لا يعمل بالرأى والهوى والاستحسان ، بل يقتدى بإمامه ، ويتبع أمر اليعسوب ، ولا يخرج عن طاعته . كذلك المؤمن . لا يعمل بالرأى والاستحسان والهوى ، ولكن يقتدى بأئمة الدين ، وعلماء المتقين .

الرابعة والعشرون : النحل لا يتمكن فى عمله حتى يسد على نفسه باب

(١) فى الأصل « مع حال الطعمة »

البيت ، فإن بقيت كوة أو خرق لم يسده فرغ منه[1] ، ثم يفرغ [ل] لعمل بعده كذلك المؤمن لا يجد حلاوة الطاعة ،ولا نشاط العمل، إلا فى الخلوة ، حيث لا يراه أحد غير الله ، أو شخص من أهله ، وإظهار العمل للأهل فى الحضر وللرفيق فى السفر لا يخرج من الإخلاص .

الخامسة والعشرون : النحل لا حاجة لها فى شىء من[2] الدنيا إلا فى شيئين : الماء والورد والزهر والرياحين . كذلك المؤمن لا حاجة له فى شىء مما فى الدنيا إلا فى شيئين : العلم النافع . وذكر الله والعمل الصالح . معهما شغله ، وعليهما قبالته ، ومنافسته ، وعندهما موته

السادسة والعشرون : النحل رسم جسمه صغير ، ومنظر شخصه حقير ، وعمله فى الوزن ثقيل ، وفى القدر والقيمة جليل ، وفى اللذة والحلاوة أطيب شىء . كذلك المؤمن فى المنظر حقير وفى رسم الجسم صغير ، وفى القدر والقيمة والعمل جليل .

السابعة والعشرون : للنحل ثلاث حالات : حال طيران بالجناح ، وحال حركة وعمل بالبدن ، وحال استراحة وسكون ، كذلك المؤمن . له ثلاثة أحوال : حال طيران بالقلب ، والهم فى برارى الملكوت والغيب ، والتدبر فى معانى العلوم . وحال عبادة وخدمة عملا بالجوارح ، وذكراً باللسان . وحال سكون عن الحالتين ، ويفرغ [فيه] إلى ما أباح الله تعالى له من الأكل والشرب وملاعبة الأهل .

الثامنة والعشرون : النحل يقاتل من تعرض لمتاعه . أين كان ، ويدفع يد من مد يده إلى تناول رأس ماله من الشهد والعسل ، فلا يسلم ذلك[3] لأحد طوعا ، إلا إذا كان بالقهر والغلبة . كذلك المؤمن يبذل نفسه

(١) أى : فرغ من إحكام سده قبل العمل .
(٢) فى الأصل « فى الدنيا »
(٣) فى الأصل « لذلك »

وماله ، ويحرز دينه وعمله ، ويحمى ذويه ، ويقاتل عليهم[1] .

التاسعة والعشرون : جميع الطير ينجس[2] بموته ، والشىء الذى يموت فيه ينجس به ، والنحل طاهر فى حال حياته ، وبعد مماته ، كذلك المؤمن . طاهر لاينجس فى كلتا الحالتين .

الثلاثون : هو أن ألذ الشهوات فى الدنيا ، وأحلى الحلاوات ، هو مايخرج من النحل . كذلك المؤمن . يخرج منه أحلى الحلاوات ، وألذ الشهوات . معرفة الله تعالى . والإيمان الخالص ، والعلم النافع ، والمحبة الصافية ، فليس فى المملكتين أطيب منه .

الحادية والثلاثون : النحل يصرعه الريح العاصف فيطرحه فى الماء والوحل ، وبين الشوك وعلى الأرض ، فيتخلص ويقوم ، فإذا طرحها فى النار ووسط الدخان هلك ، ولم ينج . كذلك المؤمن . يصرعه الحكم والقضاء ، فيطرحه فى الذنوب والمعاصى ، حتى ينجو منه ، ويعفو الله عنه ، فإذا وقع فى الكفر والبدعة هلك ، ولم يرج صلاحه .

الثانية والثلاثون : كل الطير يصطاد بالحبوب ، وتنصب له الفخاخ والشروك ، فيقع فيها . والنحل لا يصطاد بشىء من ذلك ، إنما يصطاد بما يخرج منه وهو العسل ، فيموت عليه . كذلك المؤمن . لا يصطاد بحطام الدنيا ، إنما يصطاد بالله عزوجل . أو بما لله من الحق والعلم والحكمة .

الثالثة والثلاثون : للنحل[3] رئيس ما دام بينهم لا يظفر بهم العدو ، ولا يطمع فى فساد مالهم وتخريب بيتهم الغوغاء ، فإذا مات أو خرج معيوبا هلكوا . كذلك المؤمنون . ما دام العلماء والأمراء بين ظهرانيهم ، لا يظفر بهم العدو ، ولا يظفر بهم الشيطان ، فإذا لم يبق من هؤلاء بقية هلكوا .

---

(١) فى الأصل « عليه »

(٢) فى الأصل « ينجسه »

(٣) فى الأصل « النحل »

الرابعة والثلاثون : إذا خرج رئيس النحل معيوبا . أفسد النحل عمله ، فخرب العمل بفساد العامل بيته ، وإذا كان الرئيس[1] مستقيما صلح[ت] أمورهم . كذلك المؤمنون . إذا كان أمراؤهم ، عادلين ، وعلماؤهم متقين ، وتجـــارهم صادقين ، وصناعهم ناصحين ، صلح [ت] أمورهم وإلا فهم الهالكون[2] .

الخامسة والثلاثون : بيت النحل عامر مع وقوع النفس والمرض والفساد فى النحل ، إذا كان الرئيس صالحا ، كذلك يهلك العام بفساد الخاص ، ولا يهلك العام بفسادهم مع صلاح الخاص[3] .

السادسة والثلاثون : النحل صنفان : صنف فى الجبال والأشجار ، وصنف فى العمران والأكوار ، فما كان منهم فى الجبال والأشجار ، [فـ]هم محفوظون عن التلوث بالشبهات ، والوقوع فى الهلكات ، وما كان فى الأكوار وتحت أيدى المخلوقين فى العمران ، لا يؤمنون من الهلاك . كذلك المؤمن صنفان : صنف مستورون فى الأسواق والعمران ، وصنف زاهدون منقطعون فى الجبال والكهوف ، جالسون فى الخلوات ، فمن كان منهم فى العمران مختلطون بالناس ، لا ينجو [ن] من الفتنة ، والوقوع فى الحرام والشبهة ، والصنف الآخر آمنون سالمون طاهرون .

السابعة والثلاثون : النحل يطرح فى بيت خال من المتاع ، فارغ من المنافع ، ليس فيه ما يتعيش به ، فلا يوحشه ذلك ، بل يسكن ويستقر .

---

(١) فى الأصل « الرهن »

(٢) إنما يهلك المؤمن بفساد التجار والصناع والعلماء والأمراء لفساد الضمائر وشيوع الخداع فتضطرب الأحوال فيتغير باطن المؤمن وربما أهلكه تغير باطنه أو لنزول المقت من الله على الجميع « اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

(٣) لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ولأن الخـــواص الصالحين يوالون الأمة بالنصح والإرشاد ، ولأن الله لا ينزل مقته إلا بعد قبض الصالحين.

كذلك المؤمن . لا يوحشه حال الفقر والغنى ، والإفلاس ، لما قد خص[ه] الله به من زيادات اليقين ، ووجود حلاوة الأنس برب الناس .

الثامنة والثلاثون : النحل إذا أخذ وحبس فى [أى] موضع أسكنته انقاد واستقر فيه ، كذلك المؤمن مجيب . إلى أى موضع أسكنته ودعوته أجابه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمن كمثل الماء إلى أى أرض سقته انساق ، ما لم يكن هناك نهى أو نقص فى الدين .

التاسعة والثلاثون : النحل طبعه فى الشتاء لا [يحب] غلبة حرارة ولا برودة ، ولكن بين ذلك . لأنه إذا كان موضعه حارا يؤذيه ويفسده، وإذا كان[ت] غلبة البرد كذلك يهلك ، وكذلك المؤمن . بين الخوف والرجاء . غلبة الرجاء تفسد عليه أمر دينه وغلبة الخوف تقنطه[1] من رحمة ربه[2] .

الأربعون : النحل يخاف من أحد شيئين سموم الصيف ، وزمهرير الشتاء . كذلك المؤمن . بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا ما يدرى الله ما صانع به ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاصد فيه .

وقال ذو النون المصرى رحمة الله عليه . إن العارف لا يلزم حالة واحدة وإنما يلزم ربه فى الحالات كلها . وقال بشر الحافى رحمه الله : يأتى على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمق على الأكياس . وقال : النظر إلى الأحمق سخنة عين[3] والنظر إلى البخيل يقسى القلب . وقال : لا تكون

---

(١) فى الأصل « فتقنطه »

(٢) فى الأصل : لا غلبة الرجاء تفسد عليه أمر دينه ، ولا غلبة الخوف تقطنه من رحمة ربه . وهو ظاهر الخطأ من جهة المقارنة بين هذه الحالة وحالة النحل فى الصيف والشتاء . ومن جهة الواقع . فغلبة الرجاء تفسد الدين وغلبة الخوف تقنط من الرحمة ولذلك قالوا يجب أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه

(٣) على هامش الأصل « عكس قرة العين ، وسخنت عينه ، فهو سخين العين ، وأسخن الله عينه أبكاه .

كاملا حتى يأمنك عدوك. وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك.
قال : ورأيت بشر الحافي يوما باردا وأنا أرتعد من البرد، فنظر إلى وقال :

أطوى الليالى مع الأيام فى رنق[1] والنوم تحت رواق[2] الهم والقلق
قالوا رضيت بذى قلب القنوع غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورق
رضيت بالله فى عسرى وفى يسرى ولست أسأل إلا واضح الطرق

[أقوال فى المحبة]

وقيل المحبة على ثلاثة . محبة العام ، ومحبة الخاص ، ومحبة خاص الخاص فمحبة العام محو القلب عن حب المعصية ، ومحبة الخاص محو القلب عن حب الدنيا ، ومحبة خاص الخاص فى سر السر مع حقائق الإيقان . محبة العام فى ترك الكبائر ، ومحبة الخاص فى التوبة من الكبائر والصغائر ، ومحبة خاص الخاص فى التوبة من الخواطر[3] ، وعلامة المحبة أن تحب حبيب حبيبك ، وتبغض عدوه[4] ، كما قال الله تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله .

وروى أن أبا عبد الله اشترى جارية فلما دخل داره قال : قومى وافرشى الثياب . قالت : ماذا تصنع يا مولاى ؟ قال : أنام . قالت : ألك مولى ؟ قال : نعم . قالت : وينام مولاك ؟ قال : لا . قالت : أما تستحى أن تنام ومولاك لا ينام ؟ وكانت حبيبة العدوية تقول :

عجبا للمحب كيف ينام كل نوم على المحب حرام

(١) على هامش الأصل « الماء الرنق الكدر ، ورنقته كدرته »

(٢) الرواق ستر يمد دون السقف .

(٣) التوبة من الخواطر ألا يلقى المحب لها بالا بل يزهد فيها ولا يرويها إلا لتعليم وتربية . ولا عقوبة على الخاطر الأول إذا كان شيطانيا . وإنما يحاسب العارفون على الخواطر لأنهم حققوا ودققوا . ومن دق دقق عليه .

(٤) ولذلك وجه الله تعالى خطابه للمؤمنين قائلا : لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . وقال : قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى

وسئل يحيى بن معاذ . ما علامة المحب ؟ قال : إذا عُرف فر ، وإذا أوذى صبر ، وإذا ابتلى سرى سير الدهر[1] ، عروس القبر ، شريف الحشر.

لأبى سعيد الخراز :

لا تُخدعن فللمحب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه[2] بمُـرّ بلائه وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة[3] والفقر إكـرام وبر عاجل

وسئل أبو سليمان الدارانى عن علامة المحب . فقال : أن يكون فارا من الناس كالوحوش[4] . واسمه فى قلبه منقوش[5] وهو بين يدى الله تعالى كالهائم المدهوش قال وهب بن منبه : مكتوب فى التوراة . يابن آدم حيث طلبتنى وجدتنى . وأجدك حيث لا أحب ، فلا تظن أنى غافل . وما سترتك فبرحمتى . يابن آدم لو أحببتنى وحق عليك ما عصيتنى ، وهل رأيت حبيبا يعصى حبيبه ؟ !! .

عن شقيق البلخى قال خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام فلما توسطت البادية ، رأيت غلاما وهو يمشى على التأنى والتؤدة . قال : فدنوت منه . وسلمت عليه . فرد على السلام وأطرق مليا فقلت له : حبيبى . امش مشيا جيدا لعلك تبلغ سريعا ، قال : فالتفت إلى وقال : يا سبحان الله ما أكثر تكلفك . على المشى وعليه البلاغ ، قال : فتركته ومضيت فلما بلغت مكة ، رأيت شخصا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول :

---

(١) السرى السير بالليل، والدهر يسير سيرا رتيبا لا اختلال فيه ولا اضطراب فكذلك المحب عند البلاء يسير فى حياته اليومية كما كان دون اختلال .

(٢) فى الأصل « بنعمته »

(٣) يرى الصوفية أن المنع عين العطاء . فما منع الله السالك من زينة الدنيا إلا ليعطيه الأحوال والمقامات والعلوم .

(٤) فى الأصل: الوحش. والتصحيح رعاية لذوق الصوفية فى التزام اللحن اللفظى

(٥) أى : اسمه « المحب » منقوش فى قلبه لا يعلن عنه .

رب مكحول بملمول[1] الأرق   قلبه وقف بنيران الحرق
عند مولاه يصافى وده   لم يفرقه عن الناس فرق
إن تفكر جمل الفكر له   وبه يفتح فاه إن نطق
قال طال اشتياقى فمتى   آن للعاشق يلقى من عشق

فدنوت منه فإذا هو الغلام الذى تركته فى البادية. قلت له: مه يا غلام عن هذا الكلام، فى مثل هذا المقام. فقال: يا شقيق. جئت بفضول البادية إلى ههنا دعنى وصاحبي. وأنشأ يقول:

أهيم به حتى الممات بحبه   وحولى من الشوق المبرح خندق
وفوق سحاب ممطر الشوق والهوى
وتحتى بحور للهوى[2] تتدفق
فكم مجلس قد عشت فيه بذكره   فما قمت حتى كدت بالدمع أغرق

وروى أن يحيى المرصلى [كان] يشتهى أن يرى الشبلى بعد موته فى المنام، وصلى ركعتين، ووضع جبهته على الأرض، وقال ثلاث مرات: يا قديم الإحسان، يا دائم المعروف، يا لا إله إلا أنت، بحق هذه الأسماء [إلا] أريتنى الشبلى فى المنام. فأخذه النوم. فرآه فى النوم، وقال له: يا شبلى. ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى، فقال: بماذا؟ فقال: بوعظى[3] للناس، وذكرهم [لا إله] إلا الله ونعماه. قلت أى شيء رأيت منه؟ قال: رأيت روحا وريحانا، وربا غير غضبان، قلت: ما تصنع الساعة؟ قال وضع لى كرسى فى السماء الرابعة وقيل لى: يا شبلى. ما وصفت الدنيا إلا بأنها شجرة الشر، بلاؤها منتشر، أهلكت أكثر البشر، عاقبتها ندامة المحشر، أصلها جهالة، أغصانها غفلة، أوراقها وسوسة، طلعها حميم، ظلها يحموم.

---

(١) الملمول: الميل الذى يتكحل به.
(٢) فى الأصل «بحور الهوى» وهو مخل بالوزن.
(٣) فى الأصل «لوعظى»

اسمها قلة ، تكنى أم لا شىء[1] . فقلت له : هل سألت الله فى دار الدنيا حاجة؟ فقال: ثلاث حاجات فقضانى واحدة. فلا أدرى هل يقضى الباقى أم لا: سألته أن يقبض روحى بنفسه . وسألته إن كنت من أهل الجنة أن يعطينى الثواب بنفسه ولا يخلينى إلى خازن الجنة . وإن كنت من أهل النار فيعذبنى بنفسه ولا يخلينى إلى[2] مالك خازن النار . فلا أدرى ماذا يصنع معى . قلت له عظنى. فقال: احفظ الله يحفظك ، واذكر الله يذكرك ، وتقرب إلى الله يقربك ، قلت له : انصرف . هل لك حاجة ؟ فقال .

أبشر أحبائى أن الموت سلوتهم والموت راحتهم[3] والموت تقريب
الله يدعو إلى دار السلام رضا الله يدعـو إلى بر وتحبيب
ما تصنعون بدار غير باقية ما تصنعون بدار فيه تعذيب

قال : وكان يوما . عند الشبلى جماعة من الفقراء ، فأصابتهم فاقة وشدة ، فكتب إلى وزير الخليفة : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : وجه إلينا من دنياك شيئا ، فكتب الوزير على ظهر الرقعة ، يا شبلى : سل دنياك من مولاك . فكتب[4] إليه الشبلى . إنما الدنيا [شىء] دنىّ وأنت دنى ولا يسأل الدنىّ إلا من دنىّ ، الدنيا هذه ، ولك منها عبرة ، فمن يريد العبرة ، فهو أقل من العبرة . فوجه إليه عشرة آلاف درهم .

وقال : سئل بعض الحكماء . من أين معاشك ؟ قال : من عند من أضيق على من يشاء من غير قلة[5] ، ووسع على من يشاء من غير علة ، وقال من دة[ق] النظر فى دينه ، طبق عليه الصراط فى وقته[6] ومن غاب عن

---

(١) فى الأصل « يكنى أبو لا شىء »
(٢) فى الأصل « على »
(٣) فى الأصل « والموت سلوتهم »
(٤) فى الأصل « وكتب »
(٥) فى الأصل « من غير علة »
(٦) أى كان سيره هذا نموذجا للسير على الصراط يوم الحشر .

حقوقه بحقوقه [١] ، غاب عن كل شدة وعقوبة .

لطاهر المقدسى :

وكذبت طرفى فيك والطرف صادق وأسمعت أذنى منك ما ليس يسمع
ولا أسكن الأرض التى يسكنونها لكيلا يقولوا [٢] إننى بك مولع
فلا كبدى يهدا ولا لك رحمة ولا عنك إقصاد ولا فيك مطمع

أقوال متفـــــرقة

وقال أبو عمر : مقام الخطرات، بعيد من مقام الوطنات، لأن الخطرات تلمع ثم تخفى ، والوطفات تبدو وتثبت [٣] ، ثم تحقق : والدعاوى تتولد من الخطرات ، فإن المدعى يظن أن ما لاح ثبت ، ولا دعوى لصاحب الوطنات بحال [٤]

وقال الطريق واضح ، والدليل عالم ، والزاد تام ، والمركب قوى ؛ ولكن [ما] منع القوم من الوصول ، إلا [٥] الاستدلال بغير الدليل [٦] ،

---

(١) الضمير فى حقوقه الأولى يعود على «من» وفى الثانية يعود على الله جل جلاله

(٢) فى الأصل «يقولون» . وأمامها على هامش الأصل كلمة «تمر»

(٣) فى الأصل «وأثبت»

(٤) الوطنات خطرات ثابتة . أما أن الدعاوى تتولد من الخطرات فذلك ناشىء من خطأ فى ميزان الخطرات الصادقة والخطرات الزائفة . فالخطرات الصادقة لا موعد لها ، ولا مكان . وتعقبها برودة فى البدن . ويكون موضوعها العلم، وبعض المريدين ، يحاولون استنزال الخطرات فى أوقات خاصة حسب هواهم فيمدهم الشيطان بخطرات تصلح للدعوى ، تعظم من شأنهم وتقنعهم بأنهم الواصلون . وقد ذكر بعض هؤلاء عند بعض أئمة الصوفية على أنهم واصلون فقال : نعم . وصلوا . ولكن إلى سقر .

(٥) فى الأصل «إلى»

(٦) أى الاقتداء بغير القدوة من علماء الطريق . من جهال المتصدرين المشيخة

والركض فى الطريق على حد الشهوة ، وأخذ الزاد من غير وجه ، وإضعاف المركب لقلة تعهده .

وقال : اليقين ثمرة التوحيد ، فمن صفا بالتوحيد صفا له اليقين .

وقال : التوحيد اعتقاد القلب بوحدانية الواحد ، وإبعاد السر بفردانية الفرد الصمد ، والتسليم ظاهراً وباطناً تحت الأحكام ، لمن لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وقال عجبت لجاحد كيف يجحد خالقه :

وفى كل شىء وله آيه   تدل على أنه الواحد

= وهم كثيرون فى عصرنا هذا، ولقد علمت أن أحد هؤلاء الجهال نصح مريداً له ادعى الذهول من شدة الواردات . بتعاطى المخدرات ، ورأيت رجلا من هؤلاء يسفه الأئمة والمفسرين ، ورجال الحديث ، والحديث نفسه . وشهدت مضابط الشرطة فرقة من هؤلاء ، يرتكبون المنكرات الفاحشة ، بحجة أنها من شعائر الطريق ، ولا يطعن وجود هؤلاء فى أصل المذهب ، كما لا يطعن فساد بعض علماء الشريعة ، فى أصل الشريعة .

وعلامة المرشد الصالح للإرشاد ألا يكون متهالكا على اجتذاب المريدين ، وأن يكون عالما مشهوداً له بالصلاح من الثقات ، وألا يتخذ الطريق تجارة ، وأن يتغير حال المريد على يديه إلى الأفضل ، وأن يكون قليل الكلام ، وألا يكون مشغوفاً بالتصدر للإمامة والتدريس . وألا يكون متحدثاً بأسرار الطريق وحقائق المشاهدة ، وأن يكون بجلسه شفاء للأجسام والأرواح والنفوس ، وأن يكون بالروح مع مريده على البعد والقرب ، وممن رأيت من هؤلاء الأعلام فى العصر الحديث . سيدنا ومولانا العارف الأكبر سيدى عبد الخالق الشبراوى قدس الله سره ووارث الطريق من بعده إمام العارفين سيدى الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الخالق الشبراوى . رضى الله عنه وأطال حياته والعارف النقشبندى الكبير سيدى سلامة العزامى ، والعارف الشاذلى الشيخ طه الشعبينى . فهؤلاء هم الذى شهد لهم سلوكهم بصحة حالهم .

وقال : أفقر الفقراء ، من ستر عنه الحق حقيقة حقه ، لأن الرضا والسخط ، نعتان من نعوت الحق ، يجريان عن الأزل ، فما جرى فى الأزل يظهر عن الحدث ، بشواهد الإقبال والإدبار ، وأين تنفع الألوان ، ولأكام المقصورة ، والأبدان المشعوبة [1] ؟ !! .

وقال : من يكن الله همته لم تستقطعه الأقدار ، ولا تملكه الأخطار .

وقال : قيمة كل إنسان همته ، فمن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، ومن كانت همته رضى الله ، فلا يمكن أحد أن يستدرك غاية قيمته .

وقال : القدرة ظاهرة ، والأعين مفتوحة ، ولكن أنوار الأبصار قد ضعفت [2] .

وقال : مادام لأعراض الأكوان فى قلبك خطر ، فلا يكون لك عند الله أثر [3] .

---

(١) معنى العبارة . أن أعظم الفقراء إلى الله السالكين طريقه ، هو من يستر عنه المولى حقيقة حقه ، لأن نعوت الحق من السخط والرضا وإن كانت أزلية ، إلا أنها تظهر على الحدث ، وعلامة ظهور الرضا إقبال العبد على ربه ، وعلامة ظهور السخط ، إدبار العبد عن ربه وهذه الألوان لا تنفع فى بدن متعوب وهمة ناقصة لأن الناظر حينئذ ، ينظر من قريب فيرى البلاء بلاء ، ولا يراه فى عين الحق عطاء ورضا وستر الله تعالى حقيقة حقه عن الفقير العظيم ، لا يكون بعدم إجراء نعوته عليه ، ولكن بستر لذة الرضا ، وألم السخط بل يستوى عنده الرضا والسخط . بل يجد فى السخط لذة الاستسلام لمحبوبه . ولذة المعرفة وهى لذة ، من ذاتها نعم بالبلاء . وهنا أمر لابد من التنبيه عليه ، وهو أن مشاهد اللذة فى البلاء والسخط تقف عند هذا الحد ، ولا يجوز له أن يتمنى السخط والمرض .

(٢) أنوار الأبصار . المراد بها أنوار البصائر : قال تعالى « وتراهم ينظرون إليك ، وهم لا يبصرون » لأنهم كانوا يرون بأعينهم محمد بن عبد الله . ولا يرون ببصائرهم محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويغلب أن تكون هذه الأقوال لمحشاد ينورى فقد روى بعضها عنه فى الطبقات الكبرى للشعرانى .

(٣) لأن الله حقر الدنيا ، والمحب لله لابد أن يحقر ما حقره ويعظم ما عظمه . وما دام قد عكس الأمر فليس له أثر عند الله .

وروى عمن حضر موت «خير النساج» رضى الله عنه، قال: لما حضرت صلاة المغرب، غشى عليه، ثم فتح عينيه. وأومأ إلى ناحية باب البيت وقال: قف عافاك الله. فأنت عبد مأمور، وأنا عبد مأمور، ما أمرت به لا يفوتك، وما أمرت به يفوتنى، فدعنى أمضى فيما أمرت به، ثم امض لما أمرت به، فدعا بماء، وتوضأ للصلاة[1]، ثم تمدد، وأغمض عينيه، وتشهد ومات، رحمه الله. وأنشدوا فى ذلك.

يقولون ثكلى ومن لم يذق فـراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفرا ق شرابا أمر من الحنظل

قال: فأخبرنى بعضهم: أنه رآى «خير النساج[2]» فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: لا تسألنى عن هذا. ولكن استرحت من دنياكم الوضرة[3]

---

(١) الوضوء أصل عظيم، من أصول تحويل النفس إلى روح، أو عزل النفس عن الروح، ثم سيطرة الروح عليها ولذلك، شرع الوضوء، وكان من السنن، أن يكون الإنسان على طهارة دائمة، ما أمكن، وفى سر ذلك يرى أستاذى العارف الأكبر: سيدى الأستاذ الشيخ مصطفى عبدالخالق الشبراوى، أن الوضوء يفعل فى باطن الإنسان، فعل المغناطيس فى الحديد. فكما أن الحديد تترتب جزيئاته بفعل المغناطيس، فكذلك باطن الإنسان تترتب جزيئاته النفسية وحدها والروحية وحدها، فتنعزل الروح عن النفس، وتتم لها السيطرة عليها، ويصير للمجموع الإنسانى، الذى يدوم على ذلك مجالا جاذبا، كالمجال المغناطيسى تماما وهذا المجال الجاذب الإنسانى، إذ اقترن بمداومة التوجه الكلى لله، كان جذبه للأسرار والمعارف من حضرة الغيب، وإلا كان جذبه لماثله من جنس الانسان

(٢) فى الأصل «فأخبرنى بعض خير النساج أنه رآى فى المنام».

(٣) الوضر الدون والدسم يقال وضرت القصعة توضرا ووضرا إذا دسمت. والوضر ما يشمه الإنسان من ريح يجده فى طعام فاسد (على هامش الأصل)

قال وسئل الحسين[1] بن عبد الله رضى الله عنه ، عن أصول الدين، فقال: إثبات صدق الافتقار إلى الله ، وحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وقال : أبو يزيد البسطامى ، رحمه الله إن لله خواصا من عباده ، هبت عليهم رياح العناية، فتجردت همتهم، وتوحدت أسرارهم، فهم بالوحدانية مطالبون ، وبتجريد التوحيد مرادون ، توحشهم الأزواح ، وتكدرهم ولائج الأغيار ، ويؤنسهم الواحد الجبار ، لا يحتملو غنج مخلوق ، ويؤلمهم مسقط الذباب لما فى أسرارهم من غليان التوحيد ، لا يخافون إلا من واحد ولا يعملون إلا لواحد ، ولا يشيرون إلا إلى واحد ، فهم وحش الله فى أرضه ، وغرباؤه من بين جميع خلقه، لا قرار لهم ولا فرار ، وأنشد فى ذلك:

---

(١) فى الاصل « عن الحسين » .

(٢) فى شئون الدنيا والآخرة . ولقد غلط بعض علماء الشريعة فى تفسير حديث تأبير النخل ، حيث أمرهم الرسول بعدم تلقيح النخل حين رآهم قائلا : لو تركتموها لصلحت . فتركوها ففسد التمر . وهنا قال علماء الشريعة . إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن له دراية كاملة بأمور الدنيا لدوام توجهه إلى ربه ، وسحب علماء الشريعة نفس الحكم على رجال التصوف ، ولو فقهوا راى الرسول لو جدوه الحق ولا حق غيره لأن جميع الأشجار والنباتات تترك كما هى . ذكورها وسط إناثها . فتلقحها الرياح اللواقح دون أى تدخل من الزارع . أما فى النخل فقد تعود زارعوه أن يقتلعوا ذكوره ، ويدعون منها واحدا يأخذون منه الطلع لتلقيح النخل . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم . لو تركتموها على أصل وجودها دون أن تقتلعوا ذكورها لصلحت بفعل الرياح . وهذا غاية العلم بشئون الدنيا كما كان فى ذروة العلم بالله صلى الله عليه وسلم . قال بعض المحققين إن النبى صلى الله عليه وسلم كان أشد الناس صعودا كما كان أشد الناس نزولا أى فى العلوم العلوية، =

ووحشى الطبيعة مستهام تفور[1] القلب تأباه الديار
خيالى التألف ذو[2] انفراد غريب الله مأواه القفار

وقال : من أراد أن يذكر الواحد فلينس[3] ما دون الواحد ، حتى يكون ذاكرا للواحد ، وإن كنت تحب الواحد ، فابغض ما دون الواحد ، حتى تحصل لك محبة الواحد . كما قال جعفر بن محمد الصادق. الموحد من طالعه الحقُ بنور التوحيد ، [و] هو ألا يكون للمخلوقين فى قلبه خطر .

وقال : من طلب مطالعة التوحيد . قبل خمود البشرية هلك فى الهالكين. وكذلك من طلب حقيقة التوحيد ، قبل الإشراف على الأسرار يهلك .

وقال : توحيد الله فى المعرفة ألا تعرف معه غيره ، فتوحيده بالرجوع إليه فى كل مالك وعليك ، فلا تسأل أحدا غيره ، ولا تشك إلى سواه ، ولا تحب غير إياه[4] ، وتعلم أن أوصاف الحق مباينة لأوصاف خلقه ،

= والدنيوية، هكذا سمعت من حضرة أستاذى العارف الأكبر سيدى الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الخالق الشبراوى رضى الله عنه وأطال عمره .

(١) فى الأصل « يغور » . وقد كرر هذا القول مع بعض الأقوال من هذا الباب فى الكتاب .

(٢) فى الأصل « ذى انفراد » .

(٣) فى الأصل « فانس » ، وكيف ينسى مادون الواحد وهو يعيش بين مظاهر الكون ، وفى قوانين الأسباب . يقول الإمام أحمد العربى الدرقاوى فى كتابه « شور الهدية » مخطوط . نسخة خاصة . إسقاط الأسباب اختلال ، ونسبة الأعمال إليها زندقة ، والنظر إليها من أصل العين تحقيق . وعلى هذا يكون نسيان ما دون الواحد ، أن ينظر إلى الأكوان على أنها ناشئة من أسباب ظاهرة اقتضتها حكمة الواحد ، ويتدرج الناظر إلى سبب السبب حتى يدرك الأعيان كلها فائضة من الواحد . فهنا يتحقق لك نسيان غير الواحد . أما الاطمئنان إلى الأسباب بقطع النظر عن موجدها فهو جهل فاضح فضلا عن كونه زندقة .

(٤) يقول الشيخ « الدرقاوى » فى المصدر السابق ، إذا كانت لك حاجة فأنزلها بمولاك ، قبل أن تنزلها بالمخلوق . تجد الخير الكثير . ولا تحاول أن تسأل مخلوقا لأنك حينئذ تكون قد أغلقت باب الاضطرار بيديك ، وهو باب عظيم =

باينهم بصفاته قديما ، كما باينوه بصفاتهم حديثا ، فهذا هو التوحيد ، وماسواه فهو تلحيد لا توحيد .

كما جاء عن جعفر بن محمد الصادق أنه أمر بضرب غلام له ، فى جناية ، فلما مد للضرب ، قال الغلام : تضرب من ليس شفيع غيرك ؟ فأين كرمك وإحسانك ؟ فخلى عنه ، فقال الغلام : ما أنت خليتنى ، لكن خلى عنى من أجرى الكلمة على لسانى ، فقال جعفر : موحد ورب الكعبة ، لا يرى مع الله غير الله . وقيل التوحيد هو أن تفتقد نفسك بوجود ربك ، ثم تغيب عن وجودك بفناء رؤية وجودك ، فيبقى الرب كما كان ، قبل كونك ، وترجع أنت إلى ما كنت ، قبل كونك ، ثم قال : حجبوا بالاسم فعاشوا ، ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا ، ولو كشف لهم [١] عن الحقيقة [٢] لماتوا . وأنشد فى ذلك :

= من أبواب القرب إلى الله يقوم لك مقام الاسم الأعظم . وهذا أصل عظيم من أصول الشاذلية لأن سلوكهم نزولى كما أوضحنا فى تعليق آخر .

(١) فى الأصل : عليهم .

(٢) فى هذا القول للحسين الحلاج وأمثاله نزوع نحو مذهب وحدة الوجود ، ويعتقد بعض الدارسين أن وحدة الوجود عند الصوفية هى وحدة الوجود عند الصوفية هى وحدة الوجود عند الفلاسفة ، والواقع غير ذلك . فوحدة الوجود عند الصوفية . عبارة عن وحدة الأسماء والصفات الإلهية . فمثلا وحدة الخلق . يفهمونها هكذا . كل ما فى الكون خلق الله ، فهو مظهر صفة الخلق ومجلاها الذى نستطيع أن نفهم صفة الخلق بها ، من حيث التدبر والتأمل ، ونتدرج منها إلى أن نستشرف على عين صفة الخلق ذوقا وشهودا وإحساسا ، لا اتحادا وحلولا ، وصفة الوجود الحق لله فحسب ، أما الموجودات الكونية ، فوجودها مستعار من وجود الحق ، وكل ما كان وجوده مستعارا فليس وجوده أصيلا فهو موجود ولا موجود . موجود وجودا مستعارا ، وليس موجودا لأن الموجود الحق الذى يستمد وجوده من ذاته هو الله فقط . ثم تتجمع الأسماء والصفات الإلهية كلها فى

فقلت لأصحابى هو الشمس ضوؤها قريب ولكن فى تناولها بعد

وقال أيضا :

ولى ألف باب قد عرفت مكانه ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

فهذا يكفى لمن له فهم وفطنة ، فى معانى ما أشرت إليه ، من علم التوحيد وصحة التوحيد ، لأن علامة المعرفة بالعارف ، ترك الطلب لما قد غاب[١] عنه ، وما غاب عنه شىء ، فليس بعارف .

وقال أبو يزيد : المعرفة أولها هو ، وأوسطها هو ، وآخرها هو[٢] ، وقال بعضهم : العارف ينظر بالله ، والمؤمن ينظر بنور الله ، والمؤمن قلب فى وليس للعارف قلب[٣] وأنشدنى ذلك :

= الاسم الجامع وهو « الله » . فصار الوجود الكونى راجعا إلى الأسماء والصفات وصارت الاسماء والصفات راجعة إلى الاسم الجامع ، والاسم الجامع مغيب فى غيب الذات التى لا يدركها مدرك على وجه الكون كله . ولاضرر مطلقا فى اعتقاد هذا المذهب بأى حال .

أما وحدة الوجود عند الفلاسفة ، فيقول فيها (أفلوطين) إن الموجود المطلق لا يمكن بأى حال أن يعيش وحده ولذلك يفيض من ذاته موجودات أخرى ، وتقول الفلسفة المسيحية ، إن التضحيه هى التى جعلت الموجود المطلة يتعدد ، وغير ذلك من الترهات العجيبة . فهل رأيت الفارق بين النظرين ؟ ! وحدة الوجود عند الفلاسفة تخضع لمداركهم العقلية ، ووحدة الوجود لدى الصوفية تخضع لمشاهدهم الذوقية فى الواحد المطلق . بل المطلق عن الإطلاق ، لأنهم يرون فى كلمة « المطلق » قيدا لا يجوز وصف المطلق به .

(١) يرى بعض الفلاسفة العقليين وجوب الخوض بالعقل فى كل شىء حتى المغيب عن درك العقل فخرجوا بأفكار مضحكة ، ومذهب الصوفية أسلم ، لقصور العقل عن فهم كثير من الأشياء المتصلة بالإنسان ، فكيف بالمغيب البعيه .

(٢) فى الأصل : الضمير فى الفقرة كلها . المؤنث الغائب .

يقولون لى قلب، فها أنا قتشوا فإن كان لى قلب فما أنا صادق

وقيل : من سكن إلى غير الله فهو من قلة معرفته بالله . وقيل : إن العارف يقبل [عليك] بوجهه كأنه لم يعرف غيرك . فيقوم عنك كأنه لم يعرفك قط[1] . وقال : أدنى ما يجب على العارف . أن يهب لمولاه[2] ما ملكه مولاه . حتى يصير كله لمولاه . فيحصل له مولاه[3] . فإذا حصل له مولاه . فكأنه عاد إليه كل الكل بالكلية . ويصير به غنيا . وإليه فقيرا .

وجاء فى الخبر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال من : قال فى سواد الليل لا إله إلا الله محمد رسول الله خرج من ذنونه كيوم ولدته أمه[4] .

---

(١) لأن العارف ابن الوقت ، ويسلك مع الأنفاس ، فهو إن أقبل على أحد من الناس ، فإنما يقبل عليه باعتبارين : الأول أن هذا الشخص ، أثر من آثار الصفات الإلهية والأسماء الربانية ، فهو يشهد تلك الأسماء والصفات ، فى كل حركة وتصرف وكلمة تصدر من هذا الإنسان ، فهو من هذه الناحية فى تأمل ، وذكر خفى ، وترق فى المقامات . الثانى : اعتبار التعليم والتربية والإرشاد . وكلا الاعتبارين سلوك إلى الله . فإذا قام من المجلس ، وصل مشاعره فى الحال بالمشاهد العلوية التى لا تنتهى ، فلا يعرف من كان معه ، ولا من أمامه .

(٢) فى الأصل : لولاه .

(٣) إنما تخلى الله تعالى عن السالكين إليه خاصة ، وعن الناس عامة ، لاستقلالهم بأنفسهم ، حسا ومعنى ، وحينئذ ينسيهم الله حقائق أنفسهم ، فيمنعون فى الاستقلال بأنفسهم ، وبما ملكت أنفسهم ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . والسلوك الحق : أن ينظر المرء فى نفسه وما ملكت ، فيجد أن نفسه وحياته . مستعارة من الله تعالى ، وأن ماله وولده ، وما حوله . إنما هو هبة الله للإنسان فإذا تحقق بذلك معنى وحسا ، وعينا ، ألقى بنفسه بين يدى مولاه . ووهب لمولاه . ما ملك مولاه . فيحقق فقر الإنسان إلى ربه . وحينئذ يكون غنيا به . ويكفيه ما أهمه .

(٤) على هامش الأصل « مطلب تبشير المؤمنين »وليس المراد من الخبر =

وروى جعفر : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : يارسول الله علمني من غرائب العلم قال : وما فعلت في رأس العلم ؟ قال : وما رأس العلم قال : عرفت الرب ؟ قال : نعم . قال : فما فعلت ؟ في حقه ؟ قال : ماشاء الله . قال : عرفت الموت ؟ قال : نعم . قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله . قال : قم . فاحكم ما ههنا ، ثم ائتني ، أعلمك من غرائب العلم .

وقال الحسن بن محمد القلانسي ، رحمه الله : من أراد الله في عباده المؤمنين ـ بعد إذ هداهم للإيمان ، وشرح صدورهم للإسلام ـ استخلص أعمالهم ، واستصفى قلوبهم [و] هممهم ، في معاملتهم إياه (١) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم . فمن كان له قلب صالح تحنن (٢) الله عليه .

وقال . علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : من كان ظاهره أرجح من باطنه (٣) ، خفت موازينه يوم القيامة . ومن كان باطنه أرجح . من ظاهره ثقلت موازينه يوم القيامة .

مجرد قول لا إله إلا الله ... الخ . باللسان . بل المراد التحقق والتخلق . فإذا فهمت معنى : لا إله إلا الله : وأنه المعبود ، وإليه ترجع الأمور ، وأن الذل له عز ، وليس في البشر من يستحق اللجوء إليه . ثم طبقت هذه المعاني على حياتك وحركاتك ، فقد تحققت بذلك وتخلقت . وإذا قلت : محمد رسول الله . وفهمت أنه مرجعك في كل ما شجر بينك وبين غيرك أو شجر بينك وبين نفسك . تنزل على حكمه ، ولا تجد الحرج في صدرك من حكمه . كنت متحققا بذلك ومتخلقا . وحق لك دخول الجنة حقا .

(١) أي من أراد الله بعمله في المؤمنين ، علمهم الإخلاص في العمل ، وصفاء القلب والهمة ، في معاملة الله .

(٢) تحنن عليه : ترحم عليه .

(٣) رجحان الظاهر على الباطن ، أن يكون العمل في ظاهره متقنا ، ولكن التوجه الباطني لله غير متقن ، أو غير موجود . ورجحان الباطن معناه . صحة التوجه إلى الله في الأعمال ، مع قلتها .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن لله أوانيا فى الأرض ، وأحبها إليه مارق وصفا وصلب . أصفاها من الذنوب ، وأصلبها فى الدين ، وأرقها على الإخوان .

وروى ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان هذا[1] وصفه . قالت عائشة : يكون معنا فى البيت كأحدكم ، فإذا سمع الأذان ، قام مسرعا ، كأنه لم يعرفنا .

وسئل الشبلى ، عن العارف ، فقال : لسانه بذكر الله ناطق ، وقلبه بمحبة الله صادق ، وسره بوعود الله واثق ، فهو أبدا على الله عاشق . ثم قال : لسانه لطيف ، ونفسه عفيف ، ودينه كثيف ، وهو يعرف أن مولاه شريف ، وأنشدوا :

يا حسن عبد أحب مولاه   وحسن قلب يصيد معناه
طوبى لمن كان عاشقا دنفا   يشكو إلى ذى الجلال بلواه
يا ذا المعالى عليك معتمدى   طوبى لمن كنت أنت مغناه

وقال : العارف قلبه سليم ، وفؤاده سقيم[2] ، ونفسه كظيم ، وبلاؤه عظيم[3] ، لأن معاملته مع رب كريم .

---

(١) فى الأصل : هذه .

(٢) القلب السليم هو الذى لا يحمل الحقد والغل لأحد ، بل يرحم الكل ، والفؤاد السقيم ، هو باطن القلب الحائر فى المعرفة فلا يهنأ ، ولا يهدأ . ظاهر ساكن ، وباطن مائج .

(٣) أعظم البلاء يكون لأقرب الناس إلى الله ، وليس بعد الخوف بلاء . وكان أحد المريدين قد عرض حالا من الخوف الشديد على حضرة المرشد الأكبر العارف الجليل سيدى الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الخالق الشبراوى ، فرد عليه قائلا : هل تخاف من رئيس الدولة ياولدى ، وأنت فى بيتك أو فى المسجد ؟ قال : لا . قال : فتى تخاف منه ؟ قال : إن كنت فى حاشيته اشتد خوفى منه . قال : أبشر . فالخوف من دلائل القرب .

وقال : نفسه مذلل ، وقلبه مدلل ، وروحه منحل[1] ، وجسمه مسبل

وقال الجنيد : رأيت سبعين عارفا ، قد هلكوا بالتمنى والتوهم ، يعنى أنهم ما عرفوا الله وهو قوله « إن يتبعون إلا الظن . وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

وقال يحي بن معاذ : جسم معيوب ، وقلب معيوب ، وخلق معيوب ، ودار معيوب ، أفتطالبنى أن أخرج من بين هؤلاء المعيوبين عملا لا عيب فيه ؟ وعزتك لا أقدر على ذلك إلا بعونك . فأعنى[2] .

وقال أبو طالب : أفضل ما نوى العبد فى عمله ألا يريد بعمله . إلا وجه الله وحده . وقال يونس بن عبيد : خلق الله القلوب . معدنا لذكره . فجعلتموها[3] معدنا لشهواتكم . والشهوات لا يخرجها من القلوب . إلا خوف مزعج . أو شوق مقلق .

وقال ذو النون . رحمه الله بينما أنا أسير فى جبال أنطاكية . فإذا أنا بجارية . كأنها مجنونة . وعليها جبة صوف . فسلمت عليها . فردت على السلام . ثم قالت : ألست ذا النون المصرى ؟ فقلت : عافاك الله . كيف عرفتنى ؟ قالت : الحبيب بينى وبينك . فعرفتك باتصال معرفة الحبيب . ثم قالت : أسألك عن مسألة قلت : سلينى . قالت : أى شىء عندك . من السخاء فى الدين ؟ قلت : المسارعة إلى طاعة الله . قالت : أتحب منه الجزاء ؟ قلت : نعم . للواحد عشرا . قالت : مر يا بطال . هذا فى الدين قبيح . ولكن المسارعة إلى طاعة المولى . أن تطلع على قلبك . وأنت لا تريد[4] منه شيئا . ويحك يا ذا النون إنى أريد أن أقسم عليه فى طلب

= والبلاء يزيد العارف علما بربه ، لأنه يزيده فقرا إليه .

(١) الروح المنحل ، هو الهائم فى عالم المعرفة ، لا قرار له ، ولا مقام .

(٢) هذه حقيقة الفقر إلى الله ، وحقيقة المعرفة به ، لأن القائل رضى الله عنه عرف نفسه ، فعرف ربه .

(٣) فى الأصل : فجعلتموه .

(٤) فى الأصل لا يريد .

شهوة . منذ عشرين سنة فاستحي منه ، مخافة أن أكون كالأجير السوء . إذا عمل طلب الأجر ، ولكن اعمل تعظيما لهيبته[1] ، وعز جلاله . ثم ولت وتركتنى .

ويقال:أن أبا عثمان الزاهد . قال : استقبلنى يوما فى بعض سكك الكوفة . ثلاثة[2] مجانين أحدها . عليان المجنون . والثانى حيان . المجنون . والثالث بهلول المجنون . فسلمت عليهم ، فردوا على السلام . قلت : أين تريدون ؟ فقال : نسيح فى الأرض ؛ على عزم التوكل . وصحة اليقين . والانقطاع إليه ، ثم أقبل على عليان المجنون . وكان أكبرهم سنا . فقال لى : أنت أبو عثمان الزاهد الذى يزعم أهل الكوفة أ[لك] أكثرهم صلاة ؟ قلت : كذا يقولون . فقال : لقد أطعموك[3] بصلاتك . ثم قال : تحسن أن تسمع ؟ قلت : نعم . فأنشأ يقول :

فما دعانى الهوى لمعصية ... إلا نهانى الحياء والكرم
ولا إلى محرم دعت بدنى ... ولا سعت بى لريبة قدمى

ثم أقبل على بهلول ، وأنشأ يقول :

إن طرفى ومقلتى ولسانى ... وضميرى عن الخناء عفيف

---

(١) العارف الحق ، لا يطلب لنفسه شيئا ، ولا لولده ، ولا لأهل بيته . فإن دعا لنفسه أو لولده ، عوقب بالرجوع إلى مرتبة المريدين ، وحرم من قرب المعرفة ، وقد شاهدت أستاذى الحبيب سيدى الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الخالق الشبراوى ، وأولاده مرضى ، ولا يدعو لهم بالشفاء ، وإنما يدع المريدين من أحبائه يدعون لهم ، ورأيته رضى الله عنه ، فى المرض الشديد ، وما يطلب من الله الشفاء ألبتة ، وتلك سمة المعرفة الحقة .

(٢) فى الأصل : ثلاث مجانين .

(٣) أى . أعطوك أجرك بمدح صلاتك .

فقلت : ما لثالثكم لا يتكلم . قال : سله ، عن الكلام . فقلت له : حبيبي قل ، كما قال أصحابك ، فقال : إنى مشغول ، وقلبي متفكر ، قلت : بماذا ؟ فقال : وهل فى قلوب العارفين شغل[1] غير الله ؟ ثم أنشأ يقول :

يا ذا الذى أنس الفؤاد بذكره أنت الذى ما إن سواك أريد

وفى مثل ذلك يقول :

خسيس الحال فى الدنيا نحيل الجسم مصرور
عليه الحزن مكتئبا وبالفاقة مسرور
كساه عليه طمراه عليه البر منشور
فلا يعرفه الخلق فهو فى العرش مشهور
كذا من كان صديقا له فى قلبه نور

وقال سرى السقطى : احذر أن يكون ذلك ثناء مشهور ، وعيب مستور

وقال بعض السلف : من أراد أن يصل إلى روح التوحيد ، فعليه بثلاث خصال . ترك الكلام[2] ، وتلق الأحكام ، وقلة الطعام[3] ، فحرام على

---

(١) فى الأصل : بشغل .

(٢) الصمت من أمهات الطريق ، وهو نوعان : صمت باللسان ، عن الحديث لغير الله ، مع غير الله جملة ، واحدة ، وصمت بالقلب ، عن خاطر يخطر له فى النفس ، فى كون من الأكوان ألبتة ، فمن صمت لسانه ، ولم يصمت قلبه ، خف وزره ، ومن صمت لسانه وقلبه ، ظهر له سره ، وتجلى له ربه ، ومن صمت قلبه ، ولم يصمت لسانه فهو ناطق بلسان الحكمة ، ومن لم يصمت بقلبه ولا بلسانه ، كان مملكة للشيطان ، مسخرة له ، فصمت اللسان ، من منازل العامة ، وأرباب السلوك ، وصمت القلب من صفات المقربين أهل المشاهدات ، وحال صمت السالكين ، السلامة من الآفات وحال صمت المقربين ، مخاطبة التأنيس . فمن التزم الصمت فى جميع الاحوال كلها ، لم يبق له حديث إلا مع ربه ، فإن الصمت على الإنسان محال فى نفسه ، فإذا انتقل من الحديث مع الأغيار إلى الحديث مع ربه ، كان نجيا مقربا مؤيدا فى نطقه . إذا نطق ، نطق بالصواب ، لأنه ينطق عن ربه ، فالنطق بالصواب ، نتيجة الصمت =

قلب أن يلج فى الملكوت ، وهو يجد لذة الشراب . والطعام .

= عن الخطأ ، والكلام مع غير الله تعالى،خطأ من كل وجه ، ولغير الله،سوء من كل وجه . قال تعالى « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . [حلية الأبدال للشيخ الاكبر . سيدى محي الدين بن عربى نسخة خاصة . بمكتبة العارف الأكبر سيدى عبد الخالق الشبراوى] .

(١) الجوع جوعان : جوع اختيارى ، وهو جوع السالكين . وجوع اضطرارى وهو جوع المحققين ، فإن المحقق لا يجوع نفسه ولكن قد يقلل أكله ، إن كان فى مقام الأنس ، فإن كان فى مقام الهيبة ، كثر أكله ، وكثرة الأكل للمحققين ، دليل على صحة سطوات أنوار الحقيقة على قلوبهم ، بحال العظمة ، من شهودهم ، وقلة الأكل لهم ، دليل على صحة المحادثة بحال المؤانسة من مشهودهم ، وكثرة الأكل للسالكين ، دليل على بعدهم من الله تعالى ، وطردهم عن بابه ، واستيلاء النفس الشهوانية البهيمية بسلطانها عليهم ، وقلة الأكل لهم ، دليل على نفحات الجود الإلهى على قلوبهم ، فشغلهم ذلك عن تدبير جسومهم . والجوع بكل حال ووجه ، سبب داع للسالك والمحقق ، إلى نيل عظيم الأحوال للسالكين ، والأسرار للمحققين ، ما لم يفرط الجائع ، فإنه إذا أفرط ، أدى إلى الهوس ، وذهاب العقل ، وفساد المزاج . فلا سبيل للسالك أن يجوع الجوع المطلوب ، لنيل الأحوال ، إلا عن أمر شيخ . فأما وحده فلا سبيل . ولكن يتعين على السالك إذا كان وحده التقليل من الطعام ، واستدامة الصيام ، ولزوم أكلة واحدة بين الليل والنهار ، وأن يغب من الادم الدسم ، فلا يتأدم فى الجمعة سوى مرتين ، إن أراد أن ينتفع ، حتى يجد شيخا ، فإذا وجده سلم أمره إليه وشيخه يدبر حاله وأمره ، إذ الشيخ أعرف بمصالحه منه

وحال الجوع الخشوع والخضوع والمسكنة ، والذلة والافتقار ؛ وعدم الفضول وسكون الجوارح ، وعدم الخواطر الرديئة . هذا حال الجوع للسالكين ، وأما حاله فى المحققين ، فالرقة والصفاء والمؤانسة ، وذهاب الكون ، والتنزل عن أوصاف البشرية بالعزة الإلهية ، والسلطان الربانى . ومقامه . المقام الصمدانى وهو مقام عال ، له أسرار وتجليات وأحوال . [المصدر السابق . راجع أيضا . مواقع النجوم للشيخ الأكبر . عضو المغلب .]

قال وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام، ياداود. أخبر أهل الأرض عني أني حبيب لمن أحبني ، وجليس من جالسني ، ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب من صحبني، ومطيع لمن أطاعني ، ومختار لمن اختارني . فارفضوا ياأهل الدنيا ما أنتم فيه من غرورها ، وهلموا إلى كرامته ومصاحبته ومحادثته ، وأنسوا بي آنس بكم، وأسارع إلى محبتكم فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي ويحي بن زكريا نجي ، ومحمد بن عبد الله صفي لاأعرف حبي في قلب عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قتلته لنفسي وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلق . ذلك بأني أجود ما أجد أقول للأمر كن فيكون وأنشدوا للحسين بن منصور الحلاج :

أنت بين الشغاف والقلب تجري ... فيَّ مجرى الدموع من أجفاني

وتحل الضمير جوف فؤادي ... كحلول الأرواح في الأبدان

ليس من ساكن تحرك إلا ... أنت حركته خفي المكان

وقال الحسين : إن الأنبياء سلطوا على الأحوال فملكوها ، فهم يصرفونها ، لا الأحوال تصرفهم[1] ، وغير الأنبياء ، سلط عليهم الأحوال تصرفهم لا هم يصرفون الأحوال .

وقال فضيل بن عياض : يكون في آخر الزمان ، أقوام يكونون إخوان العلانية ، أعداء السريرة [من] أظهر الود بلسانه، وأخفى[2] العداوة والبغضاء .

وقال ذو النون : كان لي صديق فقير فمات ، فرأيته في النوم ، فقلت له:

---

(١) في الأصل : يصرفهم .

(٢) في الأصل : وأظهر العداوة .

ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لى الرب : قد غفرت لك بترددك إلى هؤلاء السفلة ، أبناء الدنيا ، فى رغيف قبل أن يعطوك[1] .

وقال أبو العباس ، عن ذى النون ، يقول : يا معشر المريدين من أراد منكم الطريق إلى الله فليلق العلماء[2] بالجهل ، والزهاد بالرغبة ، وأهل المعرفة بالصمت . وقال ذو النون : العارف كل يوم أخشع ، لأنه كل ساعة أقرب .

تم الكتاب بحمد الله ، ومنه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ، محمد وآله وصحبه .

---

(١) فى الأصل : أن يعطونك .
(٢) فى الأصل : العلم .

الكتاب ومؤلفه

شك بعض الدارسين من المعاصرين فى نسبة كتاب « علم القلوب » إلى أبى طالب المكى ، وأبدوا بعض الملاحظات قبيل تقديمه للمطبعة ، وهذه الملاحظات على مافيها من دقة يشكر عليها الذين أبدوها ، فإنها لم تدخل فى حسابنا . لأنا نؤمن إيمانا قاطعا بأن المواهب البشرية لا تقف عند حد من الحدود التى رسمت حديثا ، ولا تسير فى طريق واحد ، وليست من مسائل المادة التى يشق لها درب واحد ، فإنها إن كانت كذلك فهى قواعد علم لا تسبح فى أجواء الفن . أما التصوف فهو فى مرحلة العلم يسمى « بعلم السلوك » وفى مرحلة الفن يسمى « المنازلات » ويرقى فى مدارج الفن فيكون « ذوق الحقائق » وكاتب السلوك عالم ، يحصى الآداب ويسردها ، ويحدد معالم الطريق ، من جوع وسهر ، وعزلة وصمت ، وذكر وأوراد ، ودرس علم وأدعية ، وقوانين يجب التزامها مع الشيخ ومع الإخوان ، إلى غير ذلك ، ولهذا اللون منهج واحد لايحيد عنه كاتب ، ولا يختلف فيه مؤلف عن مؤلف إلا بمقدار مايحمل من ذوق العرض ووجوه الإغراء بالمذهب . فإذا ما طبق الإنسان هذه القوانين على نفسه ، وأخذ بها حياته ، عاد ما كان علما واستحال إلى فن تطبيقى له منهجه الحر الذى لا تقيده قيود . ومن هنا فلا مجال لصحة القول بأن الكتاب يختلف منهجه عن منهج قوت القلوب ، مما يشكك فى نسبته إلى أبى طالب المكى .

وإذا جاز لنا أن نشك فى إنتاج باحث من الباحثين إذا تغير منهجه فى البحث تبعا لطبيعة الموضوع الذى يتحدث عنه ، أو تبعا لطبيعة ذوقه الذى يتلون بتلون المشاهد التى تتوارد عليه . إذا جاز لنا ذلك فإننا نشك حتما فى مقطوعة موسيقية مدونة على الأوراق ، إذا سمعناها معزوفة على

الآلات ، للاختلاف المنهجي ، ونشك في نسبة كتاب النصائح ، وكتاب اللوائح ، وكتاب حلية الأبدال ، وكتاب الخلوة ، للشيخ الأكبر سيدى محي الدين بن عربى ، لاختلاف منهجه فيها عن منهجه فى كتاب الفتوحات المكية ، وكتاب الفتوحات المدنية ، كتاب عقلة المستوفز ، مثلا . وهو مالم يقل به أحد على الإطلاق .

إن أبا طالب المكى كما تروى عنه المراجع ، كان صاحب مجاهدات فى أول أمره . وفى آخر أمره كان صاحب مشاهدات ومكاشفات ، وكلا المنهجين يختلف كل منهما عن الآخر ، فلا عجب أن كتب قوت القلوب على منهج ، وعلم القلوب على منهج آخر ، والخلاف بين القوت والعلم ، واضح وضوح الفرق بين الطعام على المائدة . وهو نفسه إذا استحال إلى دم يجرى فى العروق وهو نفسه إذا استحال إلى خلايا وطاقة فعالة ، تفعل المعجزات .

إن الحقائق الصوفية ، مشاهدات ذوقية يحسها السالك ، يستكشفها من خلال روحه هو ، ولا يقلد فيها سواه وهى مارواها المكى عن أعلام التصوف فى « علم القلوب » أما السلوك الصوفى ، فهو ما كتبه المكى فى كتابه « قوت القلوب » .

وقيل كذلك إن المكى تعرض للحكمة فى « علم القلوب » وهو موضوع لا يتفق مع ثقافته ، ولا مشربه الخاص . والحكمة التى تحدث عنها المكى فى علم القلوب هى تفسير الحكمة التى جاء بها القرآن الكريم فى قوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » وفسر كلمة الحكمة بأربعة عشر تفسيرا ليس من بينها ماتعنية حكمة أفلاطون ولا أرسطو .

لقد تحدث المكى عن الحكمة الإسلامية التى عناها القرآن الكريم ، وعد الموعود بها صاحب خير كثير ولا ينطبق هذا المعنى القرآنى على حكماء الفلسفة ، إن اعترفنا لهم بالحكمة ولقبناهم بالحكماء ، على سبيل المجاز والتسليم الجدلى .

على أن المعانى التى ساقها للحكمة يتألق من بينها ، حفظ القرآن ، وفهم الطائفه ورقائقه ، والورع ، والإصابة فى القول والعمل . وتلك هى المعانى الإسلامية الخالصة التى لا تبعث على الشك فى صدورها من عالم مسلم صاحب مجاهدات وسلوك . وممن نقل عنهم فى معانى الحكمة ابن عباس والسدى رضى الله عنهما ، وهما فى عصر متقدم على عصر المكى ، ولا يستغرب منهما ومن غيرهما تفسير آية فى القرآن على السنن الإسلامى الصحيح .

فلا وجه إذن للشك فى الكتاب لأن صاحبه يتحدث عن الحكمة ، على أن الصوفية تحدثوا فى حكمة الفلسفة ووجهوها الوجهة الصحيحة ، وصححوا ما فيها من أخطاء وهم فى هذا الميدان عمالقة لا يشق لهم غبار .

وقيل كذلك إن المكى أحال فى « علم القلوب » على « قوت القلوب » قائلا بعد تلك الإحالة . « فمن أراد ذلك فليطالع كتابه » يقصد قوت القلوب لأبى طالب المكى . وهذا قول يدعو إلى الوقوف عنده حقا ، ولكنه لا يقطع يقينا بأن الكتاب منحول على أبى طالب ، إلا بعد أن نعود إلى دراسة شخصية المكى دراسة دقيقة .

تروى المراجع أن المكى قد هجره الناس فى آخر حياته ، لأنه خلط فى كلامه ، حتى لقد رموه بالبدعة ، ولا يستغرب انصراف الناس عن واعظ خلط فى كلامه ، ولكن أليس من الجائز جدا أن تلك العبارة التى دعت إلى الشك فى نسبة الكتاب إليه داخلة فى نطاق هذا الخلط ؟ أوهى حق ، وعين الحق ، لأنها إحالة من أبى طالب المهجور إلى أبى طالب المشهود وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن كثيرا من كبار الصوفية أنكروا أسماءهم ، وصاروا أصحاب شخصيات متعددة ينسخ لها حقها سابقها ، جاز لنا ألا نعتبر هذا القول داعيا إلى نفى نسبة الكتاب إليه .

لقد فقد أبو يزيد البسطامى نفسه واسمه وشخصيته حينما جاء بعض المريدين من تلاميذ ذى النون المصرى ، يسألون عنه ، فتساءل هو الآخر

عن نفسه ، وقال : إنه يبحث هو الآخر عن أبي يزيد ، فلا يجده . ولو كان البسطامي رضي الله عنه من المؤلفين لأحال عن كتبه السابقة بما أحال به أبو طالب على قوت القلوب وفي هذا الكتاب شواهد كثيرة ، تدل على أن الصوفية كانوا يعيشون بعيدا عن شخصياتهم في مقام الفناء . وإذا كان سيد العارفين صلى الله عليه وسلم أنكر كل حال سبق أن اجتازه واستغفر الله تعالى منه فلا يستغرب من السالكين أن ينكروا شخصياتهم ، ويحيلوا إليها كما يحيل الإنسان على إنسان آخر ، لاسيما وقد شهد المؤرخون بأن المكي خلط في آخر عمره كما أسلفنا . أما القول بأن المراجع لم تذكر الكتاب ضمن مؤلفات المكي ، فلا يقوم حجة على الشك في نسبة الكتاب إلى مؤلفه إلا إذا أقمنا الدليل على أن حاجي خليفة ، مثلا اطلع على كل ما كتب في العلم قبل عصره وهو مالا يمكن بأي حال من الأحوال . وهناك آلاف الكتب لم تذكرها المراجع لمؤلفيها مع أنها ثابتة لهم دون شك ، ولكن المراجع ، كلها أجمعت على أن له مؤلفات في التوحيد وهل هذا الكتاب إلا من كتب التوحيد ؟ وعلى فرض أن الكتاب مجهول المؤلف ، فهل في ذلك ما يسقط الكتاب من ميدان العلم . ومن قائمة الكتب التي تبث الفائدة في الناس ، وتطلعهم على جديد من المعرفة ؟

إن كتاب علم القلوب يمثل مرحلة من مراحل حياة أبي طالب المكي حينما كان في بغداد ؛ وحينما جنى ثمرات مجاهداته ، وصار متحدثا بالأذواق وهو كتاب كما قلنا من قبل يتحدث في موضوعات جديدة ويفتح آفاقا جديدة ذكرنا بعضها ، ونضيف إليها أنه لحن من ألحان الأدب الصوفي الرفيع جدير بالبحث ، فكل النقول التي رواها المؤلف قطع أدبية رائعة ، ونغم من أنغام الروح يضفي كل على الكيان الإنساني رهبة وحبا للكون كله.

عبد القادر أحمد عطا
المتخرج في كلية دار العلوم

فهارس الأعلام

فهرس الموضوعات

الموضوع الصحيفة

الموضوع	الصفحة